فتاة مصر

اســـم الكتـــاب: فتـــــــاة مصـــــــر

التـأليـــــــف: د. يعقـــــوب صـــــروف

نـــوع العمـــل: روايـــــــــــــــــة

إخـــراج داخلـــي: سالم عبد المعز سواح (عمرو سواح)

رقـــم الإيـــداع: 2021 / 21112

الترقـــيم الـــدولي: 978-977-835-261-0

الناشـــــــــر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر Facebook

za7ma-kotab@hotmail.com Email

002 01205100596

002 01100662595 Tel

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كُتَّاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

فتاة مصر

رواية

الكاتب

د. يعقوب صروف

كلمة

في فتاة مصر

طارت شهرة هذه الرواية وهي لا تزال في المهد من أقصاء هذا القطر إلى اقصائه واخترقت البحار إلى سائر البلدان حيث خفق للغة العربية علم وما كادت تتم الحول الأول في الوجود حتى نفد كل ما طبع منها ووردت الرسائل على حضرة شقيقي الدكتور يعقوب صروف من رجال العلم والفضل الراغبين في تنشئة الطلاب على تحدي الانشاء الفصيح الخالي من كل تعقيد طالبين اعادة طبعها. ولما كانت اعماله الكثيرة تحول دون إجابة الطلب استأذنه في إعادة طبعها لي في ذلك.

ومن حسن الاتفاق أن حضرة استاذي العالم الفاضل جبر افندي ضومط أستاذ اللغة المدرسة الكلية السورية في بيروت بعث بمقالة إلى مجلة المقتطف الغراء وصف فيها هذه الرواية ابلغ وصف فلم أجد بداً من نقل بعض ما جاء فيها. وليس نقلي له تقريظاً للرواية وإنما لكي يلم من يريد قراءتها والانتفاع بفوائدها ببعض موضوعها.

قال الاستاذ:

«قبل أن أبدأ بانتقاد هذه الرواية البديعة في بلبهل لقول أني كنت أقرأ فتاة مصر كما كنت أقرأ بقية مقالات المقتطف الرائجة وأعيد النظر فيها كما أعيد النظر في تلك فتأخذني نشوة من حسن أسلوبها وما أودعه الكاتب» في مطاويها من أفكاره العمرانية

وانتقاداته البديعة الفلسفية إن في ما يتعلق بأسباب الحرب الروسية العمرانية أو في ما يتعلق بأحوال مصر الاجتماعية والزراعية أو في ما يتعلق بالماليين وتأثيرهم في هيئة المدينة الحاضرة.

والحق يقال اني كثيراً ما كنت أقدم قراءتها على قراءة بقية مقالات المقتطف لا لمجرد الفكاهة واللذة المرادة من كتابة اغلب الروايات بل لما كنت أرى فيها من الحقائق العمرانية والسياسية وما ترمي إليه من إصلاح الأخلاق والعادات والتعريض ببعض ما أضر بنا من الإقبال على ما كاد يشرف بنا على شفا جرف من الإفلاس والخراب واشتدت غوايتنا به حتى عم أو كاد يعم غنينا وفقيرنا عالمنا وجاهلنا تاجرنا وصانعنا وأعني بذلك مضاربات البورصة والتقحم فيها على خراب ونحن لا نشعر.

وأقول أيضاً أني بعد أن قرأتها اجزاءً وقت صدورها عدت فقرأتها مجلدة مرتين فما زادتني قراءتها الا إعجاباً بها ويقيني أنها من خير ما ألف لتهذيب شباننا وإنها اجدر كتاب لحد الآن يحسن بنا أن نضعه بين أيدي شباننا وطلبة مدارسنا يقرأونه أولاً لما فيها من حسن الأسلوب ودقة التعبير مضافاً إلى ذلك فصاحة الالفاظ وبلاغة التركيب وسلامة الذوق، وثانياً لما فيها من المرامي والمقاصد الحكمية والفلسفة العمرانية ولا سيما ما ينبغي تنبيه أذهان الشبان إليه من قوة المال والماليين وانه لا تقوى أمة أو تصير شيئاً مذكوراً ما لم يجتمع عندها بكد افرادها واقتصادهم رأس مال يعدونه لطوارق الحدثان يغالبون بقية الامم ويزاحمونهم على موارد التجارة والانتفاع وينازعونهم بكثرته السطوة والوجاهة.

فلا مجدَ في الدنيا لمن قلَّ مالهُ * ولا مالُ في الدنيا لمن قلَّ مجدهُ

وهنا أشكر لأستاذي الدكتور صروف واضع هذه الرواية لأنه أجاب ملتمسي في طبعها على حدة لينتفع بها التلامذة خصوصاً وأنها وفت بالغاية التي من أجلها التمست منه طبعها على حدة وهي الآن كتاب مطالعة لأكثر من ستين بل سبعين طالباً يتمرنون بمطالعتها على تطبيق قواعد النحو على ما يقرؤونه ويتحدون أساليبها في الكتابة والانشاء وقد وفت بهاذين الغرضين فضلاً عما يجده فيها الطلبة من الفوائد العمرانية والاخلاقية المقصودة رأساً من تأليفها.

موضوع فتاة مصر وأبحاثها

موضوعها أو الغاية منها فكاهي تهذيبي وأبحاثها اجتماعية عمرانية. أما الفكاهة فيها فأحكم أن الكاتب وفاها حقها من تشوق القراء إلى الرواية وحديثهم فيها والذي اعرفه في هذا الصدد إنما أعرفه من نفسي وأهل بيتي وبعض أصدقائي الذين يقرأون المقتطف وهؤلاء كلهم كانوا إذا تأخر عنهم المقتطف يوماً خالوه أسبوعاً ومعظمهم على ما أعلم كانوا يبادرون حين وصوله إليهم إلى فتاة مصر. وقد لحظت ممن أشرت إليهم جميعهم أن غضبهم على عزراً كان شديداً وبلغ استياؤهم مبلغه عند ما قرأوا الفصل الثامن والعشرين والثلاثين الأول في التهييج والثاني في المرافعة واشتموا منهما نجاة عزرا من الحكم عليه. فلما ظهرت الحقيقة سرى عنهم وبدت عليهم امارات الرضى والابتهاج.

وأما الغاية التهذيبية ففي وصف امرأة الخواجة لاڤي وامرأة واصف بك وابنتيهما وحليمة ودورا ما يفي بها. فإن كل ما وصف به هؤلاء السيدات أو أسند إليه من الأقوال والأفعال كان غاية في بابه

في إنه يرفع النفس في النساء والفتيات وربات البيوت ويحبب إليهن الفضيلة والتعقل والطهارة وسلامة النية المقرونة بالفهم وصحة النظر ويرغبهن في كل ذلك. وكل ما قيل عن أمين بك وما أصابه وأصاب أهله وأصحابهم من الغم والحزن هو مما يكره بالبورصة وأمثالها من المضاربات التي استغوت كهولنا وشباننا. وهنا اذكر إني بعثت بهذه الرواية إلى ابني في مدرسة الشوير فقرأها ولما رأيته في مسامحة عيد الفصح رأيت أنه أثر فيه جداً ما قيل عن أمين بما كره إليه البورصة وبدا لي منه ما يشف عن شدة احتقاره لها ولمن يتطوح جهلاً في اشغالها مع أنه لا يتم الثانية عشرة من عمره قبل يونيو القادم، ولا أقول أنه فهم كل ما فيها من المطاوي الفلسفية ولكني أقول أنه قرأها فتفكه بقراءتها واستفاد منها وأقل ما استفاده (وهو من أعظم الفائدة) أنه تولد فيه مقت ونفور شديد من هذه المغواة الجهنمية التي ذهبت بأموال الكثير من تجارنا وابناء الأغنياء والكبراء منا.

وكل ما قيل عن هنري برون هو في بابه خير للشبان والطلبة من عشرين خطاباً موضوعها الترغيب في الجد وعلو الهمة والتجافي عن البذخ والاسراف وانصراف النفس إلى المعالي وبذلها في الواجب وخدمة البلاد والأمة والحكومة.

وأما بقية الأغراض العمرانية من قوة المال والماليين وأسباب الثورة الروسية فيكفي الفهيم اللبيب ما أودعه الكاتب فيها من الحقائق والمباحث الدقيقة مما هو غاية في بابه. وليس لي شيء أقوله في انتقاد هذا الموضوع ألا تحفظ الكاتب وهو ما يتطلبه العلم وحنكة السن وخير للكاتب أن يعرف القارئ ما يريد أن يقوله من غير أن يقوله.

والخلاصة أن هذه الرواية بديعة في بابها وأسلوبها البلاغي وأبحاثها. والذي اعقده أنه لم ينسج بعد أحسن منها ولا مثلها وقد خلت من كل تضليل تاريخي يمكن أن يقع في الروايات التاريخية ووقع شيء منه في رواية قلب الأسد وما هو على شاكلتها من الروايات كما أنها خلت أيضاً مما قد لا تخلو منه رواية فكاهية مما يحرك النفس الشهوانية او عاطفة الحب الطبيعي بما يضر الشبان والشابات ويدفعهم إلى ما وراء الحد الذي لا يحمد اندفاعهم إليه. وغاية ما أقوله في هذا الصدد إني لا أخشى مغبة من قراءتها على تلميذي أو على ابني أو ابنتي أو . أو. فجزى الله مؤلفها خيراً ولا أقول ما أقول تقربا من كاتبها فإنه أستاذي بكل ما تحتمله هذه اللفظة من المعنى الحقيقي للأستاذ وأنا تلميذه بكل ما يجب أن تتضمنه لفظة تلميذ من المحبة والاعتبار وليس بين الأستاذ والتلميذ إذا كان على هذه الصورة ما يصوغ أن يتوهم فيه انه من قبيل التقرب ومجرد حب الزلفي بوجه من الوجوه والسلام.

هذا ما قاله حضرة استاذي الفاضل وهو مطابق لما قاله كل من طالع هذه الرواية من العلماء والأدباء حتى ومن عامة القراء فعسى أن تكون إعادة نشري لها خدمة لجمهورهم.

اسحق صروف

*****

الفصل الأول

السفر إلى المشرق

في حي من أحياء لندن الجديدة حيث يقل الازدحام وتتسع الرحاب المتروكة من غير بناء بمساعي أرل ميث لتجديد الهواء وتطهير الدماء وانعاش الأبدان بيت كبير بل قصر فخيم مبني على نسق القلاع القديمة تحيط به حديقة غناة واسعة الارجاء ملتفة الأشجار هبت رياح الخريف على أشجارها ورياحينها فتوردت واغنتها عن الأزهار حتى خدع النحل بها وصار يقع عليها ليتعلل بشيء من الأري يجده فيها.

في غرفة كبيرة من غرف هذا البيت الشاب طويل القامة نحيف الجسم أقنى الأنف أسيل الخد أسود الشعر والعينين وأخته وهي أصغر منه سناً وأشد بياضاً شقراء معتدلة القوام تخالف اخاها خَلقاً وخُلقاً آخذة عن أبيها وهو اسكتلندي كما أن اخاها آخذ عن أمه وهي فرنسوية الأصل وهذا هو الغالب في وراثة الأخلاق العقلية والأوصاف البدنية.

كانت الغرف مدفأة بالبخار الجاري في أنابيب متصلة بأسفل البيت حيث يولد وبدفع إلى غرف البيت كلها ومنارة بالكهربائية وفيها كل أسباب الراحة والرفاهة فوق ما فيها من فاخر الأثاث والرياش مما يدل على بسطة عيش ونعمة وافرة. ولا غرابة في ذلك فإن باب البيت السر أدورد برون أبا الفتى والفتاة صاحب جريدة لندن نيوز أثرى من جريدته ثروة وافرة إذ بلغ ما يطبع منها في اليوم

الواحد أيام حرب البوير مليوناً وثلثمائة ألف نسخة فحولها إلى شركة مساهمة رأس مالها ثماني مئة ألف جنية وأنشأ جرائد أخرى مختلفة الأشكال كثيرة الرواج ولم يكن له غير هذين الولدين وأسم الفتى هنري واسم الفتاة دوراً. وكان الوقت صباحاً وقد جلس هنري في كرسي كبير مفكراً وجلست دوراً تقرأ جرائد الصباح. وكان أبوها قد قام عن المائدة وذهب إلى مكتبته ودخلت زوجته غرفتها. ومر نحو ساعة وهنري ودوراً لا يفوهان بكلمة إلا أن هنري لم يكن يقرأ بل كان شاخصاُ إلى صورة خيالية معلقة أمامه وأخيراً قال لأخته أتعلمين يا دورا إني حلمت في الليلة الفائتة حلماً لا يزال شاغلاً بالي. حلمت أن فتاة تشبه هذه الصورة في قوامها وملامحها أيقظتني من نومي وقالت لي هلم ورائي إني قرينتك المخلوقة لك هلم فتش عني في ديار المشرق. وللحال استيقظت وألتفت إلى ما حولي حاسباً أن ما رأيته حقيقة لا حلم فلم أر أحداً. ثم نمت فتكرر الحلم ثانية ورأيت تلك الفتاة عينها وقالت لي ما قالته أولاً هلم ورائي إلى ديار المشرق هلم فتش عني فيها. فاستيقظت مضطرب الباب وكان الوقت صباحاً. ولا شبهة عندي في صحة ما يقال عن الألفة والقرينة فإن لكل إنسان إلفاً أو قريناً يؤالفه ويوافقه ولا يهنأ لهما عيش ما لم يجتمعا ويقترنا وهذا سر ما نراه من الألفة والوئام بين بعض الأزواج والنفور والنشوز بين غيرهم.

فتبسمت دورا وقالت يظهر لي أن طيف هذه الغانية فتنك ولا إكراه لك السياحة في بلاد المشرق إذا أخذتني معك ولكن التفتيش عن الزوجة فيها ضرب من المحال إلا أن تكون فتاة من بنات جلدتنا القاطنات هنالك.

فقال ولكن الفتاة التي رأيت طيفها سمراء الوجه سوداء الشعر كهذه الصورة ليس فيها شيء من ملامح الإنكليزيات فلا يعقل أن أدعى للاقتران بفتاة شرقية ثم اقترن بفتاة غربية.

فقالت إليك عن هذا الخيال الآن فإننا أهل جدٍ لا أهل هزل وقد كدنا نرتاب في الحقائق فهل نصدق الأحلام.

فقال لست من أهل الخيال كما تزعمين ولكن ما تعليل ما نراه من الوفا مرةً والخلاف أخرى ولماذا لا يكون بين الناس ألفة مختلفة الدرجات كما بين العناصر الكيماوية ولماذا لا نقول أن الحب والألفة الكيماوية من قبيل واحد.

فقالت إن اختلفنا في هذا الموضوع فنحن متفقان في فائدة السفر وفي إني أسير معك إلى بلاد المشرق فهلم نستأذن والدينا فقد وعدانا بسياحة مثل هذه منذ ثلاث سنوات وقام الأثنان وذهبا إلى غرفة أمهما وعرضا عليها الأمر فقالت إذا أذن أبوكما لكما في ذلك فلا مانع عندي ولو عز علي فراقكما وكنت أود أن نذهب كلنا معاً ولكنني عالمة أن أباكما لا يذهب هذه السنة لأنه ينتظر أمراً جللاً من وراء تحالفنا مع اليابان ولقد سمعته بالأمس يكلم أحد الوزراء في ذلك. فلابد له من البقاء ههنا حيث دفة السياسة. ولا أدري أي متى يمكنني أن أخلصه من هذا الشغل المنهك للقوى وقد كنت أظن أن تحويل الجريدة إلى شركة مساهمة يخلصنا من متاعبها فزدنا تعباً ولا سيما بعد أن انتهت حرب البوير وعقد الصلح فقد أنحط المبيع من الجريدة من مليون وثلث إلى نصف مليون وأبوكما لا يسكن له روع ولا يهدأ له بال لأنه يخشى أن يعود المساهمون عليه باللائمة ولو كانت تسعة أعشار الأسهم في يده وقد أنشأ جرائد أخرى فزادت

أشغاله ومتاعبه فأذهبا إليه وأنا أساعدكما وعسى أن لا يكون نصيبكما مثل نصيبه الكد والتعب لغيركما.

فقام الأثنان وانطلقا إلى مكتب أبيهما وطلبا منه أن يأذن لهما في السياحة سنة كاملة فقال لهما وما هي خطة سياحتكما فقال هنري نذهب من هنا إلى مصر ونقيم فيها شهراً من الزمان ثم نمضي إلى الهند فالصين فاليابان ونعود بطريق أمريكا ونشاهد معرض سنت لويس.

فأطرق هنيهة يفكر في الأمر ثم رفع رأسه وألتفت إليهما وقال أهذه السياحة للنزهة فقط أم ممزوجة بعمل مفيد تخدمان به أباكما وبلادكما. فقالا مر بما تريد. قال إذاً لا مانع من سفركما. أما العمل فهام جداً ولا أبالغ إذا قلت لكما أن حياة الإمبراطورية البريطانية بنوع عام وحياة بيت أبيكما بنوع خاص متوقفة عليه فهل أنتما مستعدان لمساعدتي فيه.

فقال هنري نعم يا أبي أما دورا فوقفت صامتة. فقال لها أبوها وأنت ماذا تقولين. فقالت ربما لا أستطيع أن أفعل شيئاً مما تطلبه منا فكيف أعد قبلها أعرف المطلوب. فقال أصبت من وجه وأخطأت من آخر أصبت لأنه لا يحسن بأحد أن يعد بشيء ألا وهو قادر على الوفاء به وأخطأت لأنه كان يجب عليك أن تثقي بأبيك وتعلمي إني لا أطلب منكما إلا ما تستطيعانه.

فأحمر وجهها خجلاً وقالت أصبت يا أبي ولكنني شاعرة بما يتردد في صدرك ويقيني أن أيدينا ملآى والزيادة على ما عندنا تزيدنا هماً وتعباً.

فقال ولكن نحن الآن في معرض البقاء أو الفناء ومناظرونا يتهددون ممالكنا ومتاجرنا والدم السكسوني لا يرضى بالذل. ولما قال ذلك أحمر وجه هنري ولحظ أبوه ذلك فقال ولا يرضى به دم حر أياً كان فاجلسا الآن فابسط لكما ما أريده منكما.

فجلسا وكلمهما كلاماً طويلاً عن زراعة القطن في أمريكا واستبداد الأميركيين بالأسعار حتى كادت معامل لنكشير تخرب من جراء ذلك وأهلها يموتون جوعاً وعن رفع العلم الروسي على منشور يأكلها وتحصين مرافئها وتهديد التجارة البريطانية فيها وفي الصين وكرويا وأطال الحديث إلى الظهر. ثم وضعوا خطة السفر وقام وسار إلى نادي الصحافة واجتمع بكثيرين من أرباب الصحف اليومية وذاكرهم نحو ساعة من الزمان.

*****

الفصل الثاني

نادي الصحافة

الرئيس: رشح السر ادورد برون صاحب لندن نيوز أبنه وأبنته للدخول في نادي الصحافة وعرض اسميهما علينا وقد زكى طلبه السر هنري غراي صاحب لندن بوست والسر كمبل كار صاحب مجلة المشرق. والفتي والفتاة عازمان على السياحة في مصر والهند والصين واليابان ويقال في الشهادات الواردة عنهما أنهما عالمان حرج الحالة الحاضرة وينتظر منهما نفع كبير.

نائب الرئيس: عرفت هنري برون في المدرسة وهو شاب حسن الأطوار كريم الأخلاق يحب وطنه وأمته لكنه شديد التأثر فقد يحمل على المجاهرة بما لا نود المجاهرة به.

أحد الأعضاء: هل بقى شيء لا نود المجاهرة به وكل ما نسر وكل ما نعلن معروف عند الجميع بل صرنا نتهم بأكثر مما نقصد أو نضمر.

نائب الرئيس: أصبت في أن مقاصدنا كلها معروفة ولو لم نجاهر بها في جرائدنا ولكن البون شاسع بين ما نقوله نحن ونعترف به وما ينسب إلينا فلا يحسن أن نسير إلا على تمام الحذر.

الرئيس: أخبرني السر ادورد أنه واثق بتعقل أبنه وحسن نظره في العواقب

نائب الرئيس: هذا من جهة الشاب أما أخته فهل تعلم عنها شيئاً.

الرئيس: هي سر أبيها ومثاله كأنها نسخة ثانية منه في الأخلاق والأطوار مع زيادة في الحذر والتوقي ولين في العواطف كما تقتضيه حال المرأة.

أحد الأعضاء: إذاً لا نرى مانعاً من الاقتراح عليهما.

وجرى الافتراح السري فنالا من الأصوات ما يجيز لها الانتظام في نادي الصحافة والاطلاع على أغراض أصحابه وعُين للاحتفال بدخولهما اليوم السابع من الشهر.

وفي اليوم المعين اجتمع أعضاء النادي من أصحاب الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية ورؤساء محرريها رجالاً ونساء وهم نخبة قليلة لا يزيد عددهم على مئة وستين نفساً. والنادي وراء شارع أكسفرد الجديد مما يلي المتحف البريطاني وهو مبني بالمرمر السماقي وقد أنفق على بنائه وفرشه نحو مئة ألف جنية. وفي الساعة المعينة أتى بهنري وأخته وأدخلا غرفة كبيرة لم يريا فيها غير أبيهما والضامنين اللذين ضمناهما وربطت عصابة على عيني كل منهما وأدخل إلى مجلس كبير فيه أعضاء النادي وطرحت عليه مسائل شتى سياسية واقتصادية وكان الكاتب يكتب ما يجيب به ارتجالاً وتناولت المسائل حقوق الدول وحاصلات البلدان ومتاجرها ومشاكل العمال وأصحاب الأموال وتاريخ البلاد الإنكليزية بنوع خاص وتاريخ البلدان التي استولت عليها. ولما تبين الحضور أن الطالبين يصلحان لأن يكاتبا جريدة من جرائد انكلترا المشهورة وينفعا بلادهما وامتهما قبلوهما بينهم وكلفوا الضامنين أن يشرحا لهما أغراض النادي بالتفصيل ثم خرجوا بهما إلى غرفة المائدة وكانوا قد أولموا لهما وليمة فاخرة فأكلوا وشربوا وخطبوا الخطب الحسان ترحيباً بهما واطناباً في العمل العظيم الذي قام به أبوهما.

الفصل الثالث

البالو الخديوي

القمر بدر والسماء صحو وجو القاهرة خال من الرطوبة فتبين الكواكب فيه ولا يحجب القمر منها إلا ما قرب منه. والشوارع مزدحمة بالمركبات تسير فيها الهوينا وتلتقي صفوفها في ساحة عابدين ورجال المشاعل وقوف حول الساحة في صفين مستديرين متوازيين فيدفئ حر مشاعلهم الهواء ويظهر لهبها أحمر ضئيلاً أمام أنوار الكهرباء وفرسان الشرطة على صهوات خيولهم يأذنون للمركبات في المسير من هذا الصف ومن ذاك دواليك. والسير بطئ حسب نزول الركاب من المركبات أمام باب السراي فمل بعضهم الانتظار ونزلوا من مركباتهم وساروا على الاقدام حتى لا يتأخروا عن الاستقبال حين يقدم الحضور إلى سمو الخديوي.

قالت بهية على م لا ننزل نحن أيضاً ونمشي مثل هؤلاء فقد عيل صبري ومللت الانتظار فقال أخواها أنزلي فأنزل معك وقالت أمها أنزلا أما أنا وأبوكما فنبقي في المركبة. ثم تذكروا أن ورقة الدعوة واحدة بأسماء الأربعة وقد تطلب منهم عند الدخول فلا يحسن أن يفترقوا فظلوا في المركبة إلى أن وصلت بهم إلى باب السراي وبادر الغلمان وهم بالثياب الحمراء المقصبة وفتحوا بابها وأقبل رجال التشريفات فتأبط اثنان منهم ذراعي بهية وأمها وساروا بهما إلى حيث وضعا ردائيهما وسار أبوها وأخوها وراءهما ثم صعدوا سلماً كبيراً من الرخام الناصع البياض مد عليه بساط أحمر مخملي وقام على

طرفيه درابزون من النحاس الأصفر كأنه الذهب الابريز إلى أن بلغوا دار السراي العليا واختلطوا الجمع. وكانت الساعة الحادية عشر وقد وصل أكثر المدعوين فغصت بهم دور السراي وغرفها على رحبها وهم من طوائف شتى وأجناس مختلفة فيهم أمراء العائلة الخديوية ونظار الحكومة المصرية وكبار الموظفين والمتقاعدين وأعيان الوطنيين والنزلاء ووكلاء الدول وضباط جيش الاحتلال وجمهور من السياح من انكليز وفرنسويين وروسيين وألمان وأسبانيول وطليان وأميركيين وفرس وهنود ومغاربة بأزياء مختلفة بعضهم بالحلل المقصبة تتألق النياشين على صدورهم وأكثرهم بالثياب السوداء التركية أو الأوربية على نسق واحد أو بالعمائم والجبب. هذا من قبيل الرجال. أما النساء فلا تسأل عن أزيائهن وحلاهن وحللهن ولا تكاد اثنتان تتماثلان في شيء وهن في ذلك على درجات متفاوتة فمن سيدة في حلة من الحبك الارلندي لا يقل ثمنها عن مئات الجنيهات وتاج من الماس البراق وعقد من الدر النضيد ومشابك وأساور يتألق ماسها وياقوتها وزمردها كالدراري ويقدر ثمنها بألوف الجنيهات. إلى سيدة غنيت بجمالها عن مظاهر الغنى فلم تلبس إلا ثوباً من الشاش الرقيق ولم تتحل إلا بزهرة وضعتها في صدرها وأخرى شكلتها في شعرها. والناس يعجبون بجمال هذه وبساطة لبسها وسلامة ذوقها كما يعجبون بأبهة تلك وما عليها من دلائل الغنى والمجد.

بعد هنيهة من الزمن التفتت بهية إلى أخيها وقالت له أنظر يا أمين جارتنا أستير وما أجمل هذا العقد في عنقها فهو لؤلؤ حر على غلاء اللؤلؤ في هذا الوقت.

فقال نعم وماذا يهمها فقد ربح أبوها بصعود القطن لا أقل من مئة ألف جنية ويقال أنه ساع في مشتري مئة ألف فدان من

الحكومة لشركة إنكليزية وسيكون ربحه منها مئة ألف جنية أخرى. مئتا ألف جنية في سنة واحدة عدا ربحه العادي من السمسرة.

ففتحت بهية عينيها ورفعت حاجبيها وقالت مئتا ألف جنية في سنة واحدة هذه ثروة طائلة.

فقال ألا تتذكرين ما قرأناه في التوراة من أن اليهود سيعودون إلى بلادهم بثروة الأمم وهم الآن من أغنى الناس في كل بلاد استتب فيها الأمن وروعيت الحقوق.

فتبسمت وقالت له هذه فرصة لا تفوت فليس لاستير إلا أخ واحد والخواجة لافي يحبها ويقال أنه يستشيرها في كل أموره على حداثة سنها ولابد من أن يورثها نصف أمواله.

فقال ولكن أبناء أعمامها كثيرون فلا يدعونها تذهب إلى أجنبي ثم إني لا اكرم هذه الفتاة وأسر بحديثها لغناها وغني أبيها بل لجمالها وذكائها ودعتها وعندي أنها مثلك من هذا القبيل.

فضحكت وقال أهذا اعتقادك في ما أقل الأخوة الذين يعتقدون الكمال في إخواتهم إلى هذا الحد.

فقال وأنت تعلمين إنني شديد الانتقاد فلا أتكلم عن الهوى. ولكن ما لنا ولهذا الحديث الآن تعالي أرقصي معي لئلا يأتي آخر ويدعوك إلى الرقص معه وأبي لا يريد ذلك.

وقبل أن يتم كلامه دنا منهما شاب طويل القامة كبير العينين أسود الحاجبين عالي الجبين يجري في عروقه الدم العربي والدم التركي فسلم عليها مصافحة ثم سأل بهية عما إذا كانت تتنازل إلى الرقص معه فنظرت إليه وقالت لقد وعدت غيرك قبلك فقال

الرقصة التالية فقالت أن لم أتعب كثيراً. فأدرك إنها تفضل أن لا ترقص معه لكنه شكرها وبقي واقفاً يرى جمالها الفتان ويعجب باعتدال قوامها ودعج عينيها وعذوبة منطقها ويقول في نفسه ما ضر حليمة لو أتت إلى هذا المكان وشاهدت أخوتها وأخواتها أبناء أدم وبناته. وكيف يحجب النظر عن رؤية أجمل مخلوقات الله وأفضلها. يقولون أن القلب يغوى. وهذا صواب ولكن الألفة تزيل الغواية ففي أول نوبة دخلت مرقصاً وشاهدت النساء مكشوفات السواعد والصدور دهشت واشمأززت واستغربت وصرت أحجب طرفي لئلا أغوي ثم قل هذا الاستغراب في المرة الثانية والثالثة إلى أن زال وأنا أرى الآن المرأة العارية النحر والصدر كما أرى الزهرة والحلية فاستحسنها إذا كانت حسناء واستقبحها إذا كانت شنيعة وقد لا ألتفت إلى كونها جميلة أو شنيعة بل إلى أنها فلانة أو فلانة وسواء عندي لبست ثياب البالو أو ثياب الحداد وسواء رأيت وجهها فعرفتها منه أو رأيت حبرتها فعرفتها منها.

هذه الخواطر جالت في بال حليم وهو واقف ينظر إلى أمين وبهية يرقصان مع عشرات غيرهما وكأنه لا يشعر أمامهُ ثم تنبَّه لهما ولغيرهما من الراقصين والراقصات فلم يفقه إلا إلى حركات الرقص ومن يحسنها ومن يسيئها شأن غيره من الذين ألفوا هذه المشاهد.

أنتهي دور الرقص وسار أمين وأختهُ إلى غرفة الأشربة فشربا كأسين من القهوة المثلوجة وألتقيا باستير وأخيها هناك فسلم بعضهم على بعض ومشي يوسف أخو أستير مع بهية ومشي أمين مع أستير وساروا إلى دار الرياحين وجلسوا يتسامرون.

ومرَّ الخواجة لاڤي بجماعة من العلماء أصحاب العمائم وينهم الإمام أحمد وهو أستاذ مشهور بالعلم والفضل وكان الخواجة لاڤي يتودد إلى المواطنين ويقول أن معرفة لغتهم العربية لازمة كمعرفة العبرانية والزم من معرفة الفرنسوية والإنكليزية والإيطالية.

وكان الإمام أحمد منذ ست سنوات رقيق الحاشية على اشتهاره بالعلم والفضل فاستخدمه الخواجة لاڤي لتعليم أبنه وأبنته فدرسهما العربية قراءة وكتابة وصرفاً ونحواً وأعطاهُ الخواجة لاڤي فوق أجرته العادية عشرين سهماً من أسهم الدائرة السنية التي أخذها المؤسسون كان السهم منها يساوي جنيهاً فصار يساوي مئة جنية فأقبلت الدنيا عليه وصلح حاله ودعى إلى منصب على رفيع ويقال أن الخواجة لاڤي لم يعطه تلك الأسهم جزاء تعليمه لولديه بل لكي يساعده في إنشاء شركة لضمان الحياة وإقناع العلماء للإفتاء بجوازها. ومهما يكن من الأمر فقد صار الأمام أحمد بعد أن صلحت حاله قطب دائرة لجماعة كبيرة من العلماء والمريدين فلا يجلس في مجلس لا تألبوا حوله يسمعون أقواله.

لما أقبل الخواجة لاڤي نهض الإمام أحمد إجلالاً له فنهض الذين حوله أيضاً ثم جلسوا معاً وقال الإمام موجهاً الخطاب إلى الخواجة لاڤي كنا نتكلم الآن عن الرقص وغيره من العادات الأوربية فقلت لإخواننا أن الرقص لا يختص بالأوروبيين بل هو شائع في كل البلدان وبين كل الأمم وقد كان شائعاً من قديم الزمان. ويقال أن بعض العجماوات تظهر سرورها بالرقص لكن عاداتنا القومية تستهجنهُ إذا كان على هذه الصورة. وقد بلغني أن كثيرين من الأوروبيين والأميركيين يستهجنونهُ أيضاً ومهما يكن من أمره فنحن في غنى عنهُ ولو كنا اقتبسنا كل اللباب من حضارة الأوربيين وبقي علينا القشر

لنظرنا في تحليل اقتباسه ومع ذلك لا أنكر على أبناء وطننا من إسرائيليين ومسيحيين الاقتداء بإخوانهم الأوروبيين. فقال الخواجة لاڤي الحق معك يا أستاذ وأنا أيضاً أكره هذا الرقص ولكن المثل يقول مع السوق. فقال واحد من الحضور وما قول الإمام في شرب الخمر.

فتبسم الإمام وأمر يده على لحيته وقال «إن الحسين بن موسى استحضر ابن عياش وابن إدريس فسألها عن النبيذ فقال ابن عياش حلال وقال ابن إدريس حرام فقال ابن عياش أدركنا أبناء الصحابة والتابعين بهذه المدة يشربونها في الولائم حلالاً أو حراماً وبكاؤنا على أصل الدين أشد من بكائنا على النبيذ» وأنا أقول قوله فإننا أضعنا أصول الدين فعليها البكاء لا على شرب الخمرة وقد شربها أكثر خلفائنا من بني أمية وبني العباس. ولا شبهة عندي في إنها ضارة وقد نهى الشرع عنها لضررها شأنه في كل المناهي فإن كل أحد لا يأنف من أن يشرب سماً يسم بدنه فهو وشأنه ولكن إذا كان السم قليلاً لا يضر لقلته فقد امتنع ما يوجب المنع. وإذا كان نافعاً في بعض الأحوال وأشار به الطبيب فلابد من الأخذ بقوله. والمسألة مسألة نفع وضر إذ لا يعقل أن تكون الخمر محرمة لذاتها سواء نفعت أو ضرت ومع ذلك فمذهبي الامتناع عن المسكرات كلها إلا إذا أمر بها الطبيب دواء وحينئذٍ يكون فيها منافع للناس. وألا لكحول الصرف أكبر فائدةً وأسلم عاقبةً بالمقادير التي يشير بها الطبيب.

ثم مرَّ الجناب الخديوي من تلك الجهة فنهض له الجلوس وقوفاً على الإقدام فحياً بعضهم مصافحة ولا سيما الإمام أحمد فإنه خصهُ بالتفاته وتكلم معهُ هنيهة.

وسار بعض الحضور إلى غرفة الاستقبال الكبرى فرأوا فيها وزيراً من وزراء المغرب الأقصى مر بالقطر المصري في رجوعه من الحج فجلسوا إليه وكان بينهم رجال عرفهم من قبل فعرف به رفاقه وجلسوا يتحدثون في أحوال الدول الإسلامية بنوع عام والبلاد العربية بنوع خاص وتوسعوا في الحديث إلى المغرب الأقصى وأحواله الحاضرة وما ينتظر له في المستقبل القريب. وكان الوزير شديد الحذر لكنه لم يخف إعجابه بما رأى من التقدم الباهر في القطر المصري وودَّ أن ينتفع أبناؤه كلهم من الفرص المباحة لهم فيأخذوا إخذ الأوروبيين ويتعلموا تعلمهم ويزاولوا الأعمال مثلهم وقال أنه يرجي لبلاده خيراً كبيراً. واراد بعض الحضور أن يستطلعوا طلعه فسألوه من ابن يأتي هذا الخير وعلى يد من فقال الله كريم ولم يزد.

وفتحت غرفة المائدة حينئذ وهرع البهما الناس أفواجاً حتى امتلأت بهم على رحبها ودخل أمين وأخته إليها ووقفا مبهوتين مما رأياه فيها من النقش البديع. وكان أمين مغرماً بكل ما هو شرقي فقال لأخته أنظري ما أبهى النقش الشرقي وانتساق الألوان فيه. فشغلاً عن الأكل برؤية نقوش الجدران والسقف وحاول قراءة الإشعار المكتوبة تحت السقف فقرأ بعضها ولم يستطع قراءة البعض الآخر لأنها مكتوبة بحروف معلقة متداخلة فتتعذر قراءتها على من لم يمارس قراءة الخط المعلق.

ورأى في غرفة المائدة أميراً هندياً لابساً حلة عسكرية بديعة الزركشة وحوله جماعة من المواطنين وهو يخاطبهم بقوله «لا إله إلا الله» ويقف عند هذا الحد لأنه لا يعرف من العربية غير كلمة الشهادة وهم مسرورون به مدهشون من منظره يودون أن يسألوه

عن بلاده وقومه ولكنهم يجهلون لغتهُ فخاطبه بالإنكليزية فأبرقت أسرة الأمير وهش إليه وجعل يكلمه ويكلم الجمع بواسطته وهو يترجم لهم وله وبقوا على هذه الصورة نحو نصف ساعة فسألوه عن أمور كثيرة تتعلق ببلاده وقومه وتطرقوا إلى بعض المسائل السياسية فقال إلى هنا فإنه يباح لي أن أتكلم في كل موضوع ألا هذه المواضيع. ورأت بهية أخاها يكلم الأمير الهندي فوقفت إلى جانبه تسمع ما يقوله والعيون شاخصة إلى محياها الجميل.

وكان في الجمع شاب انكليزي من كبار السياح الذين يدعون عادة إلى البالو الخديوي فرأى محتشداً حول كولونل هندي فدنا منه ولما وقعت عينه على بهية وقف جامداً كالصنم ثم هرِمل يفتش عن أخته وأخذها من كل كانت تمشي معه بعد أن أعتذر إليه وقال لها بصوت خافت وقلب خافق وجدتها وجدتُها. فقالت من هي فقال الفتاة التي زارتني في الحلم وأنا سائح للتفتيش عنها تعالى أنظر بها. قال ذلك وأتي مع أخته إلى حيث الجمع المحتشد حول الأمير الهندي فنظرت إلى بهية ورأت إنها تشبه الصورة التي في بيتهم فتبسمت وقالت لأخيها أصبت فإنها تشبهها تمام المشابهة. كأن المصور أراد أن يصور الشكل المصري وهو في أجمل حالاته وأبدع معانيه فجاءت صورته المجردة من صور الخيال مشابهة لصورة هذه الفتاة. إنها جميلة جداً لا أخالفك في ذلك ولكنني على رأيي الأول وهو أن رسم الصورة التي عندنا ارتسم في مخيلتك فرأيته في نومك وهذه الفتاة بريئة مما تراءى لك لا يد لها فيه.

فقال دعيني من التعليلات العلمية. هذه الفتاة تستحق أن تعبد ولا سيما إذا كانت أخلاقها مماثلة لخلقها فما السبيل إلى التعرف بها.

فقالت ما دمنا في القاهرة فلا نعدم سبيلاً إلى ذلك فقد رأيتها منذ ساعة تتكلم مع أبنه الستر لاڤي الذي اتيناه بمكاتيب التوصية من لورد بنشيلد فسأسألها عنها.

فقال أحسنتِ نعم لقد رأيت مس لاڤي هنا وكلمتها وهي جميلة أيضاً ولكنَّ جمالها أوروبي لا شرقي.

فقالت كيف ذلك واليهود من أصح أمم المشرق نسبياً.

فقال نعم ولكن بعضهم أقام في أوروبا مئات من السنين ففعل بهم الإقليم فعلهُ بالأوروبيين كما أن يهود بلاد الحبش صاروا سوداً مثل الأحباش.

فقالت ولكن جمهور العلماء على أن هيئة اليهود لم تزل واحدةً في كل البلدان التي تفرقوا فيها ولو تغيَّر لون بشرتهم.

فقال أتركي لي التعليلات العلمية كما أترك لك التعليلات الفلسفية. من قال إن جمهور العلماء قالوا ذلك ومن أثبت أن الحق في جانبهم ولكن ما لنا ولهذه المباحث الآن هلمي نفتش عن مس لاڤي ونسألها عن هذه السيدة.

وسارا في غرف السراي من غرفة إلى أخرى إلى أن ألتقيا باستير أبنه الخواجة لاڤي فسلما عليها وعلى أمها ووقفا معهما هنيهة يتكلمان عن الرقص وملابس النساء وحلاهنَّ. ثم قالت دوراً لاستير من هذه الفتاة الطويلة القامة السوداء الشعر التي كنت تتكلمين معها منذ نصف ساعة. ثم وصفت لها ثيابها وحلاها. فقالت أستير نعم نعم هذه بهية بنت واصف بك رجل قبطي من أغنى أهالي هذا القطر عن أبيها خمسة آلاف فدان من أخصب الأراضي وقد اشترى خمسة آلاف اخرى من الدائرة السنية ويقول أبي إنهُ يقبل إمضاءهُ

على مئة ألف جنية وهي وأخوها يعرفان الإنكليزية ويتكلمانها مثل الإنكليز فقد كان عندهم مربية إنكليزية وأخوها درس في إنكلترا.

فقال هنري نعم سمعتهُ يكلم أميراً هندياً بالإنكليزية

فقالت أستير نعم وهم جيراننا هلمَّ معي فأعرفكما بهما

وسارت أستير وهنري ودورا إلى أن ألتقوا بهية وأخيها وهنري لا يصدق عينيه فنظرت أستير إلى هنري وبهية وقالت الشريف المستر هنري برون بن السر ادورد برون صاحب جريدة لندن نيوز المداموازيل بهية واصف. ثم التفتت إلى أمين ودورا وقالت أمين بك واصف مس برون. فتصافح الأربعة وشعر هنري كأنه عاد إلى الحلم الذي حلم به منذ شهر من الزمان فامتقع وجهه أولاً ثم أحمر وخفق فؤاده وارتجفت مفاصله واراد أن يتلكم فأرتج عليه وغضَّت بهية طرفها وأطرقت لا تتكلم وكأنها خجلت مما بدا منها فوردت وجنتاها حياء ولم يخف ذلك على دورا واستير أما دورا فكانت تعلم سببهُ وأما استير فظنتهُ من قبيل الحياء العادي المتغلب على الفتيات الشرقيات.

ودار الحديث على محاسن البالو وكثرة السياح في مصر واشتداد البرد في أوروبا وتغالى السيدات باللؤلؤ والزمرد وشيوع الزبرجد حديثاً بعد ما وُجد منهُ الشيء الكثير في جزائر البحر الأحمر ولم تكن دورا قد رأته فارتها بهية إياه معلقاً بقلادة في عنقها فأبدت استحسانها له. وكان بين الحضور بعض النساء الإنكليزيات الشريفات فأشارت دورا إليهنَّ وذكرت أسماءهن والقابهنَّ وما يقال عن وفرة حلاهن. ثم مر واصف بك وزوجته فاستوقفهما وقدمهما إلى هنري وأخته وكانا يتكلمان الفرنسوية فدعت مدام واصف بك دروا وأخاها

واستير وأخاها لتناول الشاي عندها عصر اليوم التالي.

وأتى الخواجة لاڤي حينئذٍ فلم على واصف بك وأعاد تعريف هنري به وجعل الثلاثة يتكلمون بالفرنسوية ومشوا معاً وجلسوا على مقعد في إحدى غرف السراي وجرى بينهم الحديث التالي.

قال الخواجة لاڤي لهنري أن واصف بك من أقدر الناس على إرشادك إلى ما تريد الاستعلام عنه. ثم قال لواصف بك أن المستر برون بن السر ادورد برون صاحب جريدة لندن نيوز المشهورة أتى للسياحة ولغرض هامٍ جداً وهو البحث عن الوسائل التي يمكن العمل بها لتكثير زراعة القطن في القطر المصري فهل ترى يا واصف بك إنه يمكن أن يتسع زمام زراعته في الوجه البحري وهل في الإمكان زرعهُ في كل جهات الوجه القبلي أيضاً.

واصف بك- أن توسيع نطاق الزراعة الصيفية يتوقف على وجود المياه الكافية صيفاً وعلى عمل الأعمال الهندسية اللازمة لذلك أما الآن فماء النيل الذي يرد مدة الصيف والذي يخزن في الخزان لا يكفي لأكثر مما يزرع في القطر المصري من القطن ولكن إذا عُلِّي الخزان حتى يتضاعف ما يخزن فيه من ماء وعملت أعمال هندسية في أعالي النيل حتى لا يضيع كثير من مائه زاد الماء الوارد والمخزون وأمكنا أن نزرع من القطن مضاعف ما نزرعهُ الآن أي أمكنا أن نزرع ثلاثة ملايين فدان بدل مليون ونصف فيصير حاصل القطر المصري نحو اثنى عشر أو ثلاثة عشر مليون قنطار وهي تقوم مقام خمسة ملايين بالة من القطن الأميركي فنغني انكلترا عن أكثر ما تأخذهُ من القطن الأميركي هذا إذا لم يخطر لكم أن تنشئوا معامل الغزل والنسيج في القطر المصري نفسه. وإذا ظهر بالامتحان إنه

يمكن زرع القطن الجيد في بلاد السودان فلا شبهة في إنه يصير عندكم ما تستغنون به عن القطن الأميركي كله.

وكان هنري قد تذاكر طويلاً مع الخواجة لاڤي في هذا الموضوع وود أن يقف على شيء من الحقائق والتفاصيل التي كان واصف بك يذكرها له الآن ولكنه لم ينتبه إليها الانتباه الواجب وظهر عليه الملل بل كان يسمع ولا يفهم خلافاً لما عهد فيه الخواجة لاڤي من التدقيق في السؤال والاستيعاب في البحث فقال له أظنك نعست الآن وربما إنك سهرت البارحة. فأدرك هنري حرج موقفه واعتذر عمَّا بدا منه قلة الانتباه وقال لواصف بك لابد لي من أن أقابل حضرتك مرة أخرى وأكتب كل هذه الأمور التي قلتها لي الآن. ولي مسائل أخرى أرجو أن لا تبخل علي بالإجابة عنها حينئذٍ أما الآن فأظن إنه حان لنا أن نتصرف ولا أعلم إلى أي ساعة يبقى باب الفندق مفتوحاً.

فقال له الخواجة لاڤي كن مطمئن البال فإني أرى هنا كثيرين من نزلكم ولك يعد منهم أحد حتى الآن ومع ذلك فالنوم الباكر أصلح للصحة- هلم نر أين السيدات. وسار الثلاثة معاً إلى أن ألتقوا بهن فقالت دورا لأخيها قد حان وقت النوم يا هنري ولا تنس أنك سهرت البارحة إلى ما بعد نصف الليل وربما تضطر أن تسهر غداً هلمَّ نذهب ثم التفتت إلى الذين حولها وودعتهم وودعهم هنري أيضاً وسار وراءها وهو كاسف البال مبلبل الأفكار فنزلا إلى غرفة الأردية والتفَّا بردائيهما وناديا المركبة التي احضرتهما فركباها وعادا من حيث أتيا.

*****

الفصل الرابع

بداءة البلبال

عاد هنري ودورا إلى فندق ساڤوي حيث أقاما منذ حضرا إلى مصر ولم يتكلما في أثناء الطريق على غير عادتهما. أما هنري فكان يفكر في الفتاة التي رآها في سراي عابدين ويقول في نفسه هي عين الفتاة التي رأيتها في حلمي مهما تقوَّات دورا في تعليل ذلك الحلم. وعندي الآن شاهد آخر على صحة قولي وهو ما شعرت به حين رؤيتها ويظهر لي إنها شعرت كما شعرت لأنها أطرقت حياء وصبغ الدم وجنتيها وقلت بعد ذلك أراها تنظر إلى كلما استرقت اللحظ ونظرت إليها فتغضى خجلاً.

ولما وصلا إلى غرفتيها اعتنقا وافترقا ودخل كل غلافته ورأى هنري أن النوم طار من عينيه فجلس أمام مكتبة وأخذ قلماً وقرطاساً وجمع أفكاره وكتب لأبيه كتاباً طويلاً عن وصف البالو ومن لقى فيه وما يظهر على الذين رآهم من دلائل الغني الوافر والنعمة السابغة. وخطر على باله حينئذٍ كل ما قاله له واصف بك عن زراعة القطن والري الصيفي فكتبه حرفاً حرفاً كأن ذاكرته وعنه كله على غير علم منه. ولما قرأ ما كتبه تذكر إنه سمعه ولام نفسه لآنه أبدى عدم الانتباه والاكتراث وقال في نفسه ترى ما سبب ذلك وأنا لم أعدم عقلي. ثم خطر على باله بهية واعتدال قوامها وحور عينيها ومشابهتها التامة للطيف الذي رآه في منامه فارتجفت مفاصله وبرد الدم في عروقه فألقى القلم من يده وقام يمشي في غرفته ذهاباً وإياباً

وأفكاره تائهة لا تستقر على شيء ثم جعل يراجع الكلام الذي سمعه منها وعنها وحانت منه التفاته إلى صورة أمه وكانت موضوعة أمامه فوق مكتبه فتذكر حبها وحنوها ووصاياها فسحت الدموع من وعينيه وخلع ثيابه وانطرح في سريره وأسلم جفنيه للكرى.

ولم تكن إلا دقائق قليلة حتى تغلب تعب الجسم والعقل على تهيج الأعصاب فخدر الدماغ وارتخت الأعضاء ونام هنري نوماً عميقاً انقطع فيه شعوره إلى أن كاد يبزغ الفجر فانتبهت حواسه بعض الانتباه والتفتت إلى مدركات الليلة الفائتة فمزجتها فمدركات أخرى مما اختبره أو قرأه أو سمع عنه وألفت من ذلك حلماً طويلاً عريضاً رأى فيه نفسه في قفز بلقع وبهية حاملة على ظهرها حملاً ثقيلاً وقد كاد يقضى عليها وهي تستغيث وتستجير ولا مغيث ولا مجير فهرع إليها عن بعدٍ وناداها لكي يشدد عزائمها فخفت خطاها وأسرعت إليه وهي متوشحة بثياب الحداد ولم يكد يصل إليها حتى استيقظ من نومه وإذا هو قد تضحى.

أما دورا فإنها دخلت غرفتها مبلبلة الأفكار لا تعلم هل ما أبداه أخوها ناتج عن تأثر عميق في نفسه أو هو غمامة صيف عن قريب تقشَّعُ. وهالها مناداته لها وقولهُ وجدتُها وجدتُها كأنه أرخميدس حين خرج من الحمام ومشي في الأسواق عارياً. ولكنها قالت نحن بائتون على سفر والبعاد خير مرهم لكلوم النفس ثم استدركت بقولها أن صورتها راسخة في ذهنهِ وهو شديد التأثر فما أدراني إنه لا يحلم بها الليلة بعد الليلة فتزيد رسوخاً لا سيما بعد أن رآها عياناً. ثم لماذا أعارضهُ في حب هذه الفتاة وقد صنع الله من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على وجه الأرض ولماذا لا تستحق أبنة الفراعنة أن تكون زوجة لاسكوتلندي كان أسلافه يقطنون الغابات

ويرتدون جلود الحيوانات حينما كان أسلافها يسكنون القصور ويقودون الجحافل. ولماذا هذه النعرة التي أخذتنا نحن الأوروبيين بنوع عام والإنكليز بنوع خاص أنحن أفضل من غيرنا جبلة هو ذا النساء والرجال الذين شاهدتهم الليلة في عابدين من كل أمة وشعب ولسان قد سمت بهم الحضارة حتى لا تجد بينهم فارقاً إلا فارق التربية والذين اشتركوا فيها بينهم فارق يُذكر. ولماذا يتزوج أشرافنا ووزراؤُنا في بلادنا بالإسرائيليات وهن من أصرح الشرقيات نسباً ولا نرى وجهاً للمعارضة وبنات فرعون كن ملكات لما كانت بنات إسرائيل مستعبدات. ثم تجلت لها صورة بهية بقامتها الهيفاء وعينيها النجلاوين فقالت إنها تشبهُ وما أكثر هذه المشابهة بين الأزواج. واستمرت هذه الأفكار تنتابها إلى أن ران الكري على جفنيها وأستولى عليها سلطان الوسن.

ونهضت في الصباح حين نهض أخوها فاستحما ولبسا وجلسا يقرآن بريد المساء وكان فيه كتاب مختصر من أمهما وكتاب مطول من أبيهما وهو يستحثهما فيه ليتمما شغلهما في مصر بأسرع ما يمكن ويذهبا إلى بلاد اليابان رأساً ولا يقيما في الهند ولا في غيرها ومما كتب إليهما به قولهُ.

«لا بد من البحث والاستقصاء عما يمكن فعله لا حياء الأرض الموات في الوجه البحري والواحات البحرية فقد بلغنا أن فيهما أكثر من مليون فدان يمكن إحياؤها وزرعها قطناً وكذلك أراضي الصعيد يمكن زرع القطن فيها كلها إذا دُبر ريها حتى تصير تروي صيفاً كما تروى شتاءً وفي السودان أراضي واسعة يمكن استخدامها لزرع القطن وإذا كانت الحكومة المصرية غير قادرة أن تنفق على الأعمال الهندسية اللازمة لذلك ولا استطعنا أن نخولها استعمال الأموال

المتراكمة في خزائنها فعندنا شركات مستعدة لدفع النفقات اللازمة ولا صلاح الأطيان أيضاً. فبحثا في هذا الأمر مع العارفين به واجمعا كل المعلومات التي تستطيعان جمعها بأسرع ما يمكن وابعثا بها إلينا حالاً ثم بادرا إلى بلاد اليابان وأنزلا في طوكيو في النزل الملكي وسأكتب إليكما إلى هناك بما يطلب منكما. أعضاء النادي ولا سيما السر هنري غراي والسر كمبل كار وزوجتاهما يقرئونكما السلام وقد كتب لورد بنشيلد إلى المستر لاڤي مع هذا البريد يكرر عليه التوصية بكما ويطلب منهُ أن يبذل جهدهُ في إبلاغكما ما تطلبان».

ومضى النهار في مشاهدة الجوامع ونحوها من المباني القديمة إلى أن كان العصر فاتت أستير وأمها وأخوها وساروا بهنري ودورا إلى بين واصف بك فالتقتهم بهية وأمها ورحبتا بهم. وبين واصف بك في شارع الظاهر من البيوت القديمة تحيط به حديثة كبيرة ولا يدل ظاهره على ما فيه من دلائل الرفاهة والغنى وقد ظنه هنري من البيوت الشرقية الساذجة فلما دخل ردهتهُ رأى فيها من الأثاث والرياش ما لا يرى إلا في قصور الملوك فإن أرض الدار كانت مفروشة ببساط واحد من الغوبلين الغالي الثمن وفوقهُ ثريا كبيرة جداً يبلغ محيطها ستة أمتار أو سبعة فيها مصابيح للغاز وللكهربائية وعلى الأبواب ستائر من الحرير المعرق وكل ذلك بل كل أثاث البيت من سراي الجيزة وسراي الجزيرة وبعضهُ كان لم يزل في صناديقه لما عرض في المزاد. واستقبلت مدام واصف بك ضيوفها في غرفة جنوبية غربية تدخل شمس الشتاء فتغنيها من إيقاد النار وحضر أبنها أمين حينئذٍ ومعهُ حليم بك وجلسوا كلهم يتجاذبون أطراف الحديث بالفرونسوية تارة والإنكليزية أخرى وأقبل الخدم بصحاف الكعك والمربيات والمسكرات وجعلت مدام واصف بك تصب

الشاي في فناجين من الصيني القديم والخدم يقدمونها إلى الحضور وتبادل الجميع مجالسهم مراراً إلى أن جلس هنري إلى جانب بهية في زاوية من زوايا الغرفة وكان النور المستطير واقعاً على وجهها ومنعكساً عن شعرها فبانت كايسس متجلية في مجدها وبهائها حتى كاد يشغلهُ النظر إليها عن الكلام معها. وحاولت هي افتتاح الحديث معه لأن آداب المعاشرة تقتضي ذلك فقالت لهُ أهذه أول مرت زرت فيها هذه الديار فقال نعم ولكنني لا أرى نفسي غريباً ولا كل ما فيها غير مألوف لدي وكأنني زرتها من قبل مراراً لكثرة ما قرأتهُ عنها ورأيتهُ من صورها أو لسبب آخر تستغربينهُ إذا ذكرته لكِ.

فقالت وما هو

فقال أن أناساً من الأوروبيين والأمريكيين أخذوا يشيعون عندنا معتقد القدماء بالتقمص وهو المعتقد الذي لا يزال شائعاً في الهند والصين ويسلك به نحو ثلث بني البشر. ويقول بعضهم إنهم يتذكرون أزمنة غابرة حينما كانوا عائشين في هذا القطر أو غيره من الأقطار وقد رأيت سيدة تدعي إنها كانت في عصر من العصور الغابرة كاهنة من كهنة أيسس في هذا القطر وهي الآن في باريس تلبس لبس الكاهنات المصريات وقد أعدت في بيتها غرفاً في شكل الهياكل المصرية ووضعت فيها من التماثيل والآنية ما كان يوضع في الهياكل المصرية القديمة ويلبس زوجها لبس كاهن مصري ويجتمع حولهما أناس من المعتقدين اعتقادهما قصد إرجاع عبادة أيسس. وعندهما وعند المعتقدين التقمص من أهالي أوروبا وأمريكا أن نفس الميت تحل في جنين آخر حالما يتصور وإلا فمن أين تأتي النفوس إلى الأجنة. وفاتهم إنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن تكون نفوس البشر ألف وخمس مئة مليون نفس من أول عهد الإنسان كما هو عدد

الناس الآن وأن يبقى عددها كذلك ما دام الإنسان على هذه البسيطة. ومهما يكن في عقيدة التقمص من الغرابة والسخافة فإني لا أنكر عليك شعوري بأني رأيت قبلاً كثيراً من المناظر التي أراها الآن ولا سيما أنتِ فإنه حالما وقع نظري عليك في سراي عابدين شعرت كأني رأيتك من قبل وقلبي يدلني على إنك تشعرين بشيء من ذلك أن لم أكن مخطئاً أو مغتراً بنفسي.

فصبغ الحياء جبينها ووجنتيها وأطرقت هنيهة كأنها تحارب نفسها وتحاول التغلب على حيائها الفطري ثم نظرت إليه وتبسمت وقالت ظنك في محله. وعادت فأطرقت ثانية كأنها ندمت على ما قالت ولكن العواطف لا نخضع لسلطان الإرادة.

فقال لها أتسمجين لي أن أسألك سؤالاً لا نخشى أن نسأله في بلادنا وكان يمكنني أن أسألهُ لغيرك وأعرف جوابهُ منهُ. ثم صمت منتظراً الجواب. فقالت نعم سل ما بدا لك

فقال أمخطوبة أنتِ

فنظرت إليه هنيهة وكأنها تقول في نفسها على مَ هذا السؤال ولماذا توقفني في هذا الموقف الحرج. ثم جاوبتهُ جواباً صريحاً بقولها لا والتفتت تريد الإفلات منهُ.

فقال عفوك يا مولاتي أن كان سؤالي هذا قد غاظكِ فأرجو المغفرة.

فقالت كلاَّ ولكننا لم نعتد أن نسأل مثل هذا السؤال ولقد أصبت في قولك إنك كنت تستطيع أن تعرف جوابه من غيري على أسهل سبيل ولذلك لم أرَ مانعاً من إجابتك عنهُ. وعاد الحياء إلى وجهها فتورد

فقال وهنا سؤال آخر أصعب من الأول هل تسمحين لي أن أكاتبك في سفري

فقالت «كلا» من غير تردد ثم قالت أنا أعلم أنكم لا تستهجنون هذه العادة ولكننا نحن بنات المشرق نستهجنها جداً

فوقف حائراً لا يدري ماذا يقول وأدركت هي حيرتهُ وأرادت أن تجد لهُ مناصاً منها فقالت لهُ على مَ لا تكاتب أبي أو أخي فأعلم أخبارك منهما. ثم إنه يسرني أن أكاتب السيدة دورا إذا شاءت فأمرن إنكليزيتي. قالت ذلك متبسمةً

فأمسك بيدها وقال أنا ذاهب الآن في شغل شاغل ولكنني لا أنسى هذه الساعة وسأبذل جهدي حتى أصير أهلاً لمكاتبتك وستبقى صورتك نصب عيني ما دمت في هذا السفر إلى أن أعود ثانية في الخريف التالي وعسى أن تنظري إلي حينئذٍ كما أنظر إليك الآن

فلم تجبهُ بل نظرت من الكوة إلى الشمس وقد كادت تتوارى في الحجاب ممثلة آمال النفس تختفي في ليل بهيم ثم تشرق بالضياء والبهاء فراعتها الظلمة المدلهمة بين ذاك البهاء وهذا الاختفاء

*****

الفصل الخامس

شؤون مختلفة

لما كان هنري وبهية واقفين ينظران إلى الشمس وقد آذنت بالمغيب ونفساهما طائرتان على جناح الآمال في فضاء هذا الكون وقف أمين مع دورا يسألها عما شاهدتهُ هي وأخوها في مصر من الأثار ويقابل معها بين صفاء مصر وضباب لندن ولا سيما في هذا الفصل وهي ترى من أدبه وظرفه وواسع اطلاعه فوق ما كانت تنتظره من المشارقة ولا سيما لما سمعتهُ يستشهدلها بأقوال كتاب الإنكليز وشعرائهم. فدُهشت من ذلك وقالت في نفسها إن كانت أختهُ مثلهُ فهي خير قرينة لأخي. وخطر لها حينئذٍ ما قرأنهُ عن الشعوب القديمة وهو أن أصول التهذيب راسخة في نفوسهم تظهر بأقل صقال كالجواهر المكنون في النصل لأن عمران أربعة آلاف عام لا يزول أثرهُ إذا خبت نارهُ ألف سنة. ولقد كان قائماً في ذهنها أن المشارقة كلهم سمر الألوان إلى السواد فرأت أميناً أبيض الوجه أشقر الشعر وكذلك كانت أمهُ وهي سورية الأصل وكذلك أختهُ بيضاء الوجه أو فيها سمرة قليلة يخفيها تورد وجنتيها. ورأى هو فيها ما عهدهُ في الفتيات الاسكتلنديات من رقة ورشاقة على أدبٍ ورزانة

ووقف حليم مع أستير وكان حديثهما عن البالو أيضاً ومن شاهدا فيه فسألتهُ هل كانت أمهُ وأختهُ مع نساء السراي وراء الستار فقال كلاَّ فإن حليمة تقول إما ظهور تام بين الناس وأما الاستكنان في عقر البيت وقد طالما حاولت إقناعها لتفعل كما يفعل نساء الاستانة

فتخرج في المركبة لابسة يشمكاً فتشاهد جمال الطبيعة ومن فيها وهي لا تزيد إلا تمسكاً برأيها لا لأنها تكره أن ترى الناس بل لأنها تكره أن تسحب معتدية على عادات قومها أو على ما يحسبونه من السنن. فأما أن يزال الحجاب تماماً بنوع عام صريح تشترك فيه الفلاحة بائعة اللبن والأميرة المتنعمة في قصرها وأما أن يبقي مرعياً تمام الإرعاء ولذلك تقضي أكثر وقتها في الحديقة الكبيرة حول دارنا وإذا خرجت إلى النزهة ففي مركبة مقفلة وخروجها نادر إلا في فصل الصيف حين نذهب إلى أباعدنا أو نسافر إلى الاستانة. ولا أخفي عليك أن جمهوراً كبيراً من شباننا المتعلمين المتهذبين يذهبون مذهب شيوخنا ويقولون بوجوب الحجاب وأنهم لا يسمحون لنسائهم بإزالته مطلقاً ونحن القائلين بإزالته عددنا قليل وصوتنا غير مسموع لأن أئمة الدين ضدنا ولكن بلغنا الآن أن لنا حزباً كبيراً في الهند فإن قوى على مقاومة أئمة الدين هناك تحقق الفوز لنا قريباً وإلا فزمنه بعيد

فقالت ولكن الشيخ أحمد لا يكره أزلة الحجاب وخروج النساء مكشوفات الوجوه مثلنا ومثل نساء الأفرنج فعلى مَ لا تستعينون به. فقال هو واحد وصوته ضائع بين أصوات المئات والألوف ولذلك ترينهم يكفرونه كلما قال قولاً خالف فيه المألوف

فقالت ولكنني رأيته البارحة في البالو والناس ملتفون حوله وهم من جلة القوم. فقال هؤلاء ليسوا من العلماء بل من الناشئة الجديدة وأكثرهم متعلم في أوروبا وأما العلماء فلا يلبسون الطرابيش ويعدُّون لبس الطربوش بدعة وكان واحد منهم وهو من أعلمهم وأفضلهم يقول أن كل لابس طربوش مارق من الدين

فقالت وعلى مَ لا تفعلون مثلنا فإن أئمة الدين عندنا على غاية الفقر فهم في حاجة دائمة إلى أغنيائنا فيسترضونهم ولا يعارضونهم في شيء ولذلك ترانا بين الشرقيين كالشرقيين وبين الغربيين كالغربيين نلبس لكل حالة لبوسها. وأن لم يسر الإنسان مثل الممتازين الذين يعاشرهم ويساكنهم بقي منظوراً إليه بعين الازدراء

وكان حليم قد حادث استير غير مرة ولكنه لم ير من أدبها ما رآه الآن فجعل يقابلها بأخته ولا يرى أخته تمتاز عليها في شيء. ومما زادهُ إعجاباً بها فصاحة نطقها بالعربية والفرنسوية فقال لها أراك تحسنين العربية على غير ما أعهدهُ في المتفرنجين من المصريين عموماً والإسرائيليين بنوع خاص ولا سيما من السيدات. فضحكت وقالت أن الشيخ أحمد كان أستاذي وأستاذ أخي وقد قرأنا عليه النحو والبيان أيضاً. فنظر إليها مدهوشاً وقال أن كان الأمر كذلك فصار على أن أحاسب كيف أتكلم معك. وقدم لها كرسياً وجلس إليها يحادثها في شؤون مختلفة وكان يعلم أن أمنياً يعجب بها ولكنه لم يكن يحسب إنها على هذا القدر من الذكاء وسعة الاطلاع فقال في نفسه هذه الفتاة خير من كل فتاة رأيتها ولا أظن أن أبي وأمي يعارضاني في التزوج بها ولي أسوة بفلان وفلان من أمراءِ بلادنا المتزوجين بيهوديات. والتفت أمين فرآهُ جالساً مع استير مصغياً بكليته إليها فود أن يعرف ما هو دائر بينهما من الحديث ولحظت دورا ذلك منهُ فمشت معهُ إلى أن وصل إلى استير وحليم فنهضت استير إليهما ونهض حليم وبعد حديث قصير افترقوا على غير ما كانوا. مشت دورا واستير إلى حيث مدام واصف بك وأم استير ومشي أمين وحليم وحدهما ودار بينهما الحديث التالي

حليم- ما هذا الذكاء وما هذه النباهة. كنت أسمع عن ذكاء الإسرائيليات ولا أصدق فهل هذه الفتاة نادرة بين بنات جنسها أو كلهن كذلك

أمين- لا أظنها نادرة لأن أمها ذكية مثلها ولكنها تمتاز على غيرها بإتقانها للغة العربية فإنها تكتبها كما تكتب الفرنسوية وكان الشيخ أحمد أستاذاً لها فيها

حليم- كذا قالت لي فهي مثل حليمة من هذا القبيل وتفوقها في معرفة الفرنسوية ولكن حليمة تعرف التركية- ما علينا هل أنت على ما أخبرتني به عنها

أمين ماذا تعني

حليم- ماذا أعني- أعني أنك تود الاقتران بها

أمين- أبي أكرمها لذكائها وواسع اطلاعها ولكنني لا أستطيع الاقتران بها لأنها لابد وأن تقترن بأحد أبناء عمها لكي لا تذهب ثروتها إلى أجنبي

حليم- إن كنت قد صرفت النظر عنها فإنا أقوم مقامك لآنها أعجبتني جداً

أمين- بارك الله لك فيها

حليم – هات يدك وتصافحا وسارا إلى حيث السيدات وكان هنري وبهية قد سبقاهما إلى هناك والتفتت دورا إلى أخيها وقالت له هلم بنا فقد طالت زيارتنا ثم التفتت إلى مدام واصف بك وقالت لقد قضينا ساعتين كأنهما دقيقتان بما رأيناه من أنسكم

فقالت مدام واصف لقد صار لنا غاية الشرف بتشريفكم وتشريف حليم بك ومدام لاڤي ومداموازيل لاڤي وقد استاء واصف بك كثيراً لأنه لم يستطع الحضور لمشاهدتكم فإن عنده مجلساً طائفياً في البطر كخانة لابد من حضوره فيه ولكنه سيتشرف الليلة ويراكما في الهوتل إلا إذا تنازلتما وشرفتمانا للعشاء صحيح يا مستر برون وأنت يا مداموازيل وأنت يا حليم بك تفضلوا شرفونا للعشاء. مداد لاڤي ومداموازيل لاڤي أمين يذهب ويقول للمسيو لاڤي إنكما عندنا ويأتي به تفضلوا كلكم وأبقوا عندنا للعشاء عشاء عائلي لا نقوم فيه بالواجب ولكن الغرض اكتساب مؤانستكم

فشكر الجميع معروفها وودعوها وانصرفوا فخرجت معهم هي وأبنها وأبنتها إلى باب المنزل وقطفوا لهم بعض الأزهار وأعطوهم إياها وأعطت بهية للمستر هنري زهرة من القرنفل الناصع البياض الزكي الرائحة فأخذها حاسباً إنها نال بها بعض السعادة التي يتمناها

وعادت مدام واصف بك وولداها ولكل منهم شغل شاغل- مدام واصف مشغولة البال بما أخبرتها له مدام لاڤي وهو أن أبنها آخذ في شغل البورصة خفية عن أبيه وهو ربحان الآن ولكن يحتمل ان يخسر في يوم واحد أضعاف ما ربحهُ ويثلم صيته وصيت أبيه

وبهية مشغولة البال بما سمعتهُ ورأته من المستر هنري برون فسارت إلى غرفتها وهي تحسب نفسها في حلم لا في يقظة وكيفما التفتت تشعر كأنها ترى وجه ذلك الشاب وتسمع صوته فيزيد قلبها خفقاناً وفكرها اضطراباً. وأمين مشغول بما قاله له حليم بك ويقول في نفسه قد يحتمل أن يكون مجداً في قوله ولو كان كثير المزاح. فإن كان مجداً وأخذ استير من أمامي فماذا أفعل ولكن أليس هذه الفتاة

الإنكليزية أفضل منها وهل يمكن أن أحبها وتحبني ولعل استير تحبه ولا تحبني واليهوديات يتزوجن بالمسلمين كما يتزوجن بالمسيحيين وهو أوسع مني ثروة وأعلى مقاماً. أبوه من باشاوات مصر العظام نعم إن أمه شركسية أو تركية ولعلها كانت من سراري القصر العالي ولكن المقام للأب. لعله كان يمزح ولكن قلبي يدلني على إنه كان يتكلم بالجد وقد حادث استير مرة واحدة فشغف بها فكيف لو حادثها مراراً وعاشرها كما عاشرتها إنا لا شك إنه يغرم بها وقد اسقطت حقي له صريحاً فلا يليق بي أن أرجع في قولي ولكن أي حق لي عشرة فألفة فصداقة لو كنت أحبها حقيقة لما مال قلبي إلى غيرها

وظلت هذه الأفكار تنتابه ساعتين من الزمان وهو مثل سفينة تتقاذفها الأمواج إلى أن دق جرس العشاء وجاء الخادم يدعوه للطعام فغسل وجههُ وخرج إلى غرفة المائدة

وعاد حليم من بيت واصف بك وهو يفكر في ما رآه وسمعه من استير ويقول في نفسه إنها جوهرة ثمينة ولابد من أن اسأل الشيخ أحمد عنها فإنه أدري بأخلاق تلامذته من كل أحد فسار قاصداً زيارته فوجده في بيته وحده على خلاف العادة فقبل يده وجلس إليه وافتتح الحديث بما سمعه منه في البالو عن الرقص وشرب الخمر. فقال الشيخ رأيتك ترقص مع الراقصين. فقال كنت أفعل ذلك وأنا تلميذ في أوروبا ولا أزال أرقص أحياناً فعل يرى الأستاذ في ذلك بأساً. فقال هي عادة لا استحسنها ولكني لا أحرمها ولا سيما في المجتمعات الأدبية حيث يكون الراقصون والراقصات من الأقارب أو العشراء فقد رأيت البدو يرقصون رجالاً ونساء في حلقة واحدة كأنهم أخوة وأخوات لواء العفة والشهامة منشور فوق رؤوسهم لا شيء يكدر صفاءهم أما إذا فسدت الأخلاق فالفصل بين الجنسين

ادرأ للمفاسد

فقال حليم أصبت يا أستاذ لكن اجتماعنا أمس كان على غاية الحشمة والوقار وقد تعرفت فيه بإحدى تلميذاتك

الأستاذ- مَن السيدة استير

حليم-نعم السيدة استير وهي تعرف العربية أحسن مني

الأستاذ- أظنها كذلك لأنها أذكى البنات اللواتي رأيتهن قرأت على مبادئ النحو والبيان ولها انشاء حسن وقد حاولت بعض المرات نظم الشعر فنظمت أبياتاً حساناً. ولكن قل لي ما يهمك من أمرها قل لي ولا تخف عني

لا شيء يا أستاذ ولكنني تحدثت معها فأعجبني حديثها بالعربية والفرنسوية وعملت منها إنها قرأت العربية عليك فسألتك عنها

فقال الأستاذ ألهذا الغرض زرتني الآن. فأحمر وجه حليم ولم يقل شيئاً. فقال الأستاذ هي كتابية والتزوج بالكتابيات حلال فلا تتركها لأنها درة يتيمة

*****

الفصل السادس

الشركات الأجنبية ومبيع الأطيان

أقبل واصف بك والخواجة لاڤي على نزل ساڤوي بعيد الساعة التاسعة لزيارة المستر هنري برون فقابلهما في غرفة الاستقبال الكبرى واعتذر إليه واصف بك عن غيابه من بيته لما شرفه ثم جلسوا يتجاذبون أطراف الحديث إلى أن انتهوا إلى الأطيان البور وسبل استحيائها فقال واصف بك بلغني من الخواجة لاڤي إن آت من قبل شركة كبيرة لمشتري جانب كبير من الأطيان البور بقصد إصلاحها وزرعها قطناً وتوسيع زراعة القطن في القطر المصري بكل واسطة ممكنة

فقال هنري الأمر كما قال المسيو لاڤي وأريد أن أنجز عملي بأسرع ما يمكن لأني مضطر إلى السفر سريعاً إلى الشرق الأقصى

واصف بك- تراني في خدمتك فما هو الشيء الذي تطلبه مني

هنري- ما رأيك في مشتري مئة ألف فدان من الأراضي البور من الحكومة فنحفر الترع والمصارف اللازمة لها ونبني فيها العزب ونقطعها إلى قطع صغيرة من عشرة أفدنة إلى مئة ونبيعها للفلاحين ونقسط ثمنها عليهم مشترطين أن يقصبوها ويحلوها ويزرعوا ثلثها على الأقل قطناً

فدُهش واصف بك من استعمال المستر هنري للمصطلحات المصرية الزراعية كالترع والمصارف والتقصيب والتحلية وقال له

أرك خبيراً بالأمور الزراعية المصرية مثل واحد منا فكيف تم لك ذلك ولم يمض عليك في مصر إلا بضعة أيام

هنري- لقد درست هذا الموضوع في كتاب السر وليم ولككس كل مدة سفري في البحر ثم قابلت هنا أحد كبار المهندسين فارتأي لي الرأي الذي بسطته لك

واصف بك- لقد جرت الحكومة في مبيع أطيانها- والأولى أن أقول أطيان المصريين لأن الأطيان لأهالي البلاد لا للحكومة- قد جرت على أساليب مختلفة ففي أول الأمر كانت تعطيهم أياها من غير ثمن أو تجبرهم على أخذها مجاناً وهم يمتنعون مخافة أن تضرب عليها الضرائب من غير أن تجري عليها الماء اللازم لإروائها وأطياننا لا تنتج شيئاً من غير ري لأنها ليست مثل أراضيكم التي تروي بماء المطر. ثم لما اصلحت الحكومة الري وصار في إمكانها ارواء الأطيان البور امتنعت عن إعطاء الأطيان مجاناً وعن بيعها بالثمن أيضاً نعم إنها تبيع في بعض الأحيان قطعاً صغيرة ولكنها تطرحها في المزاد العمومي فيأتي أناس من إخواننا (والتفت إلى الخواجة لاڤي) لا يقصدون مشتري الأرض وإحياءها بل تغلية ثمنها أو يرضيهم المشتري بالمال. فيرفعون ثمن الفدان الذي يساوي جنيهين إلى عشرين جنيهاً فيضطر الفلاح أن يدفع ثمناً فاحشاً ولا يعود قادراً أن يشتري إلا أفدنة قليلة ولا يعود قادراً أن ينفق على إصلاحها وإذا لم يشترها هو اشتراها الخواجة إبراهيم أو الخواجة اسحق وباعه إياها الفدان بثلاثين جنيهاً أو أربعين وقسط ثمنها عليه بالربا الفاحش. وإنكي من ذلك أن الفلاحين أنفسهم لا يعرفون مصلحتهم فيتناظرون ويغالون في الثمن حتى يشتروا الفدان بمضاعف ثمنه. كذا كانوا يفعلون بأطيان الدومين حتى أن ما ثمنه

الأساسي أربعون جنيهاً اشتروه بمئة جنية وهذا الأسلوب على ضرره الواضح أخف ضرراً في نظري مما لو أخذت الأطيان شركات أجنبية لأن الأموال التي تأخذها الحكومة ومصلحة الدومين وإخواننا الإسرائيليون في البلاد فتزيد بها ثروتها وتستفيد منها وأما الأموال التي تربحها الشركات الأجنبية فتخرج من البلاد ولن تعود إليها

وكان هنري منصفاً ويحب الإنصاف فقال لواصف بك أصبت ولكن بماذا تشير أن كنت لا تستصوب بيع الحكومة لأطيانها بالمزاد العمومي ولا بيعها للشركات الأجنبية

فتبسم واصف بك وقال رأيي في ذلك أن الحكومة تفعل فعل الشركات الأجنبية فتحفر الترع والمصارف في الأطيان البور كما حفرت في غيرها وتجزئها أجزاء صغيرة وكبيرة من عشرة فدادين إلى مئة ومئتين أو أكثر وتفرض لها ثمناً رخيصاً تبيعها به مشترطة على المشتري إصلاح مقدار العلوم منها كل سنة وتضرب عليه ضريبة خفيفة وتفرض زيادتها رويداً رويداً حتى تبلغ مئة قرش مثلاً في عشر سنوات فيضطر المشتري أن يصلح هذه الأطيان لكي يستطيع إيفاء الضريبة من ريعها أو يضطر أن يردها إلى الحكومة. فتصلح الأطيان البور وتستفيد الحكومة والأهالي وتبقي الفائدة لها ولهم من غير شريك

فأعترض الخواجة لاڤي على هذا الرأي وقال لا يصلح بالحكومة أن تكون تاجرة أو مزارعة وتناظر رعاياها في ما يستطيعون عمله وحدهم ورأيي أن تؤلف شركة وطنية تبتاع الأطيان من الحكومة وتباشر إصلاحها وبيعها للفلاحين وإصلاحها على الشركات الكبيرة أسهل وأرخص من إصلاحها على الفلاحين أنفسهم

فقال واصف بك إذا لم ترد الحكومة أن تفعل بالرأي الذي اشرت به فرأى الخواجة لافي يتلوه في الفائدة ولكن الوطنيين لم يعتادوا تأليف الشركات وأكثر الشركات الوطنية أنما هي وطنية بالاسم ثم إنه ينقصنا المال لأن الأموال التي بين أيديهم يجب أن يكون ريعها لهم أكثر من ستة في المئة سنوياً وإلا أوفوا بها ما عليهم من الديون المتراكمة للبنوك الكثيرة فإن لم تأتنا أموال رباها أربعة في المئة أو أقل فلا أمل بنجاح المسعى

فأمعن هنري في طلبه ثم قال يظهر لي إننا نستطيع ذلك ولا سيما إذا اشركتمونا في قليل من الربح أي إذا الفتم شركة وطنية تبتاع الأطيان الواسعة من الحكومة وتصلحها وتحرثها وتبيعها للأهالي فنحن نمدكم بالمال على شرط أن تضمنوا لنا رباً أربعة في المئة مع قليل من الربح الذي تربحهُ شركتكم وعلى كل حال لا استطيع أن أقول لك القول النهائي في هذه المسألة ولكنني سأكتب إلى والدي وأرجح ورود الجواب منه بالقبول مبدئياً ثم تتفقون على المال المطلوب وبقية التفاصيل وسأخبر والدي لكي يكاتب حضرتك مباشرة لأنني عازم على السفر بعد ثلاثة أيام أو أربعة

ثم تحدثوا في شؤون أخرى واطنب واصف بك في مدح ما فعله الإنكليز من الإصلاح في البلاد وجعل يقابل الأيام الحاضرة بالأيام الغابرة أيام السخرة والمغارم والكرباج إلى أن قال لكن الإنسان يطلب المزيد لأنه مفطور على طلب الكمال فقد اصلحتم كثيراً وبقى أكثر مما اصلحتم لا سيما في ما يعلي شأن الأمة ويدنيها من الاستقلال

فقال هنري أرجو أن تفصل لي هذا الإجمال

فقال واصف بك حباً وكرامة أرى إنكم جريتم عندنا على سياسة لا تخلو من الإضرار بنا ولو لم تقصدوا ذلك وهي إنكم تطبخون لنا لكي نأكل ولا تدعونا نحرق أصابعنا وقد مثل لي ابني على ذلك مثلاً اراه منطبقاً على الحالة الحاضرة تمام الانطباق وهو أن أستاذ الكيمياء عندنا يحضر المواد الكيماوية ويعمل بها التجارب من حل وتركيب فيراها التلامذة ويسرون بها وقد يدركون الغاية منها ولكنهم لا يتعلمون ولا يتمرنون وأما الأساتذة في بلادكم فيعطون كل تلميذ المواد اللازمة للتجارب الكيماوية ويتركونه وشأنه فيأخذ يمتحن ويجرب إلى أن يصل إلى المراد فيتعلم بالعمل ما لا يتعلمه ذاك بالنظر فلو وازرتمونا بشيء من النصح والإرشاد وتركتمونا نعمل الأعمال وحدنا لبلغنا شأو اليابانيين في هذه العشرين سنة ولم نبق على ما نحن عليه مولا أنكر أننا نكثر من الخطاء والغلط في أول الأمر ولكن الإنسان يتعلم من الخطاء أكثر مما يتعلم من الإصابة

فنظر إليه هنري بعين الوقار وقال هذا هو عين الصواب يا واصف بك وإذا كانت هذه أمنية الأمة كلها فعلى مَ لا تجاهرون بها. ويقيني أن مصلح بلادكم يكون أول مساعد لكم على نيلها وأؤكد لك أن لمصر أصدقاء كثيرين في البلاد الإنكليزية وسوف تطلق أيدينا في إصلاحها على ما نشتهي ونريد فإذا ساعدنا أهلها صارت على ما يتمنون. هذا واعيد القول من جهة مشتري الأطيان وأحيائها إني سأكتب إلى أبي بخلاصة حديثنا ولا بد من أن نصل إلى نتيجة ترضيكم

ثم نهض واصف بك والخواجة لاڤي وودعا وانصرفا. وجلس هنري فكتب لأبيه كتاباً طويلاً أسهب فيه الشرح عما شاهده في بيت واصف بك وعن زيارة واصف بك الخواجة لاڤي له وحديثهما معه

والرأي الذي اقرأ عليه. ومما قاله في كتابه اؤكد لك يا أبي أن المصريين الذين لقيتهم من كل الطوائف الساكنة مصر من قبط ويهود وعرب وسوريين وأتراك على غاية الذكاء ورقة الجانب. والظلم الذي طال عهده في بلادهم يكاد أثره يزول وينسى من بين الطبقة المتعلمة منهم فقد كنا أنا ودورا أمس في بيت واصف بك كأننا في بيت أحد اعمامنا ومداموازل واصف بك لا تفرق عن دورا في آدابها ومعارفها وهي تتكلم الإنكليزية مثلي وتتكلم الفرنسوية والعربية وأبوها وأمها يحسنان الفرنسوية. وواصف بك يتكلم عن الأطيان والري والزراعة كأنه من مهندسي الري. ثم فصل له رأيه على ما تقدم وطلب من أبيه أن يكاتبه في ذلك رأساً وأن ينشر من كتابه ما شاء في جريدته

ثم استدرك على ذلك قائلاً أما المهندس المعلوم فرأيه أن نشتري مئة ألف فدان من الحكومة وقد أراني موقعها وأكد لي إننا إذا اشترينا الفدان بجنيهين وانفقنا عليه خمسة جنيهات لا غير أمكننا بيعه بعشرين جنيهاً وسيكاتبك في هذا الموضوع ولولا حتمك على بالسفر إلى اليابان حالاً لبقيت هنا إلى أن يتم هذا الأمر وغداً أكتب عن الشغل الآخر بالتفصيل

وكتبت دورا إلى أمها تصف لها ما رأته في يومها وتقول إنها مدعوة مع أخيها إلى بيت راغب باشا أبي حليم بك في اليوم التالي وإنهما سيسافران في اليوم الذي بعده قاصدين الشرق الأقصى

*****

الفصل السابع

البورصة

لما خرج واصف بك لزيارة المستر هنري برون مشت زوجته مع ابنها إلى غرفة الجلوس وجلست دورا على البيانو تسلي نفسها ببعض الألحان القديمة

فقال أمين لأمه كيف رأيت هذه الفتاة وأخاها. فقالت رأيتهما على غاية اللطف والتهذيب ويا حبذا لو بقيا فصل الشتاء عندنا ولكنهما مسافران بعد غد إلى الهند والصين واليابان. فقال هذا شأن الإنكليز فإنهم أهل سفر. فقالت نعم إنهم ذوو همم عالية. ثم صمتت وصمت هو ومرت دقائق من غير أن يفوه أحدهما بكلمة كأن كلا منهما كان يفكر في موضوع ولا يدري كيف يبتدئ الكلام به. وأخيراً التفتت إليه وقالت له عهدي بك إنك لا تخفي علي شيئاً

فأدرك مرادها وقال ماذا قالت لك مدام لاڤي. فقالت أخبرتني خبراً لا أكاد أصدقه. فقال أن الخواجة لاڤي مغتاظ مني

فقالت لا تقل ذلك فإن الخواجة لاڤي ومدام لاڤي يحبانك مثل ولدهما وقد أكدت لي مدام لاڤي أن هذا الخبر لم يبلغ زوجها إلا اليوم وكان مراده أن يراك وينصحك لكي تترك هذا الشغل حالاً لأنه ما من أحد دخل البورصة وخرج وعلى بدنه قميص

أمين- إن هذه سنة غير اعتيادية لا تفوت ونصف أهالي مصر داخلون في البورصة

أمه- هم مجانين وقد ورثوا أموالهم ولم يتعبوا في تحصيلها أما نحن فكل غرش حصله أبوك حصله بعرق جبينه. نعم أن جدك كان على ثروة طائلة ولكن أيام اسمعيل لم تترك له شيئاً والآن يا ولدي برضاي عليك لا تدع الخبر يصل إلى أبيك بل أخرج من هذا الشغل حالاً

أمين- أتعلمين كيف انقدت إليه أتاني برسوم أفندي ذات يوم وطلب مني مئتي جنية قرضه ولم أرد أن أعطيه في أول الأمر لأنني أعلم إنه يلعب في البورصة ولكنه ولج على كثيراً حتى اعطيته تخلصاً من لجاجته فمضي وأتاني بعد يومين وقال إنه اشترى ألفي قنطار قطن له ألف ولي ألف ودفع المئتي جنية عربوناً فربح قطني ثلاثمئة جنية في يومين وإنه عازم أن يشتري ثلاثة آلاف قنطار أخرى على الربح الذي ربحناه فلم أعارضه في ذلك ولكنني قلت له صريحاً إنني لا أريد هذا الشغل ولا أدفع غرشاً من الخسارة فرضي بذلك وتوسع في الشغل والآن لو صفيت مركزي لبلغ ربحي ثلاثة آلاف جنية لأن الأسعار ارتفعت أكثر من ريال ونصف في أقل من شهر

أمه- لا أعرف هذه الحسابات ولا أريد أن أتعب رأسي في تتبعها وإنما أطلب منك واحتم عليك أن تخرج الليلة الليلة من شغل البورصة. قل لبرسوم أن يرد لك المئتي جنية التي اعطيته إياها والله يبارك له بالربح كله فإننا في غنى عنه من كرم المولى لأنه هو ربح مثلي وأكثر مني وكل تجار الدنيا يشتغلون في البورصة. وكل رجال المال والأعمال الذين قرأنا عنهم في أوروبا وأميركا جمعوا أكثر ثروتهم من الشغل في البورصة ولولا البورصة لوقف دولاب التجارة واستبد التجار بالفلاحين وأنا أوافقك وأترك هذا الشغل ولكنني لا أترك ربحي منه نعم أريد أن أترك هذا الشغل لأنه شغل بالي كثيراً وأؤكد لك إنني

حرمت النوم من شهر إلى الآن نع إنني لم أخسر يوماً واحداً

أمه- قل في مزايا البورصة ما شئت فأنا لا أغير رأيي واعتقادي ولما سمعته من أشد الناس إخلاصاً لنا من مدام لاڤي عن لسانها وعن لسان زوجها. وما لنا ولقول زيد وعبيد فقد قضينا الصيف في رمل الاسكندرية وما كنت اسمع إلا أن فلاناً كان يملك خمسين ألف جنية أو مئة ألف جنية كان عنده الخدم والحشم والعربيات فأصبح على الأرض لا يملك شيئاً وأولاده يخدمون الآن في مصالح دنيئة بعد أن ربوا في الرفاهة والنعيم وما ذلك إلا لأن أباهم طير أمواله كلها في البورصة. ورأيت مرة رجلاً مستخدماً بثمانية جنيهات في الشهر قيل لي إنه كان يملك مئتي ألف جنية طيرها كلها في البورصة. فلا تجادلني الله يرضى عليك بل عدني إنك الليلة الليلة تترك هذا الشغل وتسترجع دراهمك من برسوم وتترك له كل الربح

أمين- الربح ليس عنده بل عند السمسار

أمه- من هو هذا السمسار

أمين- عزرا إبراهام

أمه- عزرا هذا الولد الخبيث من أوقعك في يد عزرا كم بيت خرب اسأل استير عنه فإنه طلبها عدة مرات فرفضته. عزرا وصهره حليم وشريكه يهودا جماعة لصوص. وهذا شيء يشق المرائر يا أمين أين أبوك أنا لا أطيق هذا. أتلقي نفسك في أيدي هؤلاء اللصوص. قم الآن وأذهب وصف شغلك معهم ولا يمكن أن أصبر عليك إلى الصباح

أمين- هدي روعك فإن البورصة تقفل ليلاً وأعدك وعداً صادقاً إنني أذهب غداً وأصفي شغلي فإنني أنا غير مستريح البال ولو لم

يغرني برسوم على هذه الصورة التي شرحتها لك ما كان يمكن أن أدخل في هذا الشغل وغداً أمر على عزرا قبل ذهابي إلى الديوان لكي يصفي مركزي كاء

ثم قام إليها وقبل يدها وجبينها وقال لها عندي رضاك بالدنيا كلها. فقبلت وجنتيه ووعدته إنها لا تخبر أباه

جلس عزرا وحايم ويهودا في المكان الداخلي من مكتبهم بعد أن ذهب المستخدمون كلهم ما عدا الفراش وهو بربري له في خدمتهم بضع سنوات وحسبوا أرباح النهار فوجدوها وافرة جداً وكانت إدارة المحل في يد عزرا لأنه أمهرهم وأدهاهم لكن لم يكن السرور بادياً على وجهه كما كان بادياً على وجه شريكيه فقال له يهودا ما شأنك قال لا شيء

يهودا- لابد من شيء هل أتي تلغراف في غيابي

عزرا- كلا ولكن أتت زين الدار الآن وأخبرتني أن استير ذهبت مع أمها إلى بيت واصف بك حيث التقت بأمين وقلبي يحدثني أن استير لم ترفض طلبي إلا لأنها تحب ابن واصف بك. انظر حسابه يا حاييم كم صار ربحه الآن

حاييم- نحو ثلاثة آلاف جنية

عزرا- ثلاثة آلاف جنية وكم ثروة أبيه

يهودا- ثروة أبيه كبيرة جداً أطيانه تساوي ثلثمئة ألف جنية أو أكثر

حاييم- وليس له غير صبي وبنت

عزرا- الله كريم ما دامت رجله في البورصة لا يمكن أن يفلت من يدي

حاييم- ولكنه رائح في الطلوع والقطن طالع

عزرا- على الطلوع أو النزول أنا أعرف شغلي معه ولا يمكن أن يرى استير قوموا بنا الآن

ذهب أمين إلى غرفته قبلما رجع أبوه وأخذ المقطم والتفت إلى الكنتراتات فوجد الأسعار لا نزل متمسكة فأطمأن باله فقرأ التلغرافات والأخبار المحلية والأخبار الخارجية وقليلاً من رسائل الجهات. وكان يطالع رواية انكليزية حديثة فقرأ منها فصلين وخلع ثيابه لينام. وأخذ يراجع ما سمعه من دورا ويقابلها ببهية وباستير وبالبنات الانكليزيات اللواتي رآهن في انكلترا لما كان يدرس الهندسة فيها فقال إنها من أجملهن منظراً والطفهن معشراً ويسرني منها إنها تعجب بالشرقيين وقد صرحت لي إنها تحسدنا على هواء مصر وتود أن تقضي فصل الشتاء ههنا دائماً. لكن استير أفضل منها من بعض الوجوه لا سيما وأن لغتها مثل لغتنا غير إنها اسرائيلية وأبناء عمها لا يتركونها وليس بيننا غير صداقة انتجتها المعاشرة وقد أتى حليم الآن وظهر لي منه إنه يميل إليها هنيئاً له فإنها من أفضل البنات. لقد أصابت أمي في ما قالت من جهة البورصة لابد من تصفية مركزي غداً. ثم ران الكرى على جفنيه فنام إلى الصباح

وقبل أن ينزل إلى الديوان قالت له أمه لا تنس وعدك والأحسن أن تكلم عزرا الآن بالتلفون وتقول له إنك انسحبت من شغل البورصة. فقال إلى التلفون مكرهاً وطلب عزرا وقال له أن يغطي مركزه كله بالأحسن. فقال له عزرا إننا ننتظر صعوداً اليوم ومع ذلك

فالأمر لك فقال له لابد من بيع كل ما عندي اليوم. فقال عزرا انبيع الثلاثين ألف قنطار فقال أمين نعم بعها كلها. فقال عزرا ولكن بيع ثلاثين ألف فنطار دفعة واحدة ينزل السعر كثيراً. فقال أمين بعها على دفعتين أو ثلاث وعلى كل حال أريد أن أخلص قبل الساعة الحادية عشرة خذ كلامي هذا أمراً لك بالبيع

وكانت أمه تسمع كلامه فسرت منه واعتنقته ونزل إلى الديوان على جاري عادته وهو يشعر أحياناً كأن حملاً ثقيلاً نزل عن ظهره وأحياناً كأنه ارتكب خطاءً فظيعاً. وفي نحو الساعة العاشرة ناداه عزرا بالتلفون وقال له بعنا عشرة آلاف وبعد نحو نصف ساعة ناداه ثانية وقال بعنا عشرة آلاف أخرى وبعد ربع ساعة قال له بعنا العشرة الآلاف الباقية والأسعار آخذه في الارتفاع جداً ولو بقي قطنك لتضاعف ربحك الآن اسمع مني ودعني استرد لك عشرة آلاف قنطار. فقال أمين كلا. ولكنه أعاد إلى مكتبه منشغل البال مضعضع الأفكار وكان ؤئيسه قد أعطاه رسم كبرى (جسر) يراد انشاؤه على النيل عند الروضة ليدرسه فلم يعد يستوضح الخطوط بل صار يراها مشتبكة بعضها ببعض واراد أن يسترد أفكاره الشاردة فلم يستطع فجعل يلوم نفسه ويقول لقد ربحت في شهر أكثر من راتب الناظر في سنة فلماذا لا أقنع ثم يقول ولكن لو صبرت ساعتين لتضاعف ربحي لقد صدق المثل في العجل الندامة وفي التأني السلامة وخرج من مكتبهِ بعيد الظهر والتفت إلى تلغرافات روتر فوجد فيها التلغراف التالي

نيويورك في ٢٩ ديسمبر

«ارتفعت أسعار القطن اليوم بمضاربات حزب الصعود إلى حدٍ لم يسبق له نظير منذ أعوام كثيرة فأقفلت السوق بارتفاع ٤٨ إلى ٥٠ بنطاً ومما زاد المضاربين هيجاناً ورود تلغرفات من نيو أرلينس بتأليف سنديك هناك لابتياع كل ما بقي من القطن وبيعه بأسعار عالية جداً». فلما قرأ هذه السطور دار رأسه واصطكت ركبتاه وأسودت الدنيا في عينيه فلم يعد يستطيع الوقوف فجلس على كرسي وهو يقول في نفسه فرصة ضاعت قال لي عزرا فلم اصدقه لا يمكن أن تكون مدام لاڤي مخلصة لنا فاتت وخدعت أمي يا للحماقة يا للجنون لا يبعد أن تكون الأسعار بلغت عشرين ريالاً الآن وأظن انه باع لي بخمسة عشر ريالاً فلو صبرت إلى الآن لربحت خمسة ريالات في كل قنطار أي ثلاثين ألف جنية في ساعتين. ثم ألقى رأسه على يده وكاد يغمى عليه. وبعد قليل نهض مذعوراً وطلب عزرا بالتلفون فقيل له أن تلفونه مشغول فنزل إلى دار الديون وركب مركبة وأسرع إلى مكتب عزرا فوصله بعد إقفال البورصة وعلم منه أن الأسعار بلغت ١٨ ريالاً وانه باع له بخمسة عشر ريالاً إلى ١٥ ونصف ولو انتظر إلى الظهر لزاد ربحه نصف جنية في كل قنطار فبلغ خمسة عشر ألف جنية. وقال له إنك لم تسمع نصيحتي ونحن دائماً ننصح زبائننا وقد بلغ ربحك عندي الآن أربعة آلاف وخمس مئة جنية فزاد ألف وخمس مئة جنية عما كان أمس ولو سمحت نصيحتي لكان ربحك الآن عشرين ألف جنية «نت» ولكن أنتم المصريين تستعدون من ينصحكم

أمين- ألا سبيل لاسترجاع مركزي

عزرا- لا أعلم أظن أن السعر يبلغ ٢٠ ريالاً أو خمسة وعشرين كما حدث في السنة الماضية وقد صار الشغل الآن خطراً ومع ذلك لا بأس بأن تخاطر ببعض الربح

أمين- اشترِ لي عشرة آلاف قنطار

عزرا- اكتب يا حاييم عشرة آلاف قنطار لأمين بك عند أول فتح البورصة

وعاد أمين بك إلى البيت وجلس على المائدة ولك يفه بكلمة ورأت أمه إنه منشغل البال فاستفردته بعد الغداء وسألته عن القطن فقال لها إنه باعه ولم تسأله عن ربحه ولا أخبرها هو به. وأخذ الرواية التي كان يقرأها وحاول القراءة ولكن أفكاره كانت شاردة فقلب الصفحة بعد الصفحة وهو يقرأ ولا يعي شيئاً. وقامت في نفسه قوتان متضادتان قوة الطمع وقوة القناعة فكانتا تتحاوران وتتناظران على هذا النمط

الطمع- لعن الله الساعة التي اطعت فيها أمك فلولا ذلك لبلغ ربحك الآن أكثر من عشرين ألف جنية. من يستخف بهذا الربح بل كان يجب أن تصدق قول عزرا وتشتري ثلاثين ألفاً أخرى عند أول فتح البورصة بدلاً من البيع فكان ربحك الآن ثلاثين أو أربعين ألف جنية- هذه خسارة لا تعوض

القناعة- من يعرف المستقبل ومن يقدر أن يحكم بارتفاع الأسعار فقد ربحت أكثر من أربعة آلاف جنية وهو ربح طائل فاقنع به ولا تخاطر أيضاً فما كل مرة تعود بالربح بل لابد من خسارة تلحق البائع أو الشاري أو تلحقهما كليهما لأن ربح السمسار منهما

الطمع- هذه سنة غير عادية وكل أحد يعلم أن موسم أميركا لا يكفي لمقطوعية المعامل والمتأخرات قليلة جداً

القناعة- ما أدرانا أن المعامل لا تقلل ساعات العمل كما فعلت غيرة مرة فيصير القطن كافياً لها وزائداً عليها وتهبط الأسعار. وما أدرانا أيضاً أن حزب النزول لا يتغلب على حزب الصعود وإذا حدث ذلك وهبطت الأسعار وخسرت فمن أين توفي الخسارة وأبوك لا يعلم شيئاً عن اشتغالك بالبورصة وأمك لا تملك نقوداً تعطيك إياها

الطمع- هذه ظنون لا تذكر في جانب الأمر المحقق وهو صغر الموسم وقلة المتأخرات أما المعامل فإن تأخرت عن العمل اليوم فستعود إليه غداً لأن مقطوعية الدنيا لا يمكن أن تقل بل هي آخذة في الزيادة

وبمثل ذلك كان يحارب نفسه فغلبت قوة الطمع على قوة القناعة ورسخ في ذهنه إنه خسر عشرين ألف جنية على الأقل بإصغائه إلى نصيحة أمه فتألم وتمرمر وتولاه صداع شديد حتى شعر كأن صدغيه كادا ينشقان من كثرة ما تورد من الدم إليهما فنهض وفتح كوة ووقف فيها يستنشق الهواء النقي لعل دمه يتنقى مما يجمع فيه من الفضول باندثار دقائق دماغه وظل يلوم نفسه إلى أن أذن العصر فانتبه إلى إنه وعد حليم بك بالذهاب مع هنري وأخته إليه

واجتمع عزرا ويهودا وحاييم في المساء فقال عزرا خلص من الشرك ثم عاد إليه لا يمكن أن يخرج بقرش واحد الله كريم وسأجعل استير تنظر إليه كما تنظر إلى الفحمة السوداء. ماذا فعلت أختي يا حاييم

حاييم- اخبرت الخواجة لاڤي وزوجتهُ عن اشتغال أمين بالبورصة فاغتاظ الخواجة لاڤي وقالت مدام لاڤي إنها سترى أمه وتكلمها في شأنه

عزرا- لابد من إنها فعلت حسب كلامها وإلا ما قام في الصباح وطلب مني أن أبيع له حسناً فعلت وإلا لزاد ربحه خمسة عشر ألف جنية. الله كريم

حاييم- وقد بلغ ربح محلنا الآن من قطن أمين الذي أصلناه لحسابنا نحو ستة عشر ألف جنية عدا السمسرة

عزرا- وسيتضاعف إن شاء الله

*****

الفصل الثامن

دار الحريم

لما حان الوقت لذهاب هنري ودورا إلى سراي راغب باشا أقبل أمين وبهية إلى نزل ساقوي ليأخذاهما منه. وقال حليم في نفسه لابد من ترك البورصة الآن ونزعها من بالي تماماً. ولما وقعت عينه على دورا تذكر الأيام السالفة حينما كان في بلاد الإنكليز يشاهد البنات الإنكليزيات بوجناتهن الموردة وعيونهن الزرقاء البراقة فهزه عامل الوجد وحياها وحيا أخاها وركب الأربعة مركبة واحدة من نوع اللندو وساروا من أمام البوسطة فشارع محمد على فسوق السلاح إلى سراي راغب باشا ولما دخلوا باب السراي الخارجي ونظر هنري ودورا إلى ما أمامهما لم يصدقا أعينهما وظنا إنهما في حلم لأن الأسواق والعطفات التي مروا فيها لا ينتظر أن توصل إلى حديقة غناء باسقة الأشجار واسعة الخمائل كبيرة الفساقي تتدفق منها المياه وتسبح فيها الأسماك. وسارت المركبة بهم بين الأدواح المختلفة الأنواع والأشكال إلى أن وصلت إلى سلم من الرخام الناصع البياض يصعد به إلى رواق كبير قائم على عمد من الرخام طول العمود منها نحو عشرين قدماً فوقها قناطر عربية الشكل وأرض الرواق مفروشة بالرخام المجزع ويدخل منه إلى غرف السلاملك وهي واسعة مفروشة بالبسط العجمية فدخلوا كلهم من غرفة إلى أخرى إلى أن وصلوا غرفة الاستقبال الكبرى وكانت غربية شمالية تدخلها شمس العصر وتنعكس أشعتها عما فيها من الزجاج المذهب والقيشاني القديم واستقبلهم أمين بك عند سلم الرواق

وراغب باشا في غرفة الاستقبال الكبرى ورحب بهم وكان كهلاً طويل القامة واسع الجبين كبير العينين تلوح على وجهه لوائح الشهامة وعزة النفس وكان يحسن الفرنسوية لأنه من التلامذة الذين درسوا قديماً في فرنسا

وكان الشيخ أحمد هناك وكذلك استير وأمها فسلم على هنري وأخته بالفرنسوية لأنه كان شارعاً في درسها وكانت استير تخاطبه بقولها يا أستاذي. وبعد قليل قامت استير وأمها وبهية ودورا وسرن مع أحد الخصيان إلى دار الحريم وهي داخل دار الرجال أو السلاملك مفصولة عنها برواق طويل على أحد جانبيه حديقة كبيرة وعلى الجانب الآخر دار الخدم. والتقتهن حليمة عند باب الدار وعرفت أمها بدورا وكانت استير وأمها وبهية يعرفنها جيداً ولم تكن أم حليمة تتكلم غير العربية والتركية فجعلت حليمة تترجم بينها وبين دورا

وجلس السيدات ووقف الجواري في خدمتهن وقد من لهن الشاي في فناجين من الذهب مرصعة بالجواهر ثم نهضن يتفرجن على دار الحريم وحديقتها فتذكرت دورا ما قرأته في ألف ليلة وليلة وقالت بل ما أراه الآن أغرب مما قرأت عنه لأنه جامع بين بدائع الصناعة الشرقية ومجالي الصناعة الغربية فالغرب شرقية في شكلها ونقشها وفرشها وغربية في ما فيها من الكراسي والمقاعد والموائد والخزائن والستائر والثريات. والجواري شرقيات أو تركيات في لبسهن الأبيض المهلهل ولكن سيدتيهن غربيتان في لبسهما وعقص شعرهما كأنهما حضرتا من باريس أمس. وطالت الزيارة نحو ساعة من الزمان وسألت أم حليمة دورا عن أهلها وكم أخ وأخت لها وعن غرضها من هذه السياحة ولما علمت منها إنها ذاهبة مع أخيها إلى بلاد اليابان استغربت ذلك جداً واستعظمته وقالت إنها قرأت عن

اليابانيين وعن تقدمهم السريع في إحدى المجلات العربية ورأت صورة ملكتهم وهي تشبه ملكات أوروبا والظاهر إنها تقلد ملكة الإنكليز في لبسها ويظهر من صورتها وصور غيرها من النساء اليابانيات إنهن يظهرن على الرجال كالنساء الأوروبيات ثم قالت ولا عجب إذا تقدم اليابانيات أكثر منا لأن نساءهم يتعلمن من معاشرة الرجال ومزاولة الأعمال فتتسع مداركهن وتقوى عقولهن بخلاف أكثر أهالي المشرق الذين يحجبون نساءهم عن الأبصار ويحبسوهن في بيوتهم فلا يرين إلا الجواري والخصيان ولذلك وجد العلماء أدمغة اليابانيين مثل أدمغة أرقى الأمم في ثقلها وشكلها لأن أولادهم يرثون الارتقاء من آبائهم ومن أمهاتهم معاً فوافقتها دورا على ذلك وقالت إنها تعرف كثيرين من اليابانيين رجالاً ونساء وهم على غاية الذكاء وعلو الهمة وسفيرهم في لندن لا يفرق عن سفراء بقية الدول الأوروبية الكبرى وزوجته تقابل في بيتها مثل زوجاتهم

ودار الحديث في السلاملك على مثل ما دار عليه في دار الحريم والتزم الشيخ أحمد خطة الاعتدال وكان يقول أن أكثر نسائنا لسن متربيات التربية الكافية التي تسمح لهن بمخالطة الرجال ومع ذلك فقد قام من نسائنا سيدات كن يدرسن العلوم الشرعية وكان أكبر الأئمة يقرأون عليهن واللوم في التضييق على نسائنا ليس على العرب ولا على الإسلام بل على الذين التصقوا بهم من أمم الفرس والترك والديلم

ولما انقضت الزيارة عاد الضيوف من حيث أتوا وطلب هنري من راغب باشا وابنه والشيخ أحمد أن يشرفوهم إذا زاروا بلاد الإنكليز

ولم يصدق أمين بك أن أوصل أخته إلى البيت حتى عاد إلى البورصة فوجد عزرا فيها وسأله عما اشتراه له وعن الأسعار فقال اشتريت لك عشرة آلاف قنطار حسب أمرك وقد هبطت الأسعار قليلاً بعد ذلك ولكن يقال إنها ستصعد ثانية فهل نستغنم فرصة النزول ونشتري أكثر. فقال أمين كلا يكفي الآن عشرة آلاف قنطار وسار في طريقه

والتفت عزرا إلى حاييم بعد ذلك وقال له لم يعلق الآن ولكن غداً يعلق الله كريم

*****

الفصل التاسع

التقرير السري

سكرتيرة السفارة- تقرر سفر المستر هنري برون بن السر ادورد برون صاحب لندن نيوز إلى بلاد اليابان وسيمر على جنوي ومصر في مهمة سرية تتعلق باليابان ومهمة عمومية تتعلق بإنكلترا. ومدار العمومية على زرع القطن في مصر والبلاد المجاورة لها لأضعاف أصحاب القطن في أميركا ومنع استبدادهم وإلا خربن معامل لكشير والذي يهمنا من أمره إنما هو المهمة السرية فيجب إن تقتفي خطواته وتقف على أعماله بالتفصيل. أمستعد أنت للسفر يا مستر برودي

برودي- متى

السكرتير- اليوم الساعة العاشرة قبل الظهر

ففتح برودي ساعته وقال بعد ساعة ونصف. وصمت هنيهة وهو ينكت الأرض بعصاه ثم فتح ساعته ثانية وقال نعم الساعة العاشرة

فأعطاه السكرتير ظرفين ولفة من الأوراق المالية فوضعها في جيبه وودعه وخرج

وقبل الساعة العاشرة بدقيقة كان في محطة تشرنج كروس ومعه امتعته ودخل المركبة التي دخلها هنري وأخته وبعد لحظة سار القطار بهم ينهب الأرض نهباً قاصداً مدينة دوڤر. وبعد هنيهة فتح

سفطة وأخرج بعض المجلات المصورة وعرضها على هنري ودورا وعلى رجل ثالث كان راكباً معهم فشكروه وتناولت دورا مجلة منها وأما هنري والرجل الثالث فأخرجا من جيبهما جريدتين من جرائد الصباح وجعلا يقرأ أن فيهما. فقال برودي لهما نحن ندع السياسة لكما والتفت إلى دورا كأنه يطلب مصادقتها على ما قال فلم تستغرب منه هذه الجرأة بعد أن شجعته عليها بتناولها المجلة منه فأشارت إليه برأسها إشارة الاستحسان وانقطع الحديث إلى أن وصلوا إلى دوفر

وكان برودي كهلاً في نحو الخامسة والأربعين من عمره أشقر الشعر أزرق العينين طويل القامة عريض المنكبين تلوح على وجهه لوائح القوة والبسالة مع توقد الذهن عيناه دائمتا الحركة كأنه يستجمع كل ما يراه ويسمعه ولم يكن شيء في منظره وحركاته يدعو إلى النفور أو التخوف لكن دورا أوجست منه شراً حالما رأته ولامت نفسها لأنها تسرعت وتناولت المجلة من يده ففتحت له سبيلاً إلى الكلام معها

ولما وصلوا إلى دوفر ونزلوا من القطار وجدوا السفينة لا تسافر بهم إلا بعد ساعتين فقالت دورا لأخيها أين نتناول الغداء. فبدت الحيرة على وجهه لأنه لم يكن قد أكل في دوفر قرلاً فقال لهما برودي إذا سمحتما لي فأنا أدلكما على مطعم اعتدت الأكل فيه. فشكراه وسارا معه إلى الجهة الشرقية من المحطة ودخلوا مطعماً أكلوا فيه مما حضر. ولامت دورا نفسها على سوء ظنها بالرجل لأنها لم تر منه إلا كل مجاملة لكنها لم تستطع أن تتغلب على نفورها الطبيعي منه

وسأله هنري إلى أين تقصد فقال إلى بلاد اليابان ولي رفاق

ينتظرونني في جنوي فلابد لي من المرور عليها وإذا لم التق بهم هناك التقيت بهم في مصر. فقال هنري إذا نحن رفقاء. فقال برودي هذا يسرني كثيراً وعسى أن لا يحدث ما يجعلني أغير خطة سفري لأنني لست ذاهباً لغرض معين وقد كانت هذه السياحة في بالي منذ سنتين فلم تتيسر لي إلا الآن وإذا التقيت برفاقي في جنوي فقد نذهب بطريق القسطنطينية ونمر على سورية ولكن لابد لنا من التعريج على مصر. وقاموا يمشون على الرصيف ويتحدثون في مواضيع مختلفة إلى أن أرتفع الدخان من السفينة التي كانوا عازمين على ركوبها فنزلوا إليها. وكان البحر هائجاً جداً فأصاب دورا شديد وكذلك هنري إصابة شيء من الدوار وأما برودي فلم يظهر إنه أصيب بشيء فأخرج حنجراً من جيبه وقال إن فيه أملاحاً وسوائل عطرية تزيل الدوار أو تخففه وأعطاه لدورا فتناولته منه وشكرته وجعلت تستنشق رائحته فخف دوارها قليلاً أو توهمت إنه خف ولعل رائحته أخفت رائحة الفحم القطراني الذي يوقد في السفينة وهو السبب الأكبر للدورا. ثم انتقلت إلى الجهة التي تهب منها الريح حتى لا يصل إليها شيء من رائحة السفينة فسكن دوارها وبعد نحو ساعة وصلوا إلى كاله وركبوا القطار إلى باريس فباتوا فيها تلك الليلة وقاموا في الصباح وقصدوا إيطاليا ووصلوا جنوي ونزلوا في نزل واحد

وكتب برودي إلى السفارة في المساء يقول «رأيته اليوم مع ثلاثة من اليابانيين زاروا الطرادين المدرعين اللذين بنيا لحكومة الأرجنتين وظهر لي من قرائن مختلفة إنه مفوض في مساعدتهم على مشتراهما وقد ذهب معهم إلى بنك سلمون كوهن وكان مدير الترسانة ووكيل حكومة الأرجنتين معهم والراجح عندي إنهم أمضوا عقد البيع اليوم هناك. وقد رشيت الخادم ليسلم إلى المكاتيب التي يرسلها المستر

برون إلى أبيه لكنه لم يسلمها إلى الخادم بل أخذها ووضعها في صندوق البريد بيده»

وقاموا كلهم في اليوم التالي قاصدين مصر وكان البحر هادئاً فرأى برودي مجالاً واسعاً للكلام مع هنري وأخته وتظاهر إنه متغرض اليابانيين على الروس وكاد يعلم من هنري أن اليابان اشترت الطرادين لكن هنري لم يقل ذلك صريحاً ولا برودي دقق في البحث بل كان يتكلم كأن الأمر مقرر في ذهنه. ولما وصلوا إلى القاهرة نزلوا كلهم في نزل ساڤوي

وكتب برودي يوم وصولهم إلى القاهرة يقول «أن المستر برون قابل وكيل دولته في بورت سعيد ولم استطع أن أعلم ما دار بينهما من الحديث» وأرسل في اليوم التالي تلغرافاً بالأرقام يقول فيه أن هنري أمر بالسفر حالاً إلى بلاد اليابان وإنه سيرافقه إليها ثم جلس وكتب تفصيل ما رآه وسمعه منه من حين وطئت رجله القطر المصري إلى حين كتابة الكتاب

*****

الفصل العاشر

دار الخدم

دار الخدم في بيت واصف بك يدخل إليها من باب خاص إلى الجهة الشرقية من البستان وتأتيها زوجة واصف بك مراراً كل يوم توصي على الطعام وتراقب الخدم وتكتب الحساب لأنها تقول أن لابد للزوجة من أن تراقب مطبخها كما تراقب ثيابها وحلاها وإلا تضاعفت النفقات بإهمال الخدم إن لم يكن بإختلاسهم وجاء الطعام تفهاً لا يؤكل. لكنها لم تكن تدقق في منع خدم الجيران والأصدقاء من الدخول بين خدمها فكانوا يتزاورون أحياناً كثيرة ويتحدثون بكل ما يسمعونه في بيوت أسيادهم

ولما مضت استير وأمها إلى بيت واصف بك على ما تقدم تبعتهما زين الدار وهي جارية عجوز في بيت عزرا اشتراها أبوه منذ أربعين سنة وعتقها حين صدر الأمير بعتق العبيد لكنها بقيت في بيت سيدها لأنها تحب أولاده كأنهم أولادها. وكانت تعلم أن عزرا يريد الاقتران باستير ويخشى من إنها تميل إلى ابن واصف بك فتقتفي خطواتها وتتسقط اخبارها وتوافيه بها. وكان في بيت لاڤي جارية فتية اسمها قدم خير وكانت الاثنتان متآخيتين فلا تخفي أحداهما عن الأخرى شيئاً لا سيما وأن عزرا استهوى قدم خير بهداياه عن يد زين الدار. فلما خرجت استير مع أمها إلى بيت واصف بك اسرعت قدم خير واخبرت زين الدار بذلك فمضت هذه إلى بيت واصف بك وجلست مع الجواري والخدم وكانوا يعرفونها ويكرمونها ولا سيما

السودانيون منهم وينادونها بيا أمي ويعتقدون إنها تبصر البخت وتضرب بالرمل. ولم تكد تدخل حتى دنا منها شاب أسود الوجه مشرط الوجنتين كبير العينين جاحظهما أسمه عبد الله ودار بينهما الحديث التالي

عبد الله- فين الكتاب

زين الدار- الشيخ موش عايز يكتب

عبد الله- على شان إيه

زين الدار- ما يكتبش كتاب زي دا بربع ريال

عبد الله- والعمل إيه

زين الدار- هات ربع تاني وهو نصف ريال حاجة وتصبر لك عروس مثل قدم خير

عبد الله- أهو ربع ريال تاني

زين الدار- طيب أرحلو من باكر واي دول الناس العندكم

عبد الله - مدام لاڤي وستي استير وواحد ينقلو حليم باي ابن راغب باشا وخواجة وست انجليز

زين الدار- وقوي ستي بهية محتفلة فيهم

عبد الله- قوي قوي وقفت مع الخواجة الأنجليزي أكثر من ساعة قدام الشباك وقد متلو الشاي فمسك الفنجان بيدو ونسي يشربو

زين الدار- وكانوا يتكلمون إيه طول الساعة

عبد الله- أنا عارف. كانوا يتكلموا بالإنجليزي أو بالفرنساوي

زين الدار- وستي استير مع مين كانت تتكلم

عبد الله- تكلمت في الأول مع أمين باي ثم جاء حليم باي وأخذ يكلمها ووقف مبهوت منها

زين الدار- وقلو إيه أمين باي

عبد الله- ما قلوش حاجة ولكن شايفلك إن الست الإنجليزية لعبت براسو

زين الدار- الله وترك ستي استير

عبد الله- ما ظنش أوهو بدو يسايرها والسلام وسمعتو يتكلم عن ستي استير مع حليم باي وكانوا التنين يمدحوها قوي وماصدقش حليم باي إنها تتكلم عربي حتي سمعها

زين الدار- عربي وتتكلم أحسن مني ومنك وكان يجيبها واحد شيخ من الأزهر يعلمها

عبد الله – وقد كدا الخواجة لاڤي يحب ولاد العرب

زين الدار- الخواجة لاڤي أمير وسيدي عزرا أمير

عبد الله- بيقربوا بعض

زين الدار- ما اعرفشي يمكن بيقربوا بعض كل اليهود قرايب أهو قلتلك عن الشيخ بيومي ومن باكر رحلو تاني نوبه واديلو النصف ريال

ثم ودعت وخرجت. ودخلت مدام واصف بك بعد خروجها ورأت الخدم يمسحون الآنية والأدوات الفضية بالمناشف والجلد الناعم فأوصتهم أن ينفضوا الجلد من الغبار قبل مسحها به ووقفت معهم هنيهة إلى أن وضعوا كل شيء في مكانه بعد أن عدوه أمامها.

ثم جلست وفتحت دفتراً وجعل الطباخ يسرد لها أسماء الأشياء التي اشتراها ذلك اليوم وثمن كلٍ منها وهي تستغلي البعض وهو يقول «كل شين ا يا ستي اللوكندات غلت علينا كل شي اللحمة والفراخ والحمام والخضار مافش حاجة بتتقارب». ثم حاسبته على ما معه من النقود وما صرفه ذلك اليوم وكشفت الحلل ونظرت ما فيها من الطعام وخرجت

ولم تكد تخرج حتى دخلت دار الخدم جارية عجوز وسلمت ووقفت مع عبد الله تكلمه بصوت منخفض ودخلت البيت فالتقت بمدام واصف بك فقالت لها مالك يا فاطمة كيف حال ستك

فاطمة- بخير تسلم عليكم وهي وسيدي برسوم عتبانين عليكم إزاي تعزموا كل الناس وما تعزموهمش

فقالت مدام واصف بك إنهم لم يعزموا أحداً ولكنهم التقوا بشاب انجليزي وأخته في البالو فتعرفوا بهما ودعوهما لتناول الشاي مع مدام لاڤي وابنتها

فقالت فاطمة أن برسوم افندي رأي هذا الشاب وأخته في البالو ونظره يدل على بهية كأنه يعرفها من قبل

فاستغربت مدام واصف بك ذلك وكانت قد رأت وقوف هنري مع ابنتها وودت أن تعرف ما دار بينهما من الحديث. وكانت أم برسوم تمني نفسها بتزويج أبنها ببهية وقد فاتحت مدام واصف بك بذلك مراراً فلم تجد منها أقل رغبة فيه لأن برسوم لم يكن من الشبان الذين يملأون العين ولا كانت بهية تنظر إليه بعين الإكرام بل كانت تزدري به لا سيما وإنه كان كثير الاعتداد بنفسه لنظمه بعض القصائد وكتابته بعض المقالات وكان هو يزدري بأصحاب الأموال

ويحسب إنهم جمعوا ثروتهم بالحيل والنفاق لا بالتعب والاستحقاق وكثيراً ما وقع الجدال بينه وبينها في هذا الشأن ولما علمت إنه طلبها من أبيها زاد نفورها منه ولكنها بقيت تسايره كما تساير باقي الناس

أما أم برسوم فكانت خرقاء رعناء تعتقد بالسحر والطلسم فقصدت رجلاً يقال إنه يعرف علم المصريين القدماء وطلبت منه أن يكشف لها بعلمه ما يكون من أمر أبنها وهل يتاح له الاقتران ببهية فكتب اسمها واسم ابنها واسم بهية وأمها ورتب حروف هذه الأسماء في جداول وجعل يسقط بعضها من بعض ويزيد ويحذف إلى أن وصل إلى نتيجة قال إنها طبق المرام

*****

الفصل الحادي عشر

السقوط والسفر

ذهب أمين إلى الأوبرا الخديوية والتقي بهنري وأخته وكانا قد حضرا بدعوة الخواجة لاڤي وزوجته وابنته وعلم منهما إنهما مسافران في اليوم التالي الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى السويس ومنها إلى الشرق الأقصى. وسألاه عن بهية وأمه وأبيه وودا لو أحضر بهية معه فأعتذر عنها. وأسقط في يد هنري لأنه كان يحب أن يراها ملياً قبل سفره ولام نفسه لأنه تقيد بهذا السفر ولم يطلع أباه على أن له غرضاً آخر منه غير الغرض التجاري والسياسي وود لو أتيح له أن يخرج من الأوبرا حينئذٍ ويزورها حتى يتودع من رؤيتها قبل سفره. وكانت هذه الأفكار تتردد في صدره فلم يكد يعي شيئاً مما سمعه ورآه. وعلمت دورا ما كان يشغل باله فاجتهدت لكي تقوم مقامه في محادثة الخواجة لاڤي وزوجته وابنته حاسبة أن ذهاب أخيها إلى الشرق الأقصى ينسيه ما رآه في مصر

والتقي أمين بعزرا وغيره من المشتغلين في البورصة وعلم منهم أن بورصة نيويورك أقفلت متحسنة بضع بنوط وأشاروا كلهم بالمشتري لأن الأسعار سترتفع حتماً لقلة المتأخرات ولاحتياج المعامل إلى أكثر من الموجود والمنتظر وأنه لابد من حدوث ما يسمى بمجاعة القطن فيبلغ ثمن القنطار خمسة وعشرين ريالاً أو أكثر. فسمع هذا الكلام ولم يقل شيئاً لكن الملام أثر في نفسه ولو لم يظهر أثره حينئذٍ. ونظر إلى استير جالسة إلى جانب دورا وجعل

يقابلها بها فقال إنها أجمل من دورا وفضلاً عن ذلك فإننا مشتركان في الأذواق فإذا كان أبوها لا يبقى مصراً على تزويجها بأحد أبناء عمها فهي خير قرين لي ولا عبرة بما قلته لحليم بك

وعاد من الأوبرا إلى البيت قبل انتهاء التمثيل لأن كلام عزرا وإغراقه عن ارتفاع القطن شغل باله وبات يفكر فيه وصمم على أن يسترد ما باعه أو يشتري خمسين ألف قنطار ولا يبقيها إلا ريثما يرتفع السعر خمسة ريالات فيبيعها ولا يطلع والديه على ما فعل إلا بعد أن يتحقق الربح ويقبضه. ونام وهو يحلم بذلك ونهض في الصبح ولم يصدق إن صارت الساعة التاسعة حتى أسرع إلى مكتب عزرا وطلب منه أن يشتري له خمسين ألف قنطار بالأحسن فقال له عزرا اعطنا الإذن كتابة وكتب حاييم الإذن فأمضاه أمين وخرج وسار إلى ججهة أوتل شبرد ليوصي مرتبة الأزهار بعمل طاقة جميلة يهديها إلى دورا حين سفرها ولم سكد يصل إلى السبلنددبار حتى خطر له إنه أخطأ في كيفية الإذن الذي سلمه لعزرا لأنه لا يقيده بزمن المشتري ولا بزمن البيع وعزم أن يعود إليه ويقول له أن يشتري هذا المقدار ما دام السعر دون ١٨ ريالاً وأن يبيع كل ما اشتراه له إذا هبطت الأسعار وبلغت خسارته مقدار الربح الذي ربحه أولاً أي إنه يخاطر بالربح الذي ربحه لا بأكثر منه. وعاد نحو البورصة وهو يفكر في هذا الأمر إلى أن بلغ طريق الترامواي فسمع صوتاً كقباع الخنزير فالتفت إلى جهته وإذا أوتوموبيل كبير آت عن يمينه من الجهة الغربية فأسرع لكي يحيد من طريقه وسمع حينئذٍ صوت جرس الترامواي من الجهة الجنوبية فالتفت إليه وللحال عثرت رجله بخطوط الحديد وسقط على وجهه وعيناه تنظران إلى مركبة الترامواي مقبلة إليه كأنها قلعة عظيمة مادت بها الأرض وانفجر

بركان وراءها فقذف بها في الهواء ورآها مسرعة إليه حتى حجبت الأرض والسماء من أمام عينيه فأيقن إنها ستقع عليه وتطحنه طحناً وإن لا مناص له من ذلك لأن رجليه شلتا عن النهوض فافتكر في أبيه وأمه وأخته وما يحل بهم من الحزن عليه فحاول مد يديه ليدفع تلك الداهية عنه ولم يكد يرفعهما عن الأرض حتى أغمى عليه واطبقت الظلمة على عينيه

ووقف الناس على جانبي الطريق بعيون شاخصة وقلوب خافقة وقد قطعوا الرجاء من نجاته إلى أن مرت المركبة وهم وقوف لا يجسرون على الدنو منه وأخيراً بادر إليه بعض السياح الأجانب فتشجع غيرهم من الوطنيين واقتربوا منه ورفعوه عن الأرض بكتف مخلوعة وراس مهشم وعرفه بعضهم فرفعوه إلى مركبة ليمضوا به إلى بيته وحضر اثنان من رجال البوليس حينئذٍ وأبيا أن يدعا المركبة تسير به إلا بعد أن يكتبا محضر الحادثة ووقع الحجاج واللجاج بينهما وبين معارفه حتي كاد يفضي إلى الشجار وأخيراً أقبل فارس من فرسان البوليس وصرف الرجلين وسار مع المركبة

ولا تسل عما حل بأمه وأخته لما رأتاه محمولاً على أيدي الرجال أصفر الوجه مغمض العينين مرتخي المفاصل كأنه جثة لا حياة فيها. أما أمه فصرخت صرخة منكرة وأغمى عليها وأما أخته فاستندت إلى الجدار وشخصت إلى السماء ووقفت كالميت لا تبدي حراكاً. وأقبل الخدم وعلا صياح الجواري وشمل الاضطراب كل من في البيت ثم عادت بهية إلى نفسها وكان الرجال قد القوه على مقعد في الدار وخرج بعضهم يدعون الأطباء

لما كان أمين مطروحاً على الطريق أما مركبة التراموای كان

الخواجة لاڤي والمستر هنري ومهندس من كبار مهندسي الري يتذاكرون في مشتري الأطيان من الحكومة وبسط المهندس خريطة كبيرة رسم فيها موقع الأطيان وكيفية وصول المياه إليها وما يشير بإنشائه من الترع والمصارف فيها وتقدير النفقات اللازمة لذلك وأشار هنري إلى الحديث الذي جري بينه وبين واصف بك فرفض المهندس رفضاً باتا أن يعمل برأيه وقال إنه لا يكون من ورائه إلا الفشل التام لأن الوطنيين لم يعتادوا تأليف الشركات وإدارتها. وكان هنري يود أن يختصر الحديث على قدر الإمكان فقال إذن أترك الأمر في يدك ويد المستر لاڤي وقد كتبت إلى أبي ليكاتبكما في هذا الشأن ومع ذلك لا أرى ما يمنع اشتراك الوطنيين معنا لا سيما إذا كانوا مثل واصف بك من أهل المقدرة في المال والاختبار. وأجمع رأيهم على أن الخواجة لاڤي يدير الأمر بحكمته

وأسرع هنري إلى الأوتل وأمر الخادم أن يمضي بأمتعته إلى المحطة ويضعها في المركبة وركب مع أخته ليذهبا ويودعا بيت واصف بك قبل سفرها ولما وصلا إلى الباب الخارجي أعطيا بطاقة الزيارة إلى البواب فمشي بين أيديهما مشيراً إليهما باتباعه فتبعاه حتى وصلا إلى باب الدار فرأيا جمعاً غفيراً فيها وأمامها ورأتهما بهية فبادرت إليهما وعيناها مغرورقتان بالدموع ووجنتاها تكادان تشتعلان من هول المصاب وأشارت إلى أخيها وهو ملقي على المقعد والطبيب يعصب رأسه. ومال رأسها على عنقها حتى كادت تقع على الأرض فأسرع هنري إليها وأمسك بيديها وأدنت أخته كرسياً منها فأجلسها ووقف ينظر تارة إليها وتارة إلى أخيها ثم التفت إلى جهة أخرى فرأى مدام واصف بك على مقعد والجواري يفركن يديها فبادرت دورا إليها وجعلت تفك أزرارها وترك هنري بهية تطفي

لوعتها بدموعها ودنا من أمين بك وسأل الطبيب عنه فقال الجرح بالغ ولكن لا خوف منه وإنما الخوف من ارتجاج الدماغ وكان في يده حنجر من الأمونيا العطرية ينشقه إياه فأفاق وفتح عينيه ونظر إلى ما حوله متعجباً ولما وقعت عينه على هنري حاول مد يديه إليه فلم يستطع فأغمض عينيه وقال أين أنا وعاد إلى البحران. ووقف الطبيب حينئذٍ وقال هنري الأمر عرضي على ما يظهر. وأفاقت مدام واصف بك حينئذٍ ومشت إلى ابنها فالتقاها الخواجة هنري وقال لها إنه فتح عينيه الآن وتكلم فشكرته على ذلك وركعت أمام ابنها ووقعت على عنقه تقبله

وكان لابد لهنري ودورا من الذهاب لأن ساعة السفر قد ازفت وانتبهت بهية إلى ذلك فتجلدت ومدت لهما يديها وقالت كنا ننتظر أن نودعكما في المحطة ولكن أمر الله فوق كل أمر فقال لها هنري أن الطبيب يؤكد أن الأمر عرضي ولو في طاقتي أن أؤخر هذا السفر أو أمنعه لفعلت ولكن امتعتنا في الفطار ولم يبق إلا دقائق قليلة لسفره. ثم ودعاها وودعا أمها وخرجا

ولما وصلا إلى المحطة رأيا واصف بك في انتظارهما هناك ليودعهما وعجب لأن أبنه وأبنته لم يحضرا لوداعهما فقالا له إنهما مراً على بيته وودعاهما ولم يذكرا له شيئاً عن أبنه ولم يكادا يدخلان المركبة حتى صفر القطار وسار

*****

الفصل الثاني عشر

مجلس النواب الياباني

اجتمع الأعضاء كلهم ولم يتخلف منهم إلا ثلاثة أو أربعة وهذا قليل ولو لم يكن نادراً. ولما استقر بهم المقام افتتح الرئيس الجلسة وجرت اشغال عادية لم يطل البحث فيها ثم وقف وزير البحرية وطلب مصادقة المجلس على اقتراض مئة مليون ين (١٠ ملايين جنية) من بنوك أوروبا وأميركا لتعزيز الأساطيل. فنهض أحد الأعضاء من متطرفي المعارضين وهو مشهورة بقوة العارضة ومقاومة الوزارة الحاضرة واستأذن في الكلام وقال

لقد أوصانا فيلسوف من أكبر فلاسفة أوروبا إن لم يكن أكبر فلاسفتها كلهم في هذا العصر وفي كل العصور وهو الفيلسوف هربرت سبنسر (ولما لفظ اسم هربرت سبنسر نهض ثلاثة أرباع الأعضاء وقوفاً وحنوا رؤوسهم تجلة وإكراماً لذلك الفيلسوف العظيم لأنهم من تلامذته فنظر المتكلم إليهم يميناً ويساراً وقال) إن وقوفكم إيها السادة وما ابديتموه من دلائل الإكرام لذلك الفيلسوف العظيم يشجعني على الإسهاب في اقتباس ما نصح لنا به من القول الحكيم الذي كان مرشداً لنا في الماضي ويجب أن يبقي مرشداً لنا في الحال والمستقبل. قال الفيلسوف في نصيحته التي كتب إلينا بها إنه يجب علينا أن نبعد الأوروبيين والأميركيين عنا ولو قيد ذراع وان نبذل أقصى جهدنا في منعهم عن التمكن في بلادنا لأنهم أقوى منا فيخشى علينا منهم وإذا فتحنا بلادنا لهم ولأموالهم

كان ذلك الضربة القاضية علينا لأننا إذا أنلناهم موطئ قدم في بلادنا ومسنداً يستندون إليه تحولوا إلى الاعتداء علينا بمر الزمن

هذا ما أوصانا به ذلك الفيلسوف المخلص في نصحه وأي سبيل يمكننا ان نفتحه للأجانب علينا أوسع من أن نستدين منهم الأموال ونرهن عندهم بعض موارد بلادنا فإن الارتهان يجر إلى المراقبة والمراقبة تجر إلى المشاكل كما قال لنا سبنسر في وصيته والمشاكل تجر إلى السيطرة والاستبعاد للأجانب. فيا أبناء نبون يا نسل الكماة البواسل إننا من حين رقي أسلاف إمبراطورنا العظيم إلى سدة الملك منذ أكثر من الفين وخمس مئة سنة ونحن عائشون احراراً لا سلطة لأجنبي علينا فهل يجوز في شرعكم أن نسلط الأجنبي علينا الآن. أنعيش في الحرية ونحن في العصور التي نحسبها مظلمة ثم نعيش في الاستعباد حينما نستنير. هل تبيح لكم وطنيتكم ذلك وأنتم ابناء الحرية وأبناء النور. كلا يا سادتي لا تفتحوا سبيلاً للأجنبي علينا ولا تنيلوه موطئ قدم في بلادنا ولذلك فأنا اعترض على عقد قرض أوروبي مهما كانت شروطه ومهما كان الداعي إليه

ثم إذا كان المراد من هذا القرض أن نستعين به على محاربه دولة أوروبية كما تدل الدلائل فيكون الأمر أدعى إلى اجتنابه لأن نجاحنا في الحرب مع الصين وكوريا ليس فيه أقل دليل على إننا ننجح في محاربة دولة أوروبية لأن قدم الأوروبيين أرسخ من قدمنا في أساليب العمران الحديث وهم اقدر منا على العمل بها لأنهم مارسوها وتمرنوا عليها منذ قرون كثيرة ثم إنهم متحالفون بعضهم مع بعض وتجمعهم جامعة الدين ولهم كلهم مصلحة واحدة في الممالك الشرقية فإذا حاربنا دولة من دولهم وانتصرت علينا ارهقتنا ذلاً وغرامة وإذا انتصرنا عليها لم نحن منها شيئاً. ولنا عبرة بما جرى

معنا لما أردنا أن نجني ثمرة فوزنا على الصين فإم ثلاثاً من أقوى الدول الأوروبية تصدين لنا وواحدة منهن لم تكذب أن خطفت الثمرة من يدنا والتقمتها غنيمة باردة ونحن ناظرون إليها لا نستطيع أن نبدي حراكاً. فإذا كان القرض للاستعانة على محاربة دولة أوروبية فهو الخراب العاجل والوباء الجارف فيجب علينا منعه بكل واسطة ممكنة

فقال له بعض الأعضاء أحسنت أحسنت وقال غيرهم لم تحسن ولم تصب

ولما جلس نهض وزير البحرية وقال لا اعتراض عندي على شيء مما نقله العضو الكريم من وصية الفيلسوف هربرت سبنسر فإنها صحيحة يجب العمل بها في الأحوال التي فرضها ولكن سبنسر أوجب علينا الابتعاد عن الأجانب وأبعادهم ما دمنا أضعف منهم وحجته في ذلك واضحة وقوله مؤيد لا غبار عليه أما الآن فلم نعد ضعفاء كما كنا منذ اثنتي عشرة سنة لما كتب سبنسر وصيته بل قد تقدمنا في هذه السنوات تقدماً ادهش أوروبا وأميركا حتي أن أعظم الدول البحرية خطبت ودنا وحالفتنا

ولو صحت وصية سبنسر في حالتي القوة والضعف على حدٍ سوى لوجب أن تبقى كل دولة مستقلة بنفسها معتزلة عن غيرها من الدول ولأمتنع كل اختلاط وتقوضت دعائم الألفة وهذا لم يرده سبنسر على الإطلاق وإنما حضنا على الاعتزال ما دمنا ضعفاء أما وقد قوينا الآن وحاربت جنودنا كتفاً لكتف مع الجنود الأوروبية وبرهنت على إنها مثلهم نظاماً وشجاعة كما شهدوا لها وانتظمت أمورنا الداخلية تمام الانتظام فلم يبق لنا عذر عن مجاراة غيرنا من

الأمم. ثم أن كنا نخاف الحرب حقيقة فيجب أن نستعد لها لأن الاستعداد لها أمنع لحدوثها وإذا لم نستعد طمع فينا الطامعون واضطررنا إلى الحرب أو إلى الذل والصغار. أو يليق بهمتنا وعزة نفوسنا أن تؤخذ غنيمتنا من أيدينا ونحن صاغرون هل يليق بنا أن تضيق بلادنا علينا والأرض واسعة حولنا ونمنع عن السكن فيها والاشتراك في خيراتها وأهالي أوروبا وأميركا يأنونها ويسكنونها من غير معارض. وإلى أين نرسل أبناءنا الذين ضاقت بهم جزرنا إن لم نرسلهم إلى البلاد المجاورة وإلى أين ترسل بضائعنا إذا لم نحميها بمعاهدات وثيقة تكفل الربح لصناعنا. ولا أقول ذلك معارضة لحضرة العضو الذي سبقني في الكلام بل إظهاراً للحقيقة وتحذيراً من خطأً يجب أن لا نقع فيه. فوصيه الفيلسوف هربرت سبنسر وكانت تصدق علينا منذ عشر سنوات أو أكثر وأما الآن فلا تصدق علينا. والاستعداد للحرب لا يوقع الحرب ولا يقربها بل يبعدها ما أمكن. وأنا لست أقل من أحد منكم كراهة للحرب ولكن كراهتي لها هي التي توجب على بذل الجهد في اتقائها. واتقاؤها على هذه الصورة هو الخطة المشروعة التي تجري عليها الدول الأوروبية. أما اقتراض المال من أوروبا بربي معتدل فلا ضرر منه علينا لأن أكثر الأموال التي نقترضها تنفق في بلادنا وتوزع فيها فكأنها أموال تقترضها الحكومة وتعطيها للأهالي برباً معتدل لا يستطيعون الاقتراض به هم. وصفوة المقال أن القرض ضروري ولا ضرر منه على الإطلاق بل منه نفع كبير لنا ولذلك أرجو الاقتراع على طلبي والمصادقة عليه

فنهض واحد من حزب اليسار وأفاض في مناقصة وزير البحرية وبالغ في مضار الحرب وفي أن نفعها لا يعود عليهم. وخالفه واحد من حزب اليمين ودام الجدال أكثر من ساعتين وأخيراً اقترع على

طلب وزير البحرية فوافق عليه مئتان وعشرون وخالفهم مئة وأربعون فقبل بالأكثرية

ثم عرضت لوائح مختلفة فوافق المجلس على بعضها واجل البحث في البعض الآخر. وفي الصباح اجتمع الوزراء عند رئيسهم الكونت كتسورا تارو فقال البارون أراسوكي وزير المالية لا أظن أن مجلس الأعيان يتوقف عن المصادقة على القرض. والكلام بيننا إننا شرعنا في استعمال القرض من الآن ثم التفت إلى الأميرال البارون ياماموتو غمبي وقال له أليس الأمر كذلك. فقال نعم وللضرورة أحكام فإننا لم نر لنا بدا من مشتري الطرادين المدرعين من حكومة الأرجنتين وإلا اشترتهما روسيا وقد أشارت علينا حليفتنا إنكلترا إن لا نتأخر عن مشتراهما لحظة وقام بعض أصدقائنا في إنكلترا وجمعوا ثمنهما وأرسلوه مع مندوب خاص إلى جنوي على أن يستوفوه من القرض إذا وافق مجلس نوابنا عليه وإلا فيبقي ديناً خاصاً إلى أن ندبر أمره وقد جاءني بالتلغراف أول أمس أن البيع تم وعقد العقد ودفع الثمن

فقال الدكتور يدغورو وزير المعارف أظن إننا تسرعنا في مشتري الطرادين ويبلغني أن الثمن الذي دفعناه فاحش جداً ولا تنسوا أن المليون جنية الذي ندفعه ثمن بارجة يماثل عشرة ملايين جنية تدفعها إنكلترا أو فرنسا لأن النقود رخيصة عندهم وغالية عندنا فالمليون جنية تساوي أجرة مليوني عامل عندهم وتساوي أجرة عشرين مليون عامل عندنا ولا يحسن بنا أن نحمل أنفسنا فوق طاقتها لأجل حرب لا يعلم ماذا تكون نتيجتها

فقال الكونت تارو رئيس المجلس إن الأمر ليس في يدنا ولا نحن مخيرين فيه حتى نختار فإن روسيا لا تزال تماطل وتحاول لكي تغتنم الوقت وتزيد تحصين ثغورها وتعبئة الجنود وإرسالهم إلى منشوريا فإن لم نبادر ونضربها الضربة القاضية الآن تعذرت علينا مقاومتها في المستقبل

ثم تلا عليهم خطاباً مسهباً وإرداً من السفير وجلسوا يكتبون المقترحات الأخيرة ليعرضوها على روسيا مصممين على أن لا يتنازلوا عن حرف منها ولما أتموا كتابتها طلبوا التشرف بمقابلة الإمبراطور ليعرضوها عليه فقابلهم وناقشهم في كل بند من بنودها ثم بيضوا المسودة الأخيرة وأرسلوها بالتلغراف إلى سفيرهم في لندن وهو أرسلها في ذلك اليوم عينه مع رسول خاص إلى بطرس برج

*****

الفصل الثالث عشر

القرض الياباني

في غرفة فاخرة الأثاث والرباش في قصر من قصور لندن أم المدائن ثلاثة رجال جلوس حول مائدة وأمام أحدهم آلة التلغراف يخاطب بها أحد الماليين في أميركا وأمام آخر آلة التلفون يخاطب بها ابن عمه في باريس والثالث أكبرهم وهو لورد بنشيلد فقال قد حان لنا أن ننتقم لإخواننا الذين قتلوا ظلماً وعدواناً وأن نستفيد في الوقت نفسه أكبر فائدة مالية يمكن أن تجني في هذا الزمن وقد جاءني السر ادورد برون أمس مندوباً من قبل نادي الصحافة وأطلعني على محررات مكاتيبهم في الشرق الأقصى وفي بطرس برج وموسكو ويتضح منها أن استعداد اليابان أتم من استعداد الروس من كل وجه وإنه إذا نشبت الحرب بينهما فالفوز لليابان إلا إذا حدثت أمور اتفاقية ليست في حساب أحد. والظاهر أن لجنة نادي الصحافة كفلت إصدار القرض لليابان وقد دفعت عنها ثمن مدرعتين بنيتا في جنودي لحكومة الأرجنتين وجاءني السر ادورد برون من قبلها يرجو أن آخذ بيده ومضى على سفير اليابان أسبوعان وهو يذاكرني في هذا الموضوع

فقال الثاني وما هو الضمان الذي تقدمه لنا اليابان أو ما هو الرهن الذي ترهنه لنا

فقال لورد بنشيلد أن دخل الجمارك في اليابان مليون وستمئة ألف جنية حسب تقدير الميزانية هذه السنة وهو ليس مرهوناً

فيصلح أن يكون رهناً لعشرة ملايين جنية بل لعشرين مليوناً ولذلك لا أرى بأساً في اقراضها المبلغ المطلوب

فقال الثاني وكم تكون فائدة هذا القرض

فقال اللورد بنشيلد طلبنا منها ستة في المئة والمرجح إنها تقبل ما طلبناه إذا اصررنا عليه وقد بذل سفيرنا جهده ليجعل الفائدة خمسة فقط فأبنت له أن ذلك ضرب من المحال في الأحوال الحاضرة

فقال الثاني. وبكم يصدر القرض

فقال لورد بنشيلد- أراد السفير أن يصدره بسبعة وتسعين ونزل إلى خمسة وتسعين في المئة فأبيت إلا أن نصدره بتسعين في المئة وأخيراً اتفقنا على إصداره بثلاثة وتسعين في المئة إذا وافقتموني على ذلك فتصير الفائدة نحو ستة ونصف في المئة سنوياً مضمونة بدخل الجمرك

فضحك الثاني وقال بارك الله في الحروب لولاها ما كان يمكن أن تصح النبوءة القائلة إننا نرجع بثروة الأمم

فقال الثالث ولكن كتب إلى ثقة من بطرس برج أن الروس لا يمكن أن يرجعوا بالفشل ولابد لهم من قهر اليابان وأذلالها مهما اقتضت الحرب من الرجال والأموال

لورد بنشيلد- قد يكون ذلك وقد لا يكون ولكن هب أن روسيا امتلكت اليابان وهو أمر بعيد الوقوع جداً فإن حقوقنا على الجمارك اليابانية تبقى محفوظة لنا لا تمس

الثاني- هل تقرر أمر الحرب

لورد بنشيلد- كلا لم تقرر حتى الآن ولكن الذين يؤخذ بقولهم يقولون إنه لابد منها والظاهر أن اليابان ستضرب الضربة الأولى إذا لم تجبها روسيا إلى كل مطالبها من غير تعديل ولا تحوير وإذا اجابتها إليها فيكون الفوز لليابان أعظم مما لو فازت في الحرب لأنها تصير المتصرفة المطلقة في كوريا وفي منشورياً أيضاً وهذا لا ترضى به روسيا بوجه من الوجوه

الثالث- إلى كم تحتاج اليابان بعد ذلك لو نشبت الحرب

لورد بنشيلد- اليابانيون على غاية الاقتصاد في ما بنفقونه من بلادهم ولا يضطرون إلى الاتفاق الكثير إلا على ما يبتاعونه من أوروبا وأميركا كالبوراج والمدافع ولكن لا يبعد أن لا يحتاجوا إلى عشرين مليون جنية أخرى قبل انتهاء الحرب وهب إنهم احتاجوا إليها فعندهم مكوس الأشربة الروحية تبلغ ستة ملايين وستمئة ألف جنية فتزيد على ربا الدين ولو بلغ مئة مليون جنية وليس عليهم الآن دين لأجنبي سوى عشرة ملايين من الجنيهات رباها أربعة في المئة فقط

الثالث- وقعت في ما كانت تحذر الوقوع فيه ولا أدري لمن الفضل في ذلك

لورد بنشيلد- الارتهان يجر إلى المراقبة والمراقبة لا تضرها بل تنفعها كما نفعت غيرها. هذه مصر نجحت تحت المراقبة نجاحاً لم يحلم به أهلها ولا حلمنا به نحن

الثاني- ولكن شتان بين مصر واليابان ومع ذلك فنحن لا يهمنا من أمر الأمم إلا أن تكون أموالنا مضمونة وأن يدفع رباها في مواعيده فإن صح ما قلت عن دخل جماركها فلا مانع من اقراضها

عشرة ملايين من الجنيهات بفائدة ستة في المئة

الثالث- متى يصدر هذا القرض

لورد بنشيلد- لا يمكننا إصداره إلا بعد أن تضرب اليابان الضربة الأولى ويظهر الفوز لها أو تنتصر في معركة كبيرة. على هذا الشرط ثم الانفاق مع السفير

فاتفق الثلاثة على رأي واحد وخاطب صاحب التلغراف شركاءهم في نيويورك وصاحب التلفون شركاءهم في باريس وڤينا وبرلين وذلك بسلك خاص للتلغراف وسلك خاص للتلفون وفي أقل من ساعة جاء منهم الجواب بالإيجاب وأمضي الأمر وكتب الكاتب قرارهم وسار به إلى سفير اليابان

*****

الفصل الرابع عشر

مظهر الحب

جلس الخواجة لاڤي في مكتبه وهو غرفة تطل على شارع المناخ من جهته الشمالية تدخلها شمس الشتاء من كوة جنوبية كبيرة والغرفة فسيحة جداً فيها مائدة كبيرة أمام الخواجة لاڤي ومقعدان وكراسي ملبسة كلها بالجلد المراكشي البني اللون وفي أرضها سجادة عجمية تغطيها كلها وعلى أحد جدرانها خرائط للعاصمة وضواحيها وما فيها من الأراضي البراح المعدة للبناء وإلى يمين هذه الغرفة غرفة للانتظار يجلس فيها الذين يطلبون مقابلته إلى أن يأذن لهم في ذلك وإلى يسارها غرف الكتاب

وكان في غرفة الانتظار رجل من كبار العمد بالعمة والقفطان والجبة وفي يده عصاً مقبضها من الذهب وهو العلامة الوحيدة الدالة على غناه لا سلسلة ذهب على صدره ولا خاتم ماس في يده وإنما فيها دبلة سادجة من الفضة. وهو كهل يناهز الخمسين لكنه زوج أولاده وكاد يزوج أولادهم ولم يكد يستقر به الجلوس حتى دخل أحد الكتاب ورحب به وقدم إليه سيجارة وأمر الخادم بتقديم القهوة وجعل يسأله عن أحوال الأطيان والزراعة ويبالغ في تكريمه وبجيله وبعد حديث دام نصف ساعة دخل غرفة الخواجة لاڤي وقال له أن علي بك أتى الآن طالباً عشرة آلاف جنية ويرهن عندنا مئتي فدان يقول أن الفدان منها يساوي مئة وخمسين جنيهاً

الخواجة لاڤي- الفدان يساوي مئة وخمسين جنيهاً؟ أين هذه الأطيان

الكاتب- في الغربية في مركز قلين

الخواجة لاڤي- بخ بخ وكم يساوي الفدان من الأطيان التي اشتراها منا يا ترى

الكاتب- يقول إنه لا يبيعه بمئة وعشرين جنيهاً وقد عرض عليه مئة جنية في الفدان فلم يرد أن يسمع

الخواجة لاڤي- اشتري منا تسع مئة وخمسين فداناً منذ سنتين لا غير دفع ثمن الفدان منها اثنين وسبعين جنيهاً فإذا باعه بمئة جنية فقط يكون ربحه ثمانية وعشرين جنيهاً في كل فدان فكم يكون ربحه من الأطيان كلها

ثم أخذ القلم وجهل يخط على القرطاس وقال يكون ربحه من الأطيان التي اشتراها منا ستة وعشرين ألفاً وستمئة جنية. كما نقول إن الفلاح مجنون فإذا هو العاقل ونحن المجانين

ثم وقف وجعل يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً ويضرب رأسه بيده ويقول هو العاقل ونحن المجانين. ولا يبعد أن يبيعها بمئة وعشرين جنيهاً فكم يصير ربحه منها. فقال الكاتب خمسة وأربعين ألفاً وستمئة جنية. فقال الخواجة لاڤي كم كم خمسة وأربعين ألفاً وستمئة جنية. خمسة وأربعين ألفاً في سنتين أنظر من منا المجنون. ثم وقف أمام الشباك وجعل ينظر منه إلى المركبات السائرة في الشارع تباعاً سراعاً ذهاباً وإياباً وعيناه العمائم يتمتعون بالغني الوافر ويركبون المركبات الفاخرة تجرها الخيول المطهمة. ثم التفت إلى الكاتب وقال له لماذا يطلب عشرة آلاف جنية الآن

فقال أن أحد جيرانه عنده خمسون فداناً ملاصقة لأطيانه وقد أوصلها ابن أخيه إلى عشرة آلاف جنية أي الفدان بمئتي جنية فاضطر أن يطلبها بالشفعة نكاية بابن أخيه ولابد من دفع الثمن فوراً

الخواجة لاڤي- خمسون فداناً- الفدان بمئتي جنية. من سمع أن الفدان بمئتي جنية الفدان الذي كان يعرض على الفلاحين بعشرة جنيهات وبخمسة صار يباع بمئتي جنية. لا يمكن أن تدوم الحال على هذا المنوال ولابد من «كريزه» فتعود الأسعار وتهبط. ولكن ما دام ثمن القطن على ما هو عليه فهبوط الأسعار ضرب من المحال. أظن إنه أوفى القسط كله في آخر السنة

الكاتب – أوفاه قبل الميعاد بعشرة أيام سلمنا به قطناً وزاد له عندنا أكثر من ألفي جنية

الخواجة لاڤي- وكم الفائدة التي اتفقتم عليها

الكاتب- طلبت منه الفائدة القانونية تسعة في المئة فاستغلاها وقال إنه يدفع سبعة ثم طلع إلى ثمانية فقلت له أن الأمر ليس في يدي بل في يد جنابك

الخواجة لاڤي- طيب قل له يدخل

فخرج الكاتب ثم عاد بعلي بك والتقاه الخواجة لاڤي إلى وسط الغرفة وأجلسه عن يمينه وقدم له علبة السكاير وطلب له القهوة وهو يقول أهلاً وسهلاً بعلي بك ثم سأله عن أولاده وعن المدير ومهندس الري وقال أخبرني ڤيتا إنك طالب عشرة آلاف جنية البنك كله على حسابك برهن أو بغير رهن

فشكره علي بك على ذلك وقال إنه لا يريد أن يفعل إلا الأمر القانوني. ثم عرض أن يأخذ العشرة آلاف جنية بربا ثمانية في المئة سنوي ويقسطها أقساطاً متساوية على خمس سنوات ويرهن المئتي فدان ويدفع كل المصاريف القانونية

فرضي الخواجة لاڤي بذلك وأمر الكاتب أن يخبر الأفوكاتو ليكتب الرهنية وسمح لعلي بك أن يستلم المبلغ المطلوب حالاً قبل كتابة الرهن ولم يكد يتم كلامه حتى دخل الفراش وقال ستي استير تحت في العربية تنتظر حضرتك لتذهبوا وتودعوا الخواجة برون

ففتح ساعته وقال نعم نعم لم يبق إلا ربع ساعة ثم قال واعتذر إلى علي بك وأخذ عصاه ونزل وكانت السيدة استير في مركبة فاخرة يجرها جوادان أدهمان من الخيل الروسية وسائقها باللباس الأسود والبرنطية العالية وإلى جانبه خادم بثياب مقصبة فنزل وفتح باب المركبة ولم يكد الخواجة لاڤي يجلس إلى جانب ابنته حتى دنا منه عزرا السمسار وقال له بلغني الآن أن مركبة التراموای صدمت أمين بك بن واصف بك وقتلته فإن أحد خدمة محلنا كان آنياً من جهة السبلندبار ورآه بعينه وقع أمام التراموای وقد رفعوه ميتاً مهشماً ووضعوه في مركبة وساروا مسكين هذا الشاب فإني متأسف عليه جداً. ثم التفت إلى استير لكي يظهر لها كرم أخلاقه في أسفه عليه فرآها شاخصة لا تتكلم كأنها لم تع شيئاً مما قاله وقد وامتقع لونها حتى زال احمرار شفتيها ولم تصدق أن قال أبوها للسائق «بيت واصف بك خذنا إلى بيت واصف بك سوق حالاً» حتى تنفست الصعداء

وضرب السائق الجوادين بسوطه فسارا ينهبان الأرض نهباً ولم تكن إلا دقائق قليلة حتى قطعت المركبة شارع الفجالة ووصلت إلى شارع الظاهر إلى بيت واصف بك. وخطر للخواجة لاڤي حينئذٍ أن يترك استير في المركبة أو أن يقول لها لتذهب إلى البيت أما هي فنزلت من المركبة قبله ونظرت إليه نظر المتوسل كأنها تقول له دعني أدخل أيضاً. فقال لها هل يناسب دخولك أنتِ فقالت ولماذا لا يناسب أن أرى بهية وأمها وأعزيهما. وارتجفت شفتاها وهطلت الدموع من عينيها فرق لها حتى كادت الدموع تذرف من عينيه وأدخلها معه. ولمحتهما بهية داخلين فقامت للقائهما ولما دنت من استير خنقتها العبرات وارتمت عليها وامتزجت دموعها بدموعها واعتنق الاثنتان ووقف الخواجة لاڤي هنيهة ينظر إليهما ثم تركهما تبردان لوعتهما ومشي أحد الخدم أمامه إلى الغرفة التي نقل إليها أمين بك فرآه ملقي على سريره وأمه راكعة بجانب السرير لا تعي على شيء. فدمعت عيناه ووقف لا يبدي حراكاً. وبعد هنيهة فتح أمين بك عينيه ورآه فحاول التبسم له وأشار إليه ليجلس فعلم الخواجة لاڤي إنه لا يزال في قيد الحياة ولكنه لم يعلم حقيقة ما أصابه ولا درجة الخطر الذي هو فيه ودخل الطبيب حينئذٍ فيسلم واراد الخواجة لاڤي أن يسأله عن حاله فأومأ إليه أن لا يفعل. ثم جس نبضه ونظر في عينيه وخرج فتبعه الخواجة لاڤي

لما سار القطار من محطة مصر بالمستر برون وأخته عاد واصف بك مستغرباً عدم حضور ابنه وابنته لوداعهما وكذلك عدم حضور الخواجة لاڤي وزوجته وابنته على غير عادتهما. وركب مركبته وهو يفكر في أمر ابنته فإن زوجته كانت قد أخبرته بما رأته منها وسمعته من حين التقت بالمستر برون وكيف صارت قليلة

الكلام كثيرة التفكير وقد سألتها عن شأنها معه فأخبرتها بكل ما قاله لها ولم تخف عنها شيئاَ. وتحدث واصف بك مع زوجته في هذا الموضوع وكان يرى أن العادات القومية تحول دون اقترانها به لأنه لم يسبق لقبطية أن تزوجت إنكليزياً. وخاف أن يكون ما بدا منه شعوراً وقتياً يزول سريعاً أما زوجته فكانت تقول إنه ليس كذلك بل هو يحب ابنتها من كل جوارحه وقد خرج من مصر غصباً عنه ولو لم يكن الإنكليز متربين على تفضيل الواجبات على كل شيء لترك السفر إلى الشرق الأقصى وبقى في مصر وبهية تحبه أيضاً ولو لم تجاهر بذلك. هذه الأمور جالت في باله فزاد استغراباً من عدم مجيء زوجته وابنته إلى المحطة. ثم قال لعل بهية خافت أن يبدو منها شيء وقت الوداع ففضلت البقاء في البيت ولقد أصابت في ذلك وهي مصيبة في كل أعمالها وياليت أخاها مثلها لكنه متهور لا يقف عند حد وهو على لين عريكته وطيب قلبه سهل الانخداع ولا يقدر العواقب. وعاد إلي البيت فرأى مركبة الخواجة لاڤي أما الباب ومركبة أخرى ظنها لجراح مشهور فزاد استغرابه وقلق باله حتى إذا نزل من المركبة شعر كأن رجليه عجزتا عن حمله ودخل الدار فرأى بهية واستير على مقعد واحد متعانقتين تبكيان معاً فظن أولاً إنهما تبكيان لفراق أخت المستر برون واتفق حينئذٍ خروج الطبيب والخواجة لاڤي من غرفة أبنه فدنا الطبيب منه وقال لا شيء يوجب انشغال البال وقص عليه ما جرى بالإيجاز فلم يفهم شيئاً ودخل غرفة ابنه ولما دنا منه حاولت زوجته أن تكفكف دموعها فلم تستطع فانحنى وقبل جبين ابنه ثم خرج وجلس مع الطبيب واستعاده القصة بالتدقيق وسأله عما فعل ودخل حينئذٍ الطبيب الأول الذي شاهد أمين بك أولاً وكان قد ذهب وأتى بكيس لوضع الثلج وجلس

الطبيبان يتداولان وقال لهما واصف بك أحضرا كل من تريدان من الأطباء فقال له الجراح لا داعي الآن لحضور أحد. وبعد مداولة استغرقت عشر دقائق اتفقا على طريقة العلاج وقالا لواصف بك أن الحالة لا تخلو من الخطر ولا يمكن البت فيها قبل الغد. فأوصاهما أن لا يذكرا شيئاً أما زوجته وابنته. وجلس يفكر في ما تؤول إليه حاله بعد ابنه وهو وحيده ورجاؤه في الحياة فأظلمت الدنيا في عينيه وجعل يلوم ابنه على طيشه ويلوم نفسه لأنه لم يحسن تربيته حتى يكون شديد الحذر. ثم راجع ما قاله له الجراح فأيقن إنه خفف عليه الأمر وأن الأطباء عاجزون عن انقاذ ابنه من مخالب الموت فارتجفت شفتاه ودمعت عيناه وسلم أمره لله

وحضر حينئذٍ مأمور من قبل المحافظة وكتب أحوال الحادثة وأمضاها

*****

الفصل الخامس عشر

باب الأمل

لم تكد المركبة تجري بالخواجة لاڤي وابنته حتى جعل عزرا يناجي نفسه ويقول قد جاء الأمر طبق المرام ولو بقيت سنة كاملة أدبر الحيل والتدابير حتى اخلص استير من هذا الشاب واكسب أمواله ما عثرت على طريقة أحسن من هذه. ولكن لابد لي من أن أخر إعلام أبيه بذلك حتى تزيد خسارته وقد بلغ النزول الآن ريالاً كاملاً وإذا استمرت الأسعار على هذا النزول فلا عجب إذا بلغ النزول ريالين أو ثلاثة ولكن ما الحيلة حتى يصله العلم ولا يلتفت إليه. الأحسن أن أرسل الفاتورة إليه وأعمل طريقة حتى لا يفتحها إلا بعد يومين أو ثلاثة. ثم خطر على باله أن يستعين بزين الدار فناداها وأخبرها أن أمين بك قتل قتلته الكهربائية وأن مراده أن يرسل جواباً إلى واصف بك ولكنه لا يريد أن يطلع عليه الآن لحزنه على ابنه وطلب منها أن تجد له طريقة حتى لا يسلمه إلا بعد يوم أو يومين. ولما سمعت أن أمين بك قتل وقفت مبهوته ثم جعلت الدموع تهطل من عينيها وهي تقول مسكين أمين باي مسكينة أنه وأخته كيف قتل وشرعت تبكي. فانتهزها وقال لها أن كان لابد من البكاء فلا يمكنها أن تعمل له العمل الذي طلبه منها. فقالت له ماذا تريد أن أعمل فقال أذهبي الآن إلى بيت واصف بك ومتى رأيت الخادم داود داخلاً بالجواب فقولي لأحد الخدم أن يستلمه منه ولا يسلمه لواصف بك اليوم. فوعدته إنها تفعل ذلك وخرجت. أما هو فنادى حاييم وقال له هل وضعت التاريخ على الأذن فقال كلا فقال ضع

عليه تاريخ أمس إذاً وكم المقدار فقال خمسون ألف قنطار فقال ألا يمكن أن تجعلها مئة وخمسين ألف قنطار أرني الإذن ضع واحداً وراء الخمسة انتهي المشكل مئة وخمسون ألف قنطار والإذن الأول عشرة آلاف فصار الأذنان مئة وستين ألف قنطار بثمانية عشر ريالاً والسعر الآن كم. فقال حاييم سبعة عشر ريالاً فقال صار الفرق ريالاً أي اثنين وثلاثين ألف جنية عدا السمسرة وبلغ ربحنا منه أولاً ستة عشرة ألف جنية فصار الربح كله ثمانية وأربعين ألف جنية مصري ما عدا السمسرة أكتب الفاتورة حالاً وأرسلها مع داود إلى بيت واصف بك

ثم جعل يفكر في استير ويقول في نفسه لابد من إنها كانت تحب أمين بك فقد أحمر وجهها أولاً ثم أصفر لما أخبرتها وأخبرت أباها إنه قتل ونظرت إلى شزراً ولكن الله كريم لابد من أن تنساه ويجب على أن أظهر أمامها بمظهر كرم الأخلاق والحزن عليه والأحسن أن أوصي على إكليل كبير يوضع على نعشه. إكليل بخمسة جنيهات صار ربحنا منه نحو خمسين ألف جنيه فلا نبخل عليه بخمس جنيهات ونستجلب رضاها ومحبتها. أما الخواجة لاڤي فلا أظن إنه يمانع في اقتراني بها ولا سيما إذا عرف مقدار ربحي هذه السنة. وتبقى مسألة حليم بك ابن راغب باشا فقد قالت قدم خير جارية بين لاڤي إنها سمعت الشيخ أحمد يطنب بمدحه أمام استير وأبيها. ما قصد هذا الرجل يا ترى. لو مدحه أمام الخواجة لاڤي فقط لقلنا أن مراده عقد سلفة أو بيع بعض الأطيان ولكن ما مراده من مدحه أمام استير. لا نخلص من مشكل حتى نقع في آخر ولكن الله كريم من لا يأتي بالقوة يأتي بالحيلة

بمثل هذه الأفكار كان يناجي نفسه حينما عاد يهودا من البورصة وقال له أن قطن يناير وقف على ١٧ ريالاً فاستبشر خيراً وأدخل حساب أمين بك مع حساب اليوم الماضي وكان قد تركه مفتوحاً لغاية مثل هذه ثم خطر على باله زين الدار وبكاؤها على أمين بك فقال أن هذه الجارية السوداء أرق قلباً مني. لكنه طرد هذا الفكر من باله حالاً قائلاً الدنيا حرب الذي يأخذ استير من أمامي آخذ روحه وصم أذنيه عن توبيخ ضميره

*****

الفصل السادس عشر

لوعة الوداع

دورا- ما بالك يا هنري صامت لا تتكلم

هنري – ماذا أتكلم أنظري هذه البلاد كم طوت من الأمم الغابرين وهي على حالها من عهد الفراعنة الأولين فلاحها يعيش بالجد والكدح وغنيها يتمتع بجني فقيرها ثم يدرج الكل تحت التراب

فالتفتت من كوة القطار ورأت المروج وقد كساها البرسيم ثوباً من الزمرد وقالت ترى ما يكون حال أمين بك الآن

هنري- إذاً أنت تفكرين فيهم أما أنا فإني باذل جهدي لكي أنسي ما مضى فلا استطيع ويخطر ببالي أحياناً أن أعود من السويس ولكن السفينة تقوم صباح الاثنين ولا تقوم سفينة بعدها إلى اليابان تواً إلا بعد أسبوعين ومهمتي تقضي على بالذهاب في هذه السفينة وقد ضاقت بي الحيل ولا أعلم كيف أعمل. أيجوز أن أضحى عواطفي كلها لأجل عمل لا ينالني منه ربح مادي ولا أدبي لماذا نذهب إلى بلاد اليابان؟ لخدمة الماليين لكي تكثر أموالهم أما جمهور الأهالي الفلاحين والمعدنين والصناع وهم التسعة الأعشار فلا يستفيدون شيئاَ. والماليون أيضاً لا يستفيدون لأن زيادة المال لا تزيد الراحة بل تزيد التعب. هذا لورد بنشيلد تقدر ثروته بأكثر من ثلاثين مليوناً من الجنيهات ودخله اليومي بأكثر من ثلاثة آلاف جنية وثد سمعت منه أن ما ينفقه على نفسه من مأكل ومشرب وملبس لا يزيد على ثلاثة جنيهات في اليوم يأكل في الصباح بيضة ويشرب كأساً من اللبن

والقهوة ويأكل الظهر قطعة من السمك وقطعة من اللحم وقليلاً من الخبز والخضر والفاكهة ونحو ذلك في المساء وأن زاد بلى بالتخمة ويلبس مثل أبسط الناس وما هو إلا وكيل على أمواله يهتم نهاراً وليلاً بتشغيلها وتثمرها فلو بلغنا مبلغه من الثروة لزدنا طمعاً وتعباً. أنظري كيف نحن الأن مسخران لغيرنا. كيف دست قلبي وعواطفي وخرجت من بيت واصف بك وابنه على فراش الموت ولا أمل أن أراه بعد الآن وبهية تبكي وتنوح ويكاد قلبها ينفطر حزناً عليه. تصوري نفسك مكانها وأن مركبة التراموای داستني فقتلتني أو كادت ولك حبيب أو صديق ولابد له من أن يتركك في تلك الساعة تصوري نفسكي مكانها

فاغرورقت عينا دورا بالدموع وقالت له إني أعرف ما يختلج فؤادك وأأكد لك يا هنري إني أحب هذه الفتاة كما تحبها أنت وإني آسفة جداً لفراقها على هذه الصورة ويكاد قلبي ينفطر عليها وعلى أمها ولكن الواجب أولى بالإتباع ونحن مرتبطان بهذا السفر ولا مناص لنا منه وإذا بقينا في مصر لا نقدم ولا نؤخر ويقيني أن أمين بك يقوم من هذه السقطة وأظن إننا نجد تلغرافاً منهم في السويس يطمئنا عنه وإلا فلابد لنا من أن نرسل تلغرافاً نسأل عن صحته

فقال لا أظن إنه يقوم من هذه السقطة ألا تتذكرين إنني رأيت بهية في حلم لابسة ثوباً أسود وهي تستغيث بي والثوب الأسود علامة الحداد

فتبسمت وقالت عدنا إلى الأحلام وأضغاث الأحلام. أتظن أن فكراً خطر لك وأنت نائم يقدم ويؤخر في أمور الناس ومجرى أحوالهم

فقال لا يمكننا أن نكذب كل ما يقوله البعض عن أدراكهم للغيب فإن الحوادث كلها الماضي منها والحاضر والمستقبل يفصلها الزمان بعضها عن بعض فإذا لم يقيد العقل بالزمان استطاع أن يدرك المستقبل كما يدرك الحاضر. وكيف ندرك الماضي ونحن بعيدون عنه سنيناً أو قروناً ولا ندرك المستقبل وقد لا يكون بعيداً عنا إلا أشهراً أو أياماً. ولابد من إنك تقولين لي كيف ندرك حدوث الشيء وهو لم يحدث بعد فأجيب أن كل حادث متعلق بسلسلة من الأسباب سابقة له وهو موجود فيها بالقوة ولو لم يكن موجوداً بالفعل فكما نرى الزهرة فنتصور الثمرة التي تتكون منها ونراها بالبصيرة ولو لم ننظرها بالباصرة ونرى الطفل فنتصور الرجل الذي يصير منه كذلك عين العقل تقوى في بعض الناس فنهتك حجاب المستقبل وتعلم الحوادث الآتية مما هو جار. وما لي ولهذا البحث الفلسفي الآن ألم أصف لك بهية قبل أن نأتي إلى مصر أو لم تجدي وصفها مطابقاً لما وصفتها به. أواه يا دورا كم أتمنى أن أكون الآن بجانبها أسليها وأشاركها في حزنها على أخيها. لابد من إنها تقول ما أقسى هذا الرجل وأثل وداده. والحق إننا نحن الإنكليز قساة نضحي كل شيء في سبيل ما نعده واجباً علينا

ودخل حينئذٍ خادم ودعاهما للطعام فقاما إلى غرفة المائدة وكان الجلوس فيها قليلين فجلسا على مائدة وحدهما واكلاً اللون الأول قبلما عادا إلى الحديث. ولما أتاهما الخادم باللون الثاني قالت دورا لا أظنهم يجلسون على مائدة الآن ما أقبح الأمراض والآفات فإنها تنغص الحياة وتسلب منها كل مسرة ولا أظن أن المصاب يتألم أكثر مما يتألم ذووه. لو كان الناس يعودون أنفسهم الاستخفاف بالموت والترحيب به كأنه واسطة لإنقاذهم من متاعب الحياة لما

وجدنا في المرض والموت عشر معشار ما نجده فيهما الآن من الألم والكدر

فقال أخوها أصبت ويصير الناس يلجأون إلى الانتحار كلما أصابهم مرض أو وجع لكي يتخلصوا من الألم لأن الألم لا يزول بالفكر والتصور كما تظنين

فقالت كلا ليس إلى هذا الحد ولكن ألم تقرأ أن بعض الأقوام يحسبون الموت سبيلاً للوصول إلى دار السعادة فيرحبون به وإذا شاخ أحدهم طلب من أولاده أن يقتلوه قبلما تنهكه الشيخوخة فيعجز عن مصادمة الأعداء في الوصول إلى دار النعيم. فيقتلونه باحتفال عظيم ولذلك يفرحون بموت واحد منهم كما نفرح نحن بولادته أو بزيجته فلو اعتقد كل الناس أن الموت انتقال من دار الشقاء إلى دار السعادة كما تعلم الديانة المسيحية لزالت شوكته تماماً وصرنا ننتظره ونرحب به كما ننتظر أيام الربيع ونرحب بها

فقال أن الخوف من الموت راسخ في النفوس منذ ألوف من السنين ويكاد يكون راسخاً في نفوس الحيوانات لأن منها ما يجزع من الموت ويضطرب. وقد مضي على الديانة المسيحية نحو ألفي سنة تعلم الناس أن الموت انتقال من دار الشقاء إلى دار السعادة ومع ذلك لم تنزع من نفوسهم الخوف من الموت

فقالت أن تعليل هذا الأمر الأخير سهل جداً لأن رجال الديانة يعلمون أن بعد الموت دارين دار ثواب ودار عقاب ويخوفون الناس من دار العقاب أكثر مما يطمنونهم بدار الثواب. وكثيرون منهم يتخذون التخويف من دار العقاب سبيلاً إلى الحث على التدين والتقوى حتى لما قال جورج لنتش أن قصيدة كبلنج المشهورة

المعنونة بحمل الرجل الأبيض نفاق ورياء عارضها بقصيدة يخاطب بها البيض بلسان السود قائلاً

احملـــوا حمـــل الـــترقي * واملكـــــوا املاكنـــــا
وانشـــــرونا في الفيـــافي * واخضـــــدوا اشـــــواكنا
جئتمونـــــا بســـــموم * وخمـــــور تنهـــــك
وجحـــــيم يحشـــــر الله * بـــــــه ويهلـــــــك

وقد حضر عظة لأحد خدمة الدين مثل فيها صور الناس في جهنم تمثيلاً تقشعر منه الأبدان لم يأت ملتن في شعره بارهب منه ولا جاء دنتي بما يدانيه. وكان اكثر الذين صورهم في جهنم من النساء حتى خيل لي أن الجحيم للنساء والنعيم للرجال. فصور وأوصاف مثل هذه ترسخ في نفوس الناس فيزيد خوفهم من الموت لأنهم يرجحون العقاب بعده ولا سيما إذا علموا إنهم يحاسبون على كل كلمة بطالة يقولونها. وقد يكون لخدمة الدين غرض ذاتي يدعوهم إلى تخويف الناس من العقاب وقد يكونون مخلصين لا غرض لهم سوى خلاص النفوس ولكن النتيجة من ذلك واحدة وهي زيادة خوف الناس من الموت على ضد ما تعلم به الديانة المسيحية وكل الأديان الشهيرة. فلو عدل خدمة الدين عن هذا السبيل وشوقوا الناس إلى الحياة الأخرى بعد الموت لزالت مرارته من النفوس وخف فراق الأحباء على الأحياء وقضى الإنسان الأيام الأخيرة من عمره جذلاً متهللاً بما سيصير إليه بعد الموت. ولا رغبة لي الآن في موضوع مثل هذا لأن اشتغال العقل وقت الأكل يضعف الهضم. هات قل لي الحق هل يخطر ببالك أن تعود إلى مصر بعد الرجوع من اليابان

فقال نعم هذا كان مرادي ولكن الأمر يتوقف على ما أراه من بهية ووالديها فإنها لم تسمح لي أن أكاتبها ولكنني سأكتب والديها فإن رأيت منهما ما يقوي الأمل طلبت منهما أن يسمحا لي بمكاتبتها ولكنني لا أدري كيف نتمكن من ذلك ونحن في آخر المعمور ولا يصل البريد في أقل من شهر ويلوح لي أن الحرب صارت على الأبواب وربما اضطر أن أذهب إلى ساحة القتال ومن يعلم ماذا يصيبني هناك. ثم جاءت مسألة أخيها وهذه لم تكن في الحسبان وإذا فرضنا إنه يقوم من هذه السقطة كما أرجو ويشفي منها تماماً فمتى يكون ذلك وهل يطمئن بالهم حتى يكاتبونا وإذا لم يقم من هذه السقطة لا سمح الله صار البحث في هذا الموضوع ضرباً من المحال وكيفما التفت لا أرى إلا ظلاماً دامساً لا نور فيه

ولما شرع في الكلام أبطل إلا كل وجارته دورا في ذلك فرفع الخادم الطعام من أمامهما وعرض عليهما لوناً آخر فأبيا وطلبا الفاكهة. ثم عادا إلى مكانيهما وكانا جالسين وحدهما فقالت له دورا هب إنك كتبت إلى والديها وكتبا إليك وظهر لك من كتابتهما أن تزوجك بابنتهما ليس في الإمكان فماذا تفعل

فقال أن هذا لا يكون

فقالت كيف لا يكون وقد فهمت من استير أن الأقباط لا يزوجون بناتهم للأجانب مع أن رجالهم يتزوجون بالأجنبيات فإن أم بهية من السوريين الذين استوطنوا القطر المصري ولكن لم يسمع أن قبطية تزوجت بأجنبي

فقال إني لا أنظر إلى ذلك بل إلى ما أشعر به في نفسي فإني أشعر أن هذه الفتاة خلقت لي وخلقت لها ويخال لي إنها هي أيضاً تشعر

كما أشعر ولا أعرف سر هذا الشعور المتبادل ولكنه حقيقة لا ريب فيها

فتبسمت وقالت لا تزال أنت أنت

فقال نعم ومن يستطيع أن يكذب وجدانه ومتى صرت مثلي تشعرين شعوري. فاحمرت وجنتاها وقالت هذا بعيد عني ولكن أنظر كيف نسينا بين واصف بك ولجة الحزن التي هم فيها

فقال أصبت ولا يجوز أن نفتكر في أنفسنا إلى هذا الحد قولي لي ماذا أخبرتك استير عن بهية وبهية عن استير وأين أخو استير فإني لم أره إلا مرة أو مرتين

فقالت سألت استير عن أخيها فقالت أن أباها صارم جداً عليه وقد وضعه في بنك لا تزيد أجرته فيه على أربعة جنيهات في الشهر وهو يحضه دائماً لكي لا يصرف منها شيئاً لا لأنه بخيل بالطبع بل لأنه يخاف أن يطلق له العنان في الإنفاق فيعتاد الملاهي ويتورط في السبل التي يعتادها الشبان في مصر. ولكن هذه التربية السلبية لا تكفي لأنها لا تقوى عقول الشبان واعتمادهم على أنفسهم وليس في القاهرة كلها نادٍ أدبي يجتمعون فيه ويستفيدون من المطالعة ومن مذاكرة أهل العلم والاختبار كما في البلاد الإنكليزية. وهي تمدح أميناً وتثني على آدابه وأخلاقه ولكنها تقول إنه مبذر متلاف لا يعرف قيمة المال ولا يقدر العواقب وتخشى من أن يكون قد تعلق حديثاً بشغل البورصة وقد سمعت أمها تتكلم مع أبيها في هذا الموضوع وعزمت أن تخبر أمه لتردعه وإلا عطل مستقبله وخرب بيت أبيه. أما استير وبهية فجوهرتان وكل منهما تحب الأخرى كما تحب نفسها على ما ظهر لي مما سمعته من كل واحدة منهما عن الأخرى.

وقد لحظت أن أميناً يحب استير وهي تحبه والظاهر أن العائلتين تعرفان ذلك. هذه الأمور لاحظتها ملاحظة وقد أكون غلطانة. وبين واصف بك وبيت راغب باشا من الأصدقاء والظاهر أن حليماً صديق حميم لأمين درساً في المدرسة سوية وكذلك واصف بك وراغب باشا. وحليمة أخت حليم بك من أجمل البنات اللواتي وقعت عليهن عيني طويلة القامة بيضاء اللون شقراء الشعر سوداء العينين والحاجبين قد تمثل فيها الجمال الشرقي بل الجمال التركي بل الجمال الشركسي. ومهما بالغ مصورونا في رسم العيون الحوراء والشفاه والحمراء والخدود الأسيلة والوجنات الموردة لا يبلغون نصف ما رأيت فيها ولم أشبع من النظر إليها. وهي مخطوبة لشاب من كبار رجال الحكومة وسيكون عرسهما في أواخر فبراير أو أوائل مارس حينما يقل السياح في القاهرة لأن أصحاب البيوت الكبيرة يتعبون من ازدحام السياح عليهم ويقال إنه بلغت القحة من بعض السياح أن يصوروا العروس في جلوتها وينشروا صورتها في الجرائد وهذا يستقبحه المسلمون جداً. وطلبت حليمة مني أن نبقى في مصر لحضور عرسها وقالت لي استير أن الأفراح الكبيرة مثل فرح أبنه راغب باشا يكلف ثلاثة آلاف جنية أو أكثر. وحقاً إني أود أن أبقى واراه ولكن الواجب أولى بالاتباع

ولم تكد تنطق بالكلمة الأخيرة حتى مادت بهما المركبة ولطمت بالمركبة التي أمامها ولطمت بها المركبة التي وراءها فوقعت بين يدي أخيها ولطم رأسها صدره لطمة عنيفة ووقعت الأسفاط عن الرفوف فأصاب سفط منها رأسه وكتفيه وكاد يقضي عليه

*****

الفصل السابع عشر

الباخرة في السويس

كان اليونان يربون أحداثهم تربية رياضية حتى تقوى أبدانهم فتقوى عقولهم ويستطيعون مغالبة الخصوم في ميدان الحياة والفوز عليهم وأنشأوا ما يسمى بالألعاب الأولمبية حيث كانوا يجتمعون ويتبارون في المحاضرة والمصارعة ويكللون الفائز بأكاليل الظفر وجعلوا لذلك شأناً دينياً حتى يرسخ في نفوسهم ويكون له المقام الأرفع فيها. ولا نرى بين الأمم الحديثة من اقتفى خطوات اليونان في هذا السبيل أكثر من الإنكليز فإنهم يربون أحداثهم تربية رياضية ويغرونهم بتقوية أبدانهم ولذلك ترى شبانهم مجدولي العضل أشداء الأعصاب لا يحجمون عن المشاق وهم يشرعون في ترويض أبدانهم منذ الطفولية وقد شرعوا الآن في إغراء بناتهم بترويض أبدانهن ولا يندر أن ترى الفتاة الإنكليزية سائرة مع أخيها للصيد والقنص وهي متأبطة بندقيتها مثله أو تراها راكبة على جواد تطارد في ميدان السباق أو على جمل تقطع به البراري والقفار

ولهذه التربية الرياضية أثر ظاهر في ما يبدو من الشعب الإنكليزي من القوة ورباطة الجأش والصبر على المشاق ولا يضاهيهم في ذلك إلا الشعب الأميركي الذي حذا حذوهم والأمم المتبدية كالعرب والتركمان

وقد كان هنري ودورا من الذين ربوا هذه التربية فلما حدث ما حدث في القطار ووقعت الأسفاط على هنري حتى كادت تقضي

عليه كانت غاية ما فعلته به وبأخته إنها أضحكتهما فنهضا وجعلا يضحكان ويقهقهان حتى دمعت أعينهما ثم أطلا من النافذة يسألان عما جرى فعلما بعد اللتيا والتي أن القاطرة أصابت خشبة وضعتها يد أثيمة في طريقها عمداً فحادت عن الشريط وحاد معها مركبتان ولم يحدث في القطار شيء غير ذلك ولكن كان لابد من أن يتأخر بضع ساعات إلى أن تصل قاطرة أخرى من الزقازيق تسير به. وخاف هنري ودورا أن يأتي قطار آخر من الوراء فيصدم قطارهما وعزما على النزول منه فقال لهما أحد الكومسيرية لا خوف من ذلك لأن السكة الحديد المصرية جرت على النظام الإنكليزي حديثاً فلا يقوم قطار من محطة إلى أخرى إلا ويفرغ الخط الذي بينهما فما دمنا هنا لا يقوم قطار من المحطة التي وراءنا. فاطمأن بالهما ولم يعلما متى يقوم القطار بهما وحسبا إنها سيتأخران عن الباخرة التي كانا عازمين على السفر فيها. أما دورا فكانت ترجح إن ذلك بعيد الوقوع فلم تعبأ به وأما هنري فكان يود حدوثه ليتأخر أسبوعاً أو أسبوعين ويعود إلى القاهرة

وبعد ساعتين من الزمان أتت قاطرة سارت بقطارهما فوصلا متأخرين ثلاث ساعات. ووجدا الباخرة في المرفإ وهي يابانية من بواخر شركة نيون يوسن كايشا فنزلا إليها حالاً وأرسلا تلغرافاً إلى بيت واصف بك يسألان عن صحة أمين بك وتلغرافاً آخر إلى بيت الخواجة لاڤي يشكرانه فيه ويخبرانه بوصولهما سالمين إلى السويس

وكان وصولهما إلى الباخرة الساعة الثامنة مساءً بدل الساعة الخامسة فوجدا أن مكاتب جريدتهما قد أعد لهما غرفتين في منتصف السفينة من أحسن غرفها والسفينة من أكبر السفن التي تسير بين أوروبا والشرق الأقصى وأكثرها اتقاناً وأفخرها فرشاً وكان

الركاب قد لبسوا للعشاء وبينهم كثيرون من كتاب الجرائد الإنكليزية وهم بثياب السهرة وفي جملتهم المستر برودي وكان بعضهم ينتظرون المستر برون وأخته وبلغهم ما أصاب القطار فأخره عن ميعاده فلما وصلا السفينة حيوهما مرحبين بهما وطلبوا من القطبان أن يأمر الخدم ليتمهلوا في تقديم الطعام فغسل هنري ودورا أيديهما ودخلا غرفة المائدة من غير أن يغيرا ثيابهما فاستقبلهما الركاب بأصوات التهليل والابتهاج وأعطوهما كرسيين إلى جانب القطبان وزوجته. وعرف هنري كثيرين من الحضور فأومأ إليهم مسلماً وقال للقبطان هل دارت رحي الحرب فإني أرى هنا كثيرين من كتاب الجرائد فقال القطبان كلا ولكن لابد منها عاجلاً أو آجلاً. وكان جالساً في صدر المائدة عند منتصفها وزوجته أمامه وإلى يمينها مكاتب جريدة التيمس فجلس هنري إلى يسارها وجلس دورا عن يمين القطبان وسيدة أخرى عن يساره. وقدم لهم الطعام لوناً لوناً وهو مما يؤكل عادة في السفن الكبيرة فرنسوية كانت أو إنكليزية من الأسماك واللحوم والخضر والمربيات وقدمت لهم أجود أنواع الخمور الأوروبية ودار الحديث أولاً على ما حدث للقطار فوصف لهم هنري ما أصابه وأصاب أخته وهو يضحك ويمزج الجد بالهزل. ومما قاله في هذا الصدد أن القطار خاف من صولة الإنكليز لما وصل إلى التل الكبير فارتعد واضطرب فقالت دورا نعم وكاد يدفنا مع الذين دفنوا هناك فقال هنري ولو فعل لعددنا بين الأبطال. ثم استدرك على ذلك قائلاً ولكنني علمت من رجل من كبار الموظفين في سكة الحديد المصرية أن الحوادث التي من هذا القبيل قليلة جداً أقل مما هي في أوروبا وأميركا. فجعل القبطان يسأله عن نسبتها إلى عدد الركاب وطول السكك وعدد القطارات وهو يجيب مما بقي في

ذاكرته من كلام ذلك الموظف والقبطان يقابل ذلك بما يحدث في بلاد اليابان من هذا القبيل فظهر أن الحوادث التي تحدث في سكك الحديد المصرية قليلة بالنسبة إلى عدد الركاب ولكنها ليست قليلة بالنسبة إلى سرعة القطرات. واستطرد القبطان السؤال إلى أحوال القطر المصري وما بلغه عن ارتقائه السريع. فجعل هنري يصف ما شاهده وما سمعه إلى أن قال أن أهالي القطر المصري عشرة ملايين من النفوس ومع ذلك بلغت قيمة صادراتهم في العالم الماضي نحو عشرين مليوناً من الجنيهات. فجحظت عينا القبطان على صغرهما وكانت زوجته تتكلم مع دورا فالتفتت إليه وقالت عشرين مليوناً من الجنيهات أي مئتي مليون ين. وكانت تحسن الإنكليزية مثل زوجها وهي صغيرة القد بشوشة الوجه تحسبها فتاة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة مع إنها نصف ولها ولدان شابان أحدهما في الجيش والأخر في البحرية وقد زارت أوروبا مرتين قبل الآن

فقال هنري نعم عشرون مليوناً من الجنيهات وتسعة أعشارها من ثمن القطن الذي يصدرونه إلى أوروبا وأميركا. فقال القبطان وإلى اليابان أيضاً وفي سفينتنا الآن لا أقل من ٥٠٠ بالة منه ولكن الذي يدهشني من أمر المصريين أن بلادهم على بحرين وتجارتهم الخارجية واسعة ومع ذلك ليس عندهم شركات تجارية ولا سفن بخارية إلا سفن شركة واحدة صغيرة ابتاعت سفنها من الحكومة ويبلغني أن أشغالها ليست على ما يرام ولا تعطي المساهمين شيئاً من الربح وبلاد مصر على أبواب أوروبا وقد شرعت في بناء السفن الكبيرة منذ ثمانين أو تسعين سنة أي قبلما شرعنا نحن في ذلك بنحو ستين سنة فما أخرها عن مجاراة أوروبا بعد أن شرعت في ذلك

فقال هنري لا أعلم ولكن الأمر مستغرب جداً وقالت دورا أنا

أعلم بعض السبب إن لم يكن كله فقد رأيت في القاهرة نساء مثل النساء المتعلمات المتهذبات في أرقى البلدان الأوروبية ولكنني علمت منهن أن النساء اللواتي مثلهن قليلات العدد وأكثرهن من الأوروبيات والسوريات واليهوديات والتركيات وأما نساء الفريق الأكبر من الأهالي فأكثرهن على غاية الجهل وعدد اللواتي يعرفن القراءة والكتابة بين كل نساء القطر المصري لا يبلغ سبعة في الألف فما دام نصف السكان أمياً وهو النصف الذي يربي الأولاد فكيف ترتقي البلاد. فاستغربت امرأة القبطان ذلك وهي من المهتمات بتعليم النساء في بلادها وقد ساعدت أباها في إنشاء مدرسة كبيرة لهن وجعلت تستخبر من دورا عن كل ما علمته من أحوال النساء في مصر وتعليمهن

وانتقل الحديث إلى الحرب المنتظرة فجعل القبطان يبرر أعمال دولته ويصف اعتداء الروس عليهم وكان المستر برودي أشد الموافقين له على ذلك فالتفت مكاتب التيمس إلى مكاتب جريدة أخرى كان جالساً إلى جانبه وقال له من هذا الرجل فقال لم يذكر له اسم في قائمة الركاب وأظنه تاجراً أو سائحاً

وقام النساء بعد الطعام وكن قليلات التففن بارديتهن وخرجن إلى ظهر الباخرة وأما الرجال فبقوا يشربون ويدخنون. ثم جاء مكاتب لندن نيوز يحمل تلغرافين إلى هنري ودورا الواحد من بيت واصف بك يقال فيه أن أميناً أفاق مراراً والأطباء يطمنونهم عنه. والثاني من بيت لاڤي يهنئهما بالوصول بالسلامة ويرجو لهما سفراً سعيداً وعوداً حميداً وقد أسفوا لأن حادثة أمين بك منعتهم من توديعهم. ودنا برودي من دورا وسلم عليها وهنأها بالسلامة وقال لها إنه اضطر أن يسبقهما فجاء في اليوم السابق وقضى النهار في السويس. ثم عاد إلى

غرفة الكتابة وكتب إلى السفارة يقول

«أزيد على ما كتبته لكم الظهر أن في الباخرة نحو عشرين طناً من الديناميت وثلاثين صندوقاً فيها مدافع صغيرة وقد أكد لي الوكيل إنه لا تمر سفينة من السفن الإنكليزية إلا وهي مشحونة ميرة لليابان ومعنا في السفينة سبعة من مكاتبي الجرائد أربعة منهم ضلعهم مع اليابان واثنان مع الروس وواحد بين بين. وقد وصل الآن المستر هنري برون وأخته بعد أن كاد العدل ينتقم منهما فقد انحرف بهما القطار ووصلا متأخرين ثلاث ساعات. الوكيل هنا الآن وسيأخذ كتابي هذا ثم نقفل أبواب السفينة وتسافر قبل الفجر وسأكتب من عدن وأعنون الكتاب باسم والدتي»

لما كان برودي يكتب الكتاب المتقدم إلى سفارة روسيا في لندن أتي هنري ليكتب إلى أبيه ثم التفت إلى الساعة فوجد عقربها على التاسعة وسأل المكاتب إلى أي ساعة تستطيع أن تبقى في الباخرة فقال إلى الساعة العاشرة فقط. فقال في نفسه ساعة واحدة لا كتب فيها إلى أبي وأمي وبيت لاڤي وبيت واصف بك فبأيهم ابتدئ. الرأس قبل القلب والجد قبل الهزل. فلابد من الكتابة إلى أبي أولاً ولكن كيف تكون بهية الآن هل أطمأن بالها على أخيها وهل نسيتني يا ترى أو تفتكر في كما أفتكر فيها وهل بلغها ما أصاب القطار. ما كان اجملها لما وقفت لوداعنا كنت أرى فؤادها يخفق والدم يرد إلى وجنتيها ثم يزايلهما. ما أجمل تينك العينين النجلاوين. هل جالت فيهما الدموع على مصاب أخيها أو على فراقنا. خير لي ولها أن يبقى هذا الأمر غامضاً. لا شبهة عندي إنها تحبني كما أحبها ولكن قد تقضي عليها عادات قومها بتركي كما قضت على مطالب قومي بتركها. إن كنت أحبها حقيقة فيجب أن أعطيها نفسي ولا أفرط بها وأي

تفريط أقبح من هذا. حرب تثار لخدمة المال فأكون من المذكين نارها ثم أذهب بنفسي إلى ميادين القتال ترويجاً لجريدة حتي يباع منها مليون نسخة في اليوم بدل نصف مليون وتزيد أموالنا زيادة لا حاجة لنا بها وإنما تزيدنا تعباً وهماً. أذهب إلى ميادين القتال وقد أصاب برصاصة تقضي على في لحظة من الزمان أو أقع جريحاً تطأني سنابك الخيل فتكسر مني الساق والذراع ويلصق لساني بحنكي من شدة العطش فلا أجد من يبل شفتي بقطرة ماء ثم تنهش لحمي الذئاب إلى أن أتنفس النفس الأخير وكيف يكون حال أبي وأمي وأختي بعدي. أبي قد لا يسأل. هذا لورد ربرتس أصيب وحيده في حرب البوير فهل دمعت عيناه. أما أمي دورا فلا شك إنهما تحزنان على مدى العمر وبهية لا أعلم ما يكون من أمرها. لم أرَ منها دليلاً قاطعاً على حبها لي غير شعوري وقد أكون مغتراً بنفسي كما يغتر أكثر الشبان

والتفت إلى الساعة فرأى عقرب الدقائق قد وصل إلى الدقيقة العاشرة فلام نفسه وشرع في الكتابة. كتب أولاً إلى أبيه فأشار إلى ما أصاب القطار بالإيجاز التام وذكر له ما اخبره به المكاتب وهو أن الميرة التي تشحن إلى اليابان أضعاف ما يشحن إلى الروس وأن المراقبة ستكون تامة متى نشبت الحرب. وكتب إلى أمه سطرين يأسف فيهما لأن تأخر القطار منعه عن الكتابة لها بالإسهاب ووعدها بالكتابة عن ظهر السفينة وحار في أمره إلى من يكتب إلى واصف بك وهو لا يعرف الإنكليزية أو إلى أمين بك وهو مريض أو إلى أخته وهي قد حذرت عليه الكتابة لها. وأخيراً رأى أن يكتب إلى أمين بك فقال له «إني لا استطيع أن أصف لك مقدار السرور الذي شملنا مما نالنا من الشرف بالتعرف بكل واحد من أعضاء عائلتكم الكريمة

كما لا أقدر أن أصف لكم مقدار غمنا على الحادثة المشومة التي حدثت لك وعلى اضطرارنا إلى السفر قبل أن تراك ملكت صحتك. ولكن أنا ودورا نرجو ونطلب من الله أن يزول هذا العارض سريعاً وتعود إليك صحتك التامة. وقد أصابنا نحن حادث طفيف في الطريق أخرنا عن الوصول إلى السويس ثلاث ساعات وإلا لأرسلنا إليكم التلغراف قبل ذلك وإني اشكركم على وصول جوابه ولولا هذه الحادثة لكتبت إليكم بالإسهاب عن سفرنا وعما نشعر به من السكر لكم على كل الجميل الذي عاملتمونا به ولي أمل إننا حينما نصل إلى عدن نأخذ خبراً عن قيامك بالسلامة. وأرجو أن تهدي واجب الاحترام إلى والديك المحترمين وإلى حضرة شقيقتك وإني لك دائماً الصديق المخلص هنري برون»

وكتبت دورا إلى بهية بمثل ذلك واسهبت قليلاً في وصف الحادثة التي حدثت للقطار وكتبت سطرين إلى أمها وختما المكاتيب وسلماها إلى المكاتب ثم رفع سلم الباخرة وأقفل بابها وكانت قد صارت الساعة العاشرة

*****

الفصل الثامن عشر

الشكوى

صدقيني يا استير لو وقع يوسف الوقعة التي وقعها أمين ما كنت تألمت أكثر مما أنا متألمة الآن وكل الحق على عزرا

هذا ما قالته مدام لاڤي وكانت جالسة مع ابنتها في غرفة صغيرة تتناولان الشاي وحدهما وكانتا تتكلمان باللغة الفرنسوية لأن كل حديثهما في البيت بها. فقالت استير وما دخل عزرا في وقوع أمين تحت الترامواي

فقالت أمها لقد بلغني منذ يومين أو ثلاثة أن عزرا اصطاد أمين بك وأدخل رجليه في حبائل البورصة ولابد من أن يكون قد خسر خسارة فاحشة أو ربح ربحاً كبيراً بحيث انشغل باله مثل كل الذين يبتدئون في شغل البورصة فعثرت رجله وهو يمشي لأنه كان مشتت الأفكار

فقالت استير من أخبرك إنه يشتغل بالبورصة. فقالت أخبرتني قدم خير وقدم خير عرفت من زين الدار. والجواري السود يعرفن كل شيء لأن فيهن عفريتاً كما يقول أولاد البلد

استير- أنا أكره زين الدار وأحب أن لا تدخل بيتنا وأعتقد إنها جاسوسة علينا من قبل عزرا

مدام لاڤي- عزرا شاب مجتهد ومن انسبائنا ويقول أبوك إنه كسب مكاسب طائلة هذه السنة

استير- مجتهد أو غير مجتهد هذا لا يعنيني وشغل البورصة ليس عيباً وإلا ما كان أبي وأعمامي يشتغلون به وأنا لا ألومه على ذلك ولكنني أبنت له ألف مرة إنني لا أطبقه لأنني أرى في وجهه شيئاً ينفرني منه وإن كان قد أوقع أمين بك في البورصة فيكون لأنه يريد أن يسلب أمواله حتى يفتقر ولا أعود التفت إليه وهذه دناءة منه وأكبر دناءة

مدام لاڤي- أصبت ولكن أنا غير قاطعة بصحة الخبر لأن الجواري مهذارات فقد يصدقن وقد لا يصدقن وأبوك لم يقل لي شيئاً عن خسارة أمين ولكنه تأسف جداً على ما أصابه

استير- لابد لي من أن أسأله حالما يرجع إلى البيت. وعزرا هو الذي أخبر أبي عن وقوع أمين وقال إنه قتل ونظر إلى كأنه حزين على ذلك ولكنني قرأت في وجهه علامات الشماتة والتشفي

مدام لاڤي- وأبوك يقول أن الخطر شديد على أمين وقد لا يقوم من هذه السقطة لا سمح الله- مسكينة أمه

فجالت الدموع في عيني استير وارتجفت شفتاها ونظرت إلى الحائط وقالت ما أقل بختي

فقالت لها أمها ليس إلى هذا الحد يا استير نعم أن بيت واصف بك جيراننا واصدقاؤنا منذ خمس عشرة سنة وأنا أحب أميناً واخته مثل أولادي ولكن ليس إلى هذا الحد يا ابنتي ولا تنسى إنهم أقباط وأن أولاد عمك ينتظرونك كلهم وموسى أتم دروسه في بلاد الإنكليز ودخل في محل من أكبر المحلات التجارية وأنا من رأيك من جهة عزرا ولكن لست من رأيك من جهة موسى

فقالت استير ولكن موسى ولدو بالأمس كنت أضحك عليه. فقالت أمها الولد يصير رجلاً وموسى كالمرحومة أمه طويل القامة مليح الوجه تبين على معاطفه علائم الرجولية كما يظهر من صورته وأظن إنه يأتي في أواخر هذا الشتاء ليقضي بضعة أسابيع مع أخوته

فلم تقل استير شيئاً وأنقطع الحديث. وبعد قليل جاء الخواجة لاڤي وقال لزوجته وابنته ورد تلغراف من الزقازيق أن القطار الذي سافر فيه المستر برون وأخته حاد عن الخط وانقلبت مركبة من مركباته ولا يزال واقفاً قرب التل الكبير. فقالت مدام لاڤي يظهر أن السنة سنة نحس من أولها. فقال زوجها كذا يظهر وقد مررت الآن على بيت واصف بك فوجدت أميناً على حاله وأمره مشكل وقد قال لي الجراح إن الخطر أشد مما نظن وهو يعتقد أن الدماغ غير سليم. وأنا واقع في مشكل آخر فإنه اشتري قبل سقتطه أكثر من مئة وخمسين ألف قنطار من القطن عن يد عزرا وأبوه لا يعلم شيئاً من ذلك فهل الأحسن أن نخبره ونزيد همومه أو نترك الأمر وربما هبطت الأسعار أيضاً فتكثر الخسارة وقد استشارني عزرا في أمره فأشرت عليه أن يخبره حالاً ولكنني رأيت واصف بك الآن فلم يقل لي شيئاً عن القطن والظاهر أن عزرا أخر إخباره لكي تزيد خسارة ابنه أو إنه أخبره وهو لم يهتم بالخبر لانشغال باله

فتحققت استير ما أخبرتها به أمها وأدركت جسامة الأمر لأن الاشتعال بالبورصة شاع حتى بين النساء والبنات ولا يندر أن يشتري الرجل لزوجته أو لابنته اسهما أو كنتراتات ويشركها معه في الاهتمام بالصعود والنزول وصار النساء يتحدثن بأشغال البورصة في مجتمعاتهن ويهتممن بالكسب والخسارة اهتمام الرجال بهما وقد خصها أبوها ببعض الأسهم فشغل بالها بها حتى فقدت لذة العيش

ثم اهملت أمرها من تلقاء نفسها لأنها رأت أن الربح والخسارة يشغلان البال على حد سوى فلما سمعت أن أميناً تطرف في البورصة إلى هذا الحد لأمته في قلبها لكنها ودت أن تنقذه من هذه الورطة كأنها مشاركة له فيها والتفتت إلى أبيها وقالت له كم تظن بلغت خسائره الآن فقال لا أعلم ولكن أظن إنها عشرون أو ثلاثون ألف جنية. فأبدت مزيد الدهشة مع اعتيادها سماع ألوف الجنيهات لأنها ربيت على الاكتراث للمال مهما كان قليلاً وقد طالما رأت أباها يحاسب على الغرش التعريفة مع إنه ينفق على اسطبله نحو ثلثمئة جنية في السنة ورأت أمها تحاسب على نصف الفرنك وهي تدفع ثمن القبطان ستين جنيهاً. وقالت لأبيها أن أباه غني يسهل عليه دفع هذا المبلغ عنه ولكن دفعه في هذا الوقت يزيد ألمه وحرقته. فقال أظن أن الأمر بالضد من ذلك لأنه يفتدي ابنه الآن بكل مرتخص وغالٍ والخسارة واحدة سواء كانت كبيرة أو صغيرة لدى من يسهل عليه دفعها ولا سيما خسارة البورصة الملعونة فإنك ترين الرجل الذي يشق عليه أن تنكسر عصاه في يده وثمنها نصف ريال وأن يعطي نصف غرش لفقير ثم يجد إنه أعطاه غرشاً خطأ. هذا الرجل نفسه يدفع ألف جنية خسارة كأنه دفع غرشاً واحداً. ولا شيء يحقر قيمة المال مثل الاشتغال بالبورصة إذ يربح الواحد الألوف ويخسر الألوف في ساعة من الزمان وأخشى أن يتمكن داء البورصة من أمين فيبدد ثروة أبيه

فقلقت استير من كلام أبيها كما قلقت مما أصاب أميناً من سقطته ورأت إنها عاجزة عن أن تساعده بشيء ولو رأت من أبيها عدم الاهتمام به لحثته على الاهتمام ولكنها رأته مهتماً مفكراً فلجأت إلى الصبر وهو الخلق الذي تغلب به المرأة وتنال رغائبها

الفصل التاسع عشر

الحيلة

لم يكد داود خادم عزرا يخرج من مكتبه بالكتاب إلى بيت واصف بك حتى خطر لعزرا أن زين الدار ليست لتؤتمن بعد ما أظهرت ما أظهرت من الحزن على أمين بك فنادى داود وقال له اذهب ضع المكتوب في صندوق البوسطة وخذ هذه ثلاثة مليمات ضعها عليه. فوضع داود المليمات الثلاثة على المكتوب وسار به إلى أقرب صندوق في ساحة الأوبرا ومر به رجل شيخ أسمه فورتي من سماسرة السماسرة فقال له إلى أين فقال ذاهب لأضع هذا الجواب في الصندوق. فقال له إلى من فقال إلى أمين بك بن واصف بك وفر على المشوار إلى الظاهر

فورتي- مشوار إلى الظاهر لماذا لا تذهب بالترامواي

داود- ومن يدفع أجرة الترامواي

فورتي- أظن معلمك يخرب الدنيا على قرش تعريفه

داود- أهو تعلم كيف يجمع الناس الفلوس

ووصلا حينئذٍ إلى صندوق أحمر لاصق بالحائط فوضع داود الكتاب فيه وافترقا

وأراد عزرا أن يعرف الخبر اليقين عن أمين بك فركب مركبة وسار بها إلى بيته ليعوده ظاهراً ويطمئن باله من جهة عدم سلامته باطناً. ولما وصل إلى الباب أرسل ورقة الزيارة فقابله أحد الأصدقاء وقال

له أن أمين بك على حاله فعاد بالمركبة ومر من أمام بيت الخواجة لاڤي وكان الخواجة لاڤي عازماً على الخروج فسلم عليه ودعاه للدخول فلم يكذب أن دخل وقال إنه ذهب إلى بيت واصف بك لأن سقوط أمين بك شق عليه جداً. ولما سمعته استير يرائي بهذه الوقاحة نظرت إليه شزراً ومشت ولم تكلمه ورأى ذلك منها فاحتدم غيظاً ولكنه كظم غيظه حينئذٍ وبقى يكلم الخواجة لاڤي كأنه لم يرَ شيئاً. فسأله الخواجة لاڤي عما إذا كان قد أخبر واصف بك باشتغال ابنه في البورصة وبالمركز الذي هو فيه فقال إنه فعل ذلك. فقال له وماذا قال لك واصف بك فقال لم يقل لي شيئاً حتى الآن والخسارة ليست جسيمة والأمل كبير بالربح فقد اقفلت بورصة لندن بصعود عدة بنوط. ثم ودع وخرج

وتلك الليلة جلس عزرا في النيو بار وحده وهو يفكر في احتقار استير له وفي طريقة يجتذبها بها إليه أو ينتقم منها وتحسر على الأيام الماضية أيام اللصوص والقرصان حين كان المرء يغري أحد قطاع الطريق ببضعة دنانير فيخطف له أية فتاة أرادها وقال في نفسه مضت تلك الأيام ولم يبق لنا سلاح للانتقام إلا المال والمحاكم. وبينما هو يفكر في هذه الأمور دنا منه رجل إيطالي وطلب منه صدقة ولج في الطلب وهو يقول إنه جائع ليس عنده ما يتعشى به ويعشي أولاده فنظر عزرا إليه ملياً ثم مد يده إلى جيبه وناوله نصف ريال وقال له تعال إلى بعد ساعة إلى مكتبي أمام البورصة نمرة كذا فشكره الرجل ألف شكر وذهب وهو لا يصدق أن عزرا يعطيه نصف ريال أحساناً.

وبعد ساعة وافاه إلى مكتبه فأخذ يستقصى عن أحواله بالتدقيق وأقام معه ساعة زمانية ثم صرفه وعاد إلى النيو بار وهو

لم يذق عشاء فشرب كاسين من البيرا وأكل ما معهما من اللماظ إلى أن كانت الساعة الحادية عشرة فمضي إلى بيته وخلع ثيابه وحاول النوم فطار النوم من عينيه وكثرت عليه الهواجس وهو يتصور استير تارة في صورة ملاك كريم يشمخ عليه كبراً ودلالاً وطوراً في صورة شيطان رجيم آتٍ للانتقام منه ثم تخطر له صورة زين الدار والدموع تهطل من عينيها لما سمعت ما حل بأمين فيكاد قلبه يلين لكن النفس الأمارة بالسوء الموروثة من عصور الخشونة والهمجية حين كان الناس كالوحوش الضواري يفترس بعضهم بعضاً- هذه النفس تغلب أكرم الأخلاق وأنبلها إذا لم يستعن المرء عليها بأوامر الدين ونصائح الفضلاء ولم يردعها بإرشاد العقل ونتائج الاختبار. وويل لمن لم ينه نفسه عن الهوى ولم يجد من حوادث الأيام نذيراً. ولخفه عشائه بقى دمه في دماغه ولم يهبط إلى معدته فبقيت الأفكار تتزاحم عليه وأكثرها أفكار سوء وهو يتقلب ويتململ إلى أن لاحت تباشير الصباح فنهض من فراشه أصفر الوجه غائر العينين ولكنه شديد التنبه كأمس وما قبله فأكل مما قدم له وأمر زين الدار أن تذهب وتسأل عن أمين بك ثم خرج إلى مكتبه ووصل إليه قبل شريكه وراجع حساب الأمس فرأى أن ربحه كان وافراً رغماً عن انشغال باله

*****

الفصل العشرون

رأس السنة

دخلت سنة ١٩٠٤ وجو السياسة مكفهر والمخابرات دائرة بين الروس واليابان في بطرس برج وطوكيو ولكن رجال المال ولأعمال الذين في يدهم شؤون الأمم في هذا الزمان واثقون أن هذه المخابرات لا تجدي نفعاً لا لأن أهالي الشرق ضاق بهم شرقهم فهم يطلبون منتجعاً في بلاد الغرب ولا لأن أهالي الغرب ضاق بهم غربهم فهم يطلبون الرزق في بلاد الشرق. كلا. ولا لأن القيصر يطمع في أن يلبس تاجاً آخر فوق تاجه. ولا لأن الميكادو يرغب في أن يورث ابنه مملكة أخرى فوق مملكته. والأربعون مليوناً من الحراس والصناع والعمال في بلاد اليابان الرجال منهم والنساء وأولادهم لا يعلمون شيئاً من أمر توسيع المماليك وانتجاع الأرزاق لأن كلا منهم مكتفٍ بما يجده من الأرز والفاكهة في بلاده. ولا المئة والثلاثون مليوناً من أمم الروس تهمهم بورت آرثر أو فلادفستوك وأكثرهم لم يسمعوا اسميهما ولا اسم اليابان وإنما مصالح التجار وأصحاب المعامل وأرباب الأموال هي الدافع الوحيد إلى هذه المناظرات الدموية

ليرتكب ملك من الملوك ما شاء من الفظائع التي تقيم الدنيا وتقعدها ثم ليوص معمل أرمسترنج أو معمل كروب بمئة مدفع أو مئة ألف بندقية فيغتفر وزره وتصمت الصحف عن ذمه أو تتغنى بمدحه. وليفرط ملك أخر في ما شاء من الأعمال التي يأباها العمران ثم ليعقد قرضاً يشترك فيه البنوك الفرنسوية والألمانية والإنكليزية

حتى يربح كل فريق منهم مئة ألف جنية في السنة من عرق رعيته بل من الدم المستقطر من عروقها فللحال يغتفر ذنبه ويقال إنه ملك مصلح استدان الأموال لإصلاح بلاده واستثمار خيراتها أو لتقويتها ومنع الأجنبي عن الطمع فيها

والصحافة ولا سيما الصحافة الصفراء جاءت ضغثاً على أبالة وشاركتها الصحافة القديمة المعروفة بالرزانة والتبصر فتبارت كلها في الكسب ولا تكسب إلا إذا أكثر القراء من ابتياعها ولا يكثرون إلا إذا حملت إليهم أخبار الحروب والخصومات. فترى في أثارتها أكبر مروج لها حتى قيل إنها هي التي اضرمت نار الحرب بين أميركا وإسبانيا

هذه الخواطر جالت في بال هنري برون وهو على ظهر السفينة اليابانية في البحر الأحمر في بدء السنة الميلادية سنة ١٩٠٤ فأسف لأنه جاري أباه على مطامعه وود أن يكاشف أخته بذلك وكانت جالسة مع امرأة القبطان تتكلم معها وتسألها عن بلاد اليابان وتلك تسألها عما شاهدته في مصر لأنها لم ترد أن تعطي أكثر مما تأخذ خلق في اليابانيين ساعدهم على هذا النجاح الذي نجحوه في مدة وجيزة. فدنا هنري منهما فعايدته زوجة القبطان برأس السنة ومدت إليه يدها فصافحته وأشارت إليه ليجلس فجلس ولم تكن قد رأته ذلك اليوم لأنها لم تفطر مع الركاب ثم قالت له أن أباك من أعز أصدقائنا وأنصارنا ونحن مديونون لكن كثيراً لما تبدونه من المساعدة لنا والاهتمام بأمرنا فشكرها على حسن ظنها

ثم سألته عما إذا كان قد شاهد الباخرة ورأى ما فيها من الانتظام فقال كلا فنادت ثاني زوجها وكلمته باليابانية ثم قالت بالإنكليزية أن الخواجة هنري برون ومس برون أخته من أعز أصدقاء اليابان أفلا

تريد أن تطوف بهما في السفينة تريهما ما فيها من الآلات والأدوات ثم قالت لهما أن القبطان كان يود أن يفعل ذلك بنفسه لكني سألته عنه فقال إنه على المرقب يهتم بسير السفينة لأن هذا البحر كثير الصخور والجزائر المرجانية المخفية تحت الماء فلا يريد أن يفارق المرقب ولا سيما في هذه البقعة. فنزل ثاني القبطان معهما إلى محل الآلات وأراهما كل قطعة وأخبرهما بالمعمل الذي صنعت فيه وكان أكثرها مصنوعاً في بلاد اليابان نفسها وشرح لهما الأمور التي زادها صناع اليابان من باب التحسين في الآلات الأوروبية ولا سيما التي يقتصد بها ما يحرق من الفحم

فقالت دورا لثاني القبطان يظهر لي إنكم ستبارون الإنكليز في التجارة لأن بلادكم جزيرة مثل بلادنا وهي كثيرة الأجوان والمرافئ مثلها وبالقرب منكم بلاد واسعة كثيرة السكان يسهل الإتجار معها

فقال أصبت وقد كنا أهل تجارة من قديم الزمان وكانت سفننا التجارية تصل إلى كوريا والصين ثم دخل قوم من الأوروبيين بلادنا ففتنوها واضطر ملوكنا أن يطردوهم من البلاد وأن يحظروا علينا بناء السفن الكبيرة لكي لا نخرج منها ولم نعد إلى بناء السفن الكبيرة إلا منذ عهد قريب أي منذ نحو عشرين سنة ثم رأت حكومتنا أن تغري الشركات الوطنية بالإكثار من بناء السفن البخارية الكبيرة فقطعت لها الإعانات المالية بعد حربنا مع الصين والآن تسير سفننا الكبيرة إلى أوروبا وأميركا وأستراليا وروسيا وكوريا والصين وعندنا خطان من البواخر التي تذهب إلى أميركا وخط إلى إنكلترا ومنه هذه السفينة وخط إلى استراليا وخط إلى روسيا وخطان إلى كوريا و١٣ خطاً إلى الصين وفي كل خط عدة من السفن الكبيرة التي محمول الواحدة منها ستة آلاف طن فأكثر وهي تضارع أكبر السفن البخارية

وأكثرها راحة لركابها. وعندنا الآن ١٠٨٨ سفينة بخارية كبيرة محمولها نحو سبع مئة ألف طن و٣٥٠٠ سفينة شراعية كبيرة محمولها أكثر من ثلثمئة ألف طن. وعندنا شركتان للسفن التجارية أحداهما شركة نبون يوسن كيشا من أكبر شركات السفن البخارية في الدنيا

فقال هنري وهل تجارتكم الخارجية كبيرة إلى حد يقتضي هذا المقدار من السفن التجارية. فقال نعم وقد كانت قيمة الصادر والوارد في العام الماضي نحو ٥٤ مليون جنية وينتظر أن تبلغ هذه السنة ٦١ أو ٦٢ مليوناً ولا يزال جانب كبير من تجارتنا الخارجية يرد ويصدر في السفن الأجنبية فالسفن اليابانية تحمل نحو عشرة ملايين طن والسفن الأجنبية تحمل نحو ١٦ مليون طن ولذلك لم يزل المجال واسعاً أمامنا لبناء سفن أخرى

فقالت له دورا وماذا تفعلون لو نشبت الحرب بينكم وبين الروس فإن سفنكم التجارية تضطر حينئذٍ أن تبطل سيرها وتختبئ في مرافئكم فتكون الخسارة كبيرة عليكم

فقال نعم قد نضطر أن نتوقف عن السفر مدة ولكن حركة التجارة تزيد قبل الحرب وبعدها زيادة تجبر النقص الذي تنقصه في مدتها. وقد ربحنا في الشهور الستة الأخيرة أكثر مما كنا نربح في سنة كاملة من زيادة الشحن ومن غلاء الأجرة وأكثرنا مساهمون في شركاتنا فنطلع على حسابها كل ثلاثة أشهر وتهمنا مصلحتها لأنها عائدة علينا. وأسلوب الاشتراك هذا شائع عندنا أكثر مما هو شائع عندكم

فالتفتت دورا إلى أخيها وقالت له أتتذكر حديثنا في نادي الصحافة وأنا يعجبني هذا الأسلوب وأرى إنه الحل الوحيد لمسألة

العمال وأصحاب الأعمال لأن العامل الذي له سهم من الربح يكون وافر همة ونشاطاً واهتماماً من العامل الذي ليس له إلا أجرته

ثم صعد بهما ثاني القبطان إلى ظهر الباخرة ولما بلغاه رأيا الركاب مجتمعين حول سمكة كبيرة من السمك الطيار طارت في الهواء أو وثبت فيه ووقعت على ظهر السفينة وكان أحدهم يبسط جناحيها وهي زعانف كبيرة بين أضلاعها غشاء صفيق فسر هنري برؤيتها لأنه قرأ عنها ولم يرخا قبل الآن فجعل يتفحصها ملياً ثم مضى وغسل يديه وعاد ووقف ينظر إلى البحر لعله يرى سمكة أخرى تطير منه وقال لأخته أرأيت يا دورا عاقبة الطمع هذه السمكة مخلوقة لتعيش في الماء فلم تقنع بذلك بل طلبت أن تعيش في الهواء أيضاً وتزاحم الطيور على معيشتها فأودت بنفسها

فضحكت دورا وقالت أرأيت أنت عاقبة من يطلب أن يعيش في غير عنصره

فقال نعم يقع ولا يعود يقوم. ولكن أتظنين حقيقة أن الفرق بيننا عظيم بهذا القدر

فقالت لا أظن ولكن لا يخلو الأمر من شيء من الفرق

فقال أصبت لقد طلبت منها أن تسمح لي بالكتابة لها فأبت ولو كانت إنكليزية أو أميركية ما طلبت منها ذلك بل كنت أكتب إليها من غير أن أسألها وعلى كل حال كانت تقرأ مكاتيبي وتكاتبني

فقالت أظن أن الحق معها في هذا الأمر نعم لو كانت تعرفك معرفة كافية وكان بينكما صداقة قديمة ما كان وجه للاعتراض على المكاتبة. هب إن الشاب المسلم حليم بك طلب مني أن أكاتبه فهل كنت أجيبه إلى ذلك كلا. أو هب أن أميناً أخا بهية طلب أن أكاتبه

فالمرجح عندي إني كنت اعتذر عن قبول طلبه

فقال إذاً لا فرق بينك وبينها

فقالت كلا قد لا يكون أقل فرق بيني وبينها وقد تكون أحسن مني من كل وجه ولكن عادات قومها ونظرهم إلى الأمور تختلف عن عاداتنا ونظرنا إليها وقد يسهل التوفيق بين عاداتهم وعاداتنا وقد لا يسهل. هذا لا يمنع أن تكون هي معتادة عاداتنا كلها وأن لا يختلف عليها الحال في شيء ويحتمل أيضاً أن يكون أبوها وأمها وأخوها كذلك. ولكن واحسرتاه عل أخيها ترى ما هي حاله الآن

فقال لا أعلم وأكدي إني كنت افتكر به وحده وأنت تتكلمين الآن. إذا أصيب بالتهاب الدماغ أو بنزف فيه ضعف الأمل بنجاته

فقالت أما النزف فقد مضي وقته وأما الالتهاب فكان يجب أن يظهر قبل الآن ما هي عبارة تلغرافهم

فقال العبارة تطمن ولكن كل الكتاب عن الشرق يقولون أن الشرقيين لا يذكرون الصحيح عن مرضاهم كأنهم يتشاءمون من ذلك

فصمتت وعادت تنظر إلى البحر

فقال لها يجب أن نذهب ونشكر زوجة القبطان فقالت نعم وسارت معه. وكانت زوجة القبطان واقفة مع برودي يتحدثان فلما رأتهما مقبلين نحوها تبسمت لهما وقالت عسى أن تكونا قد رأيتما ما سركما

فقال هنري حقاً أن كل شيء من الطبقة الأولى وقد كان ثاني القبطان على غاية اللطف وأخبرنا أموراً كثيرة مفيدة ولم أكن أعلم

أن حلفاءنا بلغوا هذه الدرجة من المهارة في بناء السفن وعمل الآلات

فقالت نعم ونحن ربينا في البحر مثلكم ولقد سافرت مع زوجي مراراً كثيرة لأني أفضل البحر على البر. هل رأيتما السمكة الطيارة. في هذا البحر كثير من الغرائب ولكن بحور اليابان أغرب وجزائرها جميلة جداً ليست قاحلة مثل الجزائر التي نراها هنا بل مغطاة بالأشجار اليانعة وأنا مسرورة جداً لأنكما ذاهبان إلى بلادنا وسترين يامس برون كيف تكون في فصل الربيع حينما يظهر زهر الكرز الوردي وتلبس الأرض حلل الأقحوان بألوانه الفضية والذهبية ولابد من أن يدعوكما الإمبراطور إلى حدائقه فتريا فيها جمال الطبيعة وبدائع الصناعة وسيكون وصولنا إلى اليابان قبلما يبتدئ فصل الربيع ولكن أبناء إنكلترا واسكتلندا لا يسؤهم منظر الثلج مغطياً السهول والآكام. ثم تكتسي الأرض خضرة فترون في سهولها ونجودها وآكامها ووهادها وبحيراتها وغدرانها وحراجها الملتفة وحقولها المنبسطة وفجواتها العميقة وشلالاتها المتصببة وما تتشح به من وشي الأزهار وطراز الخمائل ما ينسيكم هضاب اسكتلندا وبحيراتها

فسرت دورا بهذا الوصف وهذه البلاغة وقالت لها لقد شوقتينا أيتها السيدة إلى مشاهدة بلاد زهر الكرز ومطلع الشمس وأنا وأخي سنغتنم هذه الفرصة للتمتع بكرم ضيافتكم ونقيم عندكم الصيف كله إذا استطعنا

وكان برودي واقفاً لا يتكلم فقالت له دورا باسمة وأنت يا مستر برودي ألا تقيم مثلنا في تلك البلاد الجميلة

فقال كيف لا ويكون فيها مثلك ومثل السيدة الكريمة

فتبسمت الاثنتان وحنتا رأسيهما له وقال هنري وأنا أعود إلى مصر إذا لم يكن لي مكان معكم

فقالت له امرأة القبطان أنت قبل الك ويا حبذا لو تشرفنا بزيارة والدك أيضاً ونحن النساء لا ننفع شيئاً بدونكم. فشكرها على هذا التجمل ونظر إلى أخته نظر الظافر فضحكت ولم تتكلم وسمعوه حينئذٍ الجنك يدعوهم للغداء فمشوا نحو غرفة المائدة

لما كان هنري ودورا يتعهدان آلات السفينة كان الخواجة لاڤي في مركبته يطوف لمعايدة أصدقائه الأوربيين والسوريين برأس السنة وقد ركب إحدى مركبتيه خلافاً لعادته لأنه يفضل أن يركب مركبة أجرة قائلاً إنه إذا حدث حادث فلا أكون مسئولاً كما لو كنت في مركبتي لكن ابنه ركب مع للمعايدة في هذه النوبة وأبي إلا أن يركبا مركبتهما فجاراه على ذلك واتفق إنه بينما كانت المركبة مارة من شارع المناخ إلى ساحة الأوبرا صدمت رجلاً إيطاليا ماراً في الطريق فوقع على الأرض وداس أحد الجوادين على خاصرته فكسر بعض أضلاعه وبادر الناس من النيو بار وبعضهم من الإيطاليين وعلا الصياح فأنزلوا الخواجة لاڤي وابنه من المركبة وكادوا يمزقونهما لولا مبادرة رجال البوليس إلى إغاثتهما. وسيق الخواجة لاڤي وابنه إلى مخفر البوليس رغماً عن اعتراضه بانه أجنبي. ووصل الخبر إلى زوجة الرجل الإيطالي وأولاده فتسارعوا إلى المخفر وهم يصيحون ويجلبون وحمل الرجل إلى المستشفى وفحصه الأطباء فرأوا إنه كسرت أربع من أضلاعه وأن شظاياها دخلت الرئة وحالته تنذر بالخطر. وطار الخبر إلى أصدقاء الخواجة لاڤي فبادروا إليه وساروا

به إلى دار القنصلية فأعطى الضمان الكافي وقبض على السائق وأودع السجن وعاد الخواجة لاڤي إلى بيته أصفر الوجه غائر العينين وكان الخبر قد وصل إلى زوجته وابنته أن مركبته قتلت رجلاً إيطالياً وأن الإيطاليين تجمهروا عليه وعلى ابنه وقتلوهما فلما رأتاه داخلاً سري عنهما بعض الشيء وحمدتا إله إسرائيل على سلامته وسألتاه عن يوسف فقال أن عزرا أخذه إلى بيته. ولما هدأ روعه قص عليهما ما جرى بالاختصار وقال هذه عاقبة التظاهر الفارغ لو ركبنا مركبة أجرة ما حدث شيء من ذلك أما الآن فلا يعلم إلا الله إلى أين تنتهي حالنا ولا سيما إذا مات الرجل ومن ينجينا من أيدي زوجته وأولاده إذا نجونا من القضاء

فقالت زوجته هي سنة شؤم من أولها ولكن الرجل فقير على ما يظهر فأعطهم ألف جنية أو ألفي جنية أو عشرة آلاف جنية. هو ذا فلان بك صدمت مركبته رجلاً من الوجوه ولم يحكم عليه بسوى عشرة آلاف جنية

فقال نعم ولكن الرجل الغني المطموع فيه يتناتشه الناس من كل جهة والآن لو لم يكن في جيب يوسف عشرة جنيهات ما وصلت إلى هنا سالماً وأظنهم يطمعون بنصف ما نملكه. ثم أسند رأسه إلى ظهر الكرسي وجعل ينفخ وذهبت استير فأتته بكاس ماء فيه قليل من الكنياك لإنعاشه فشر به وقال لها من افتكر في مصيبة غيره هانت عليه مصيبته هل سمعتم شيئاً عن أمين فقالت نعم لا يزال على حاله

فقال والرجل الذي داسته المركبة كهل وله زوجة وأولاد وهم على فظاظتهم لا يستطيع الإنسان إلا أن يشفق عليهم أما الرجل

نفسه فلا محل للشفقة عليه لأنه هو رمى نفسه أمام المركبة كأنه قاصد أن يوقعنا في هذا المشكل

ثم قام وجعل يمشي ذهاباً وإياباً ويداه وراء ظهره وهو يطل من الشباك أحياناً كأنه ينظر إلى شيء مع إنه غير منتبه إلا إلى ما يجول في باله. ثم سار إلى حيث التلفون وطلب مكتب الأفوكاتو أحمد بك واستدعاه إليه ولم يكن إلا عشرون دقيقة حتى حضر وهو من أكبر المحامين وأوسعهم اختباراً وكان موكلاً بكل اشغال الخواجة لاڤي القضائية فهو يكتب له عقود البيع والمشتري والدين والرهن. فلما حضر استقبله الخواجة لاڤي بالترحيب وقص عليه الحادثة كما جرت وقال لا شبهة عندي أن الرجل رمي نفسه أمام المركبة متعمداَ. فقال أحمد بك قد يكون الأمر كذلك لأن هؤلاء الطغام يسهل عليهم كل شيء ولا سيما إذا كانوا من جماعة الفحامين كما يقال عنهم ولكن كيف نستطيع أن نثبت ذلك أما السائق فلابد من معاقبته جنائياً وإلزامنا بالتعويض المدني وسأذهب الآن واطلع على محضر البوليس

ولم يكد يخرج حتى دخل عزرا ومعه يوسف دخل رافعاً رأسه كأنه جاء بغنيمة فسلم على مدام لاڤي وعلى استير وأشار إلى المشقة التي لقيها في تخليص يوسف من أيدي الإيطاليين وقال إنه لو لم يكن يعرف البعض منهم ويستعن بهم على غيرهم ما استطاع ذلك. فشكرته مدام لاڤي على نخوته. وعرض عليهم أن يتوسط لهم في القنصلاتو لأنه يعرف بعض رجالها حتى يحل المشكل بالتي هي أحسن من غير مداعاة ومرافعات فقال له الخواجة لاڤي أفعل ما بدا لك ولكن لا تقطع قبلما نستشير الأفوكاتو به

فقال هذا ليس من رأيي وأخاف من أن الأفوكاتو يزيد العقد ولا يحلها لأنه يلجأ إلى الوسائط القانونية ونحن نريد حلها حبياً

فقال له الخواجة لاقي أسع جهدك وعلى كل حال لابد من التبصر قبل بت الحكم لئلا نقع في ورطة جديدة

*****

الفصل الحادي والعشرون

الاعتداء

قومي يا بهية أتت استير لتأخذك إلى النزهة

بهية- دعيني يا أماه فإن نفسي صغيرة ولا رغبة لي في الخروج من البيت الآن

مدام واصف- يقول الحكيم أن أخاك أحسن جداً ومسألة أبيك عرضية ولم يبق ما يشغل البال والحمد لله وأنت محتاجة إلى الراحة وشم الهواء

بهية- أنت احوج مني فلماذا لا تخرجين

فتنهدت مدام واصف وقالت الأمهات للشقاء والتعب قومي يا بنتي وأذهبي مع استير أما أنا فإن ذهبت فلا يستريح بالي دقيقة وفوق ذلك فأنا أقوى منك كثيراً

بهية- إلا تظنين أن خروجك يفيد أخي لأنه يقول لو لم يكن بال أمي مطمئناً على ما خرجت من البيت وقد مضي عليك الآن أربعون يوماً لم تخرجي فيها. نعم أكثر من أربعين يوماً من قبل رأس السنة بيومين والآن نحن في العاشر من فبراير أما أنا فخرجت مراراً

كيفما كان الحال فأنت أحوج مني إلى الخروج واستنشاق الهواء قومي ولا داعي لتغيير ثيابك البسي برنيطتك فقط

فقالت ذلك وخرجت من غرفت ابنتها إلى غرفة الجلوس حيث كانت استير في انتظارها

أما بهية فكان في يدها كتاب تقرأ فيه وهي مشردة الأفكار فقد قرأت بالأمس ما شغل بالها- قرأت عن نشوب الحرب بين الروس واليابان وكانت قد علمت من دورا أن أخاها ذاهب إلى بلاد اليابان حتى إذا نشبت الحرب بين اليابانيين والروس يمضي إلى ساحة القتال ويعين لجريدة أبيه المكاتبين الأكفاء في كل الجهات التي يمتد القتال إليها فكانت تقرأ الصفحة بعد الصفحة من الكتاب الذي في يدها ولا تعي شيئاً وبقيت كذلك نحو ساعتين إلى أن دخلت أمها ودعتها لتذهب مع استير. وكثيراً ما حاولت جمع أفكارها ولامت نفسها على التفكير في شاب قد يكون نسيها الآن لاسيما وإنه لم يرسل إليهم إلا كتابين واحداً من السويس وواحداً من عدن وانقطعت أخباره عنهم منذ شهر من الزمان وأكثر كتابيه سؤال عن أخيها ووصف سفرهم براً وبحراً. نعم إن دورا كتبت إليها وأكثرت من ذكره ولكن كان ذكره يرد معها على سبيل العرض كأن تقول لي هنري كذا أو دعاني هنري أو دعوت هنري أو قلت له أو قال لي ولم تشر إلى ما بينه وبينها إلا مرة واحدة إذ قالت «إننا كلينا نود الرجوع إلى مصر بأقرب ما يمكن ولاسيما هنري ولابد من إنك تعلمين السبب» ولم ترد على ذلك. ولما قرأت هذه العبارة قالت في نفسها لابد من أن يكون قد أخبر أخته بما دار بيننا من الحديث ترى ماذا جرى لهما بعد ذلك فإن البحر أمام جزيرة سقطري كثير المخاطر وقد سمي المضيق الذي هناك ببوغاز باب المندب لأن الأحياء يندبون الغرق فيه على ما قرأت في كتب الجغرافية وفي العام الماضي غرقت سفينة كبيرة هناك ورياح الموسم تهب في الأوقيانوس الهندي فتعبث بالسفن إن لم تغرقها وجاءت الآن هذه الحرب ولابد من ذهابه إليها لأن الإنكليز لا يحجمون عن المهالك في سبيل

المجد. مَن من أبناء المصريين يذهب إلى الحرب عفواً من تلقاء نفسه أو من يستطيع أن يدفع البدل العسكري ولا يدفعه. بالأمس رأيت رجال القرعة مارين في الشارع وأمهاتهم وراءهم بالنوح والبكاء كأنهن في مأتم ولكن من يدري ما يصيبه هناك وكيف يكون حال أخته وهي في بلاد الغربة وحال أمه وهي بعيدة عنه

ولم يكد هذا الخاطر يخطر على بالها حتى دمعت عيناها وشعرت كأن قلبها ضاق أو كأن أحداً قبض عليه بيديه وعصره فعسر عليها التنفس وبينما هي على هذه الحال قرعت أمها الباب ودخلت وأخبرتها بقدوم استير لتخرج بها إلى شم الهواء على ما تقدم

وأطلعت استير في المساء السابق على تلغرافات النهار ورأت أباها مشغول البال بأخبار الحرب وهبوط سندات الدين الروسي فقادها ائتلاف الأفكار إلى دورا وأخيها وبهية وكانت قد لحظت أن هنري يحب بهية أو يميل إليها وفاتحت بهية في هذا الموضوع أكثر من مرة تلميحاً لا تصريحاً فلم تعلم منها شيئاً لاسيما وأن بال بهية كان مشغولاً بأخيها وأبيها فلم تشأ استير أن تتطرف في السؤال وتستقصى في البحث. ودعتها مراراً للخروج معها إلى النزهة وكانتا تتكلمان في المواضيع القريبة كوقوع أخيها ومرض أبيها ودوس مركبة بيت الخواجة لاڤي للرجل الإيطالي وإقامة القضية عليهم في المختلط ومطالبتهم بعشرين ألف جنية وقرب اقتران حليمة بنت راغب باشا وما خاطت من الملابس الفاخرة وصاغت من الحلي الثمينة وقد ساعدتها استير في اختيار بعضها واستغربت الاثنتان كيف أن واحدة لا يباح لها الخروج بين الناس تلبس على آخر زي من أزياء باريس وتكلفها كل بدلة من ستين جنيهاً إلى ثلاثمئة جنية وقد اشترت تاجاً من الماس وتاجاً من الزمرد وطقمين كاملين الواحد

من الماس والثاني من الماس والزمرد بلغ ثمنهما أكثر من ثلاثة آلاف جنية وأهدى إليها عمها طقماً من الماس والياقوت الشرقي الحر واهدت إليها امرأة عمها دبوساً فيه الماسة الصفراء المشهورة التي من جواهر البرنسس جميلة هانم ولولا صفرة فيها لبلغ ثمنها ألوف الجنيهات أما اللؤلؤ فلا حساب له على غلاء ثمنه فإن المناشف ووجوه المخاد مطرزة به كأنه الخرز الأبيض كل ذلك وخطيبها لا يملك شيئاً إلا راتبه وهو طفيف لا يقوم بأجور الخدم لكن أبا حليمة سيعطيها ألفاً وخمس مئة فدان من أجود الأطيان ريعها السنوي نحو تسعة الآف جنية وينتظرا أن يرتقي خطيبها يوماً ما فيصير من نظار الحكومة لأنه مشهور بالذكاء وحسن الإدارة والمداراة وقد كان متزوجاً امرأة فقيرة مثلة لما كان موظفاً في وظيفة صغيرة فطلقها الآن لكي يقترن بابنة راغب باشا. وكانت استير وبهية تتحدثان بهذه المواضيع حينما تزور استير بهية أو تخرجان للنزهة وتستغربان كيف تقبل حليمة أن تقترن برجل طلق زوجته لكي يتزوج بها وقالت بهية إنها تعرفه قد زارهم مرة وهو شاب لا تظن أن عمره أكثر من ثلاثين سنة أبيض الوجه جميل المنظر ثم قالت ولعل حليمة لا تعلم إنه كان متزوجاً وطلق زوجته. فقالت استير كلا بل هي تعلم ذلك اعترضت في أول الأمر على التزوج به لكن زارتها امرأة سمسارة وجعلت تتردد عليها يوماً بعد يوم إلى أن اقنعتها إنه طلق زوجته حباً بها

بهية- وهل صدقت حليمة ذلك وهل رأت هذا الشاب قبلما رضيت الاقتران به

استير- يظهر إنها صدقت أو تظاهرت بالتصديق وعلى كل حال لا يتعذر عليها أن تراه لأنه لابد وأن يكون قد زارهم مراراً ولدار

الحريم جناح فوق السلاملك فإذا جلست وراء شبابيكه رأت كل من في الحديقة أمام دار السلاملك واظنها جلست هناك مراراً وإذا كان كما وصفت من صغر السن وجمال المنظر وانفتاح أبواب الترقي أمامه فلا تعود تلتفت إلى تزوجه بامرأة أخرى قبلها

بهية – أنا لا اعترض على تزوجه بامرأة أخرى قبلها لأنه لو ماتت امرأته الأولى وتزوج حليمة وهو أرمل ما كان عندي أقل اعتراض على ذلك ولكن أن يطلق زوجته لأنها فقيرة ويتزوج بأخرى لأنها غنية هذا شيء لا يطاق ومع ذلك فقد يكون له عذر مقبول

استير- أظن إنني سمعت ما يشبه ذلك سمعت يوسف يقول مرة أن امرأته الأولى سليطة جاهلة غير متهذبة مررت حياته والظاهر أن الشبان تحدثوا في أمره كما نتحدث نحن وهذا يدل على أن الناس أخذوا ينتبهون لهذه الأمور ويرون اللائق منها وغير اللائق

فقالت بهية ولكنني سمعت أن ابن عمها طلبها فلماذا لم تقبله

فقالت استير نعم طلبها ولكنه ولد خليع سكير بذر أموال أبيه وباع قصره في شبرا وخسر ثمنه بالقمار في ليلة واحدة ويقول أبي إنه بذر أكثر من كل أولاد الأغنياء فإن ثروة أبيه كانت تقدر بمليون ونصف فلم يبق منها غير ما هو موقوف وقفاً لا يستطيع بيعه وهو نحو ألف فدان وترينه يتهدد أمه من يوم إلى آخر إنه يقتل نفسه أو يقتلها إن لم تعطه ما يريد وقد رافق واحدة من بنات التياترو في الصيف الماضي وذهب معها إلى باريس فتركته هناك بعد أن سلبت كل ما معه ويقول الآن أن لابد له من أخذ حليمة وإلا قتلها وقتل زوجها إذا تزوجت أحداً غيره أما حليمة فتضحك عليه وتقول إنه مجنون. وقد أتى إلى أبي يطلب وساطته فنصحه أبي أن يحسن سيرته

أولاً ويضع عقله في رأسه ولكن هيهات. ويقول أبي أن هذا مصير أكثر أولاد الأغنياء أن لم يربوا كأنهم فقراء حتى يصيروا يعرفون قيمة المال وأن الذي يتعلق بالقمار منهم لا يرجى إصلاحه أبداً ولابد له من أن يبدد ثروته مهما كانت ويتلف صحته من طول السهر. ولولا طريقة الوقف لما بقي لأولاد الأغنياء شيء يعيشون به والوقف أيضاً قلما يفيد المسرف لأنه يستدين على الريع بالربا الفاحش ويتلف أملاكه ولا يتولى الاعتناء بها بل يتركها لرحمة المستأجرين ولكن الوقف يحفظ العين على كل حال إلى أن يشب لصاحبه ولد حسن التصرف فيعتني به

وكثيراً ما ذكرنا دورا وأخاها ولكن على سبيل العرض لأن بهية كانت تتحاشى هذا الموضوع فإذا عرضت استير به استطردت بهية إلى حديث آخر حالاً قبلما يتسع مجال الكلام فيه كأنها كانت تظن الناس كلهم رقباء عليها يعلمون ما يحيك في فؤادها

ودخلت استير غرفة بهية حينئذٍ وتعانقتا وساعدتها على وضع الدبابيس في برنيطتها وأتت أمها تقول لا تخرجي من غير بلارين الفرو لأن الهواء بارد. ودخلت بهية غرفة أخيها فقبلت وجنتيه فنظر إليها باسماً وقال إلى أين إلى النزهة أحسنت لقد مللت من هذه الحياة مع من أنت ذاهبة

فقالت مع استير ألا تريد أن تقوم وتخرج معنا

فشخص إليها وقال قولي لاستير أن مرضى لا يعدي ولكن الظاهر إنني لا أخطر ببالها

بهية- انت غلطان فإنها تأتي كل يوم مرة أو مرتين تسأل عنك ولكن الطبيب لم يسمح بأن تدخل وتراك لا هي ولا غيرها

وما هو اعتراض الطبيب أو أن الأطباء يشددون في الأوامر والنواهي لكي تزيد أهميتهم. صار لي أربعون يوماً مرمياً هنا ماذا فعلوا لي. الطبيعة طببت نفسها

بهية- أسكت أسكت الآن ثم انحنت ثانية وقبلت وجنتيه وخرجت والتقت بأمها أمام الباب فاسرت في أذنها قائلة طلب أن يرى استير فما قولك. فقالت أمها وماذا نقول للحكيم

ووقفت الاثنتان صامتتين ثم قالت بهية إني أذهب الآن مع استير وإذا أتى الطبيب في غيابنا فاسأليه عن دخول استير فإذا سمح بذلك تدخل وتراه بعد رجوعنا. وخرج الاثنتان للنزهة في مركبة بين الخواجة لاڤي فسارت بهما في شارع الظاهر فالفجالة ومرت من أمام شبرد فالكنتيننتال ودارت من أمام البنك الأهلي وساڤوي وسارت فوق الكبري إلى الجزيرة ومنها في سكة الأهرام- طريق النزهة العادي الذي يسير فيه أكثر الذين يخرجون إلى النزهة من سكان القاهرة. وكانت أروقة اللوكندات غاصة بالسياح رجالاً ونساء وسكة الجيزة غاصة بالمركبات تسير فيها الهوينا ولاسيما في الجزيرة الصغيرة وركابها ينظرون بعضهم إلى بعض ويحيون بعضهم بعضاً بالتبسم وحنو الرأس كأنه حظر عليهم الكلام والنسيم يبعث بريش البرانيط والهوانم يطللن من شبابيك المركبات المقفلة لكي لا تفوتهن رؤية شيء. وكانت حليمة وأمها تتنزهان في سكة الهرم فرأتا استير وبهية ووقفت المركبتان متحاذيتين وجعلتا تسألان بهية عن أخيها وأبيها وتطلبان منها أن تحضر العرس وعاتبتها حليمة لأنها لم تأت لترى جهازها وحلاها وبينما هي تتكلم ملتفتة إلى بهية واستير أقبل شاب في مركبة من نوع الدوكار آتياً من جهة الهرم وكأنه عرف مركبة حليمة وأمها من خيلها فأوقف مركبته إلى جانبها وأخرج مسدساً من جيبه

وأطلق منه رصاصتين على حليمة وأطلق لجواده العنان فسارت به المركبة كالبرق ووقعت حليمة في المركبة وأغمى على أمها وصاحت بهية واستير وعلا صياح من في المركبات الأخرى وحمحمت الخيل واضطربت وأدار البعض مركباتهم وحاولوا اللحاق بالجاني لكن مر قطار الصعيد حينئذٍ وأقفل باب سكة الحديد وعلت الضوضاء وكان في أحد المركبات طبيب فنزل إلى مركبة حليمة وحاول فتحها فنزل الآغا من جانب السائق ومنعه ولكن كثر الناس وامسكوا الآغا ومنعوه من التعرض للطبيب وحملوا حليمة ونقلوها إلى مركبته وهي تشير إلى مكان الرصاص في ذراعها اليسرى وخاصرتها ولم يكن هناك بيت قريب ينقلونها إليه ولا أستحسن الطبيب أن ينقلوها على هذه الصورة إلى بيت أبيها ونزلت بهية فجلست معها في المركبة وجلست استير مع أمها ورأى الطبيب أن ينقلها إلى بيت بجانب المدرسة الزراعية إلى أن يصل الخبر إلى أبيها

وتبرع اثنان في اتوموبيل أن يمضيا سريعاً ويخبرا أبيها ويأتياها بالجراح. وانتشر الخبر في العاصمة كلها أن نجم الدين بك أطلق الرصاص على ابنة عمه لأنها أبت الاقتران به فقال البعض إنه مصاب بدخل في عقله وقال غيرهم إنه سكران وقال آخرون بل إنه فعل ذلك عن نظرٍ وتروٍ وقد صمم على قتلها لأنها أبت الاقتران به وهددها بذلك مراراً ولم يعد لأهل العاصمة خاصتهم وعامتهم غير هذا الحديث

*****

الفصل الثاني والعشرون

شؤون مختلفة

نهض الخواجة لاڤي صباح اليوم التالي والتف بفروة وجلس يفكر في أحوال الدهر وما مر به من العبر منذ أربعين يوماً إلى الآن. اليابان شهرت الحرب على روسيا ودمرت اسطولها ودخلت منشوريا. الأوراق الروسية هبطت هبوطاً فاحشاً وتبعتها أكثر الأوراق المالية فافلس كثيرون من الماليين. القطن ارتفع ثم هبط فخسر بهبوطه كثيرون من أصدقائه ولاسيما أمين بن واصف بك فاضطر أبوه أن يوفي عنه نحو تسعين ألف جنية وأصيب بمرض من جرا. ذلك. وأمين نفسه سقط سقطة كادت تقضي عليه ولا يزال طريح الفراش وسلامته غير مكفولة. وهو داست مركبته رجلاً فأماتته وأقيمت عليه قضية مدنية طولب فيها بعشرين ألف جنية والغالب إنه يلتزم أن يدفع هذا المبلغ أو ما يقاربه عدا اتعاب المحاماة. والآن أصيب بيت صديقه راغب باشا بمصيبة من أكبر المصائب فإن الرصاص خرق خاصرة حليمة من يد شاب خليع مجنون بدد ثروة أبيه

راجع هذا التاريخ وهو يقول سنة نحس من أولها نعم إنني لم أخسر شيئاَ حتى الآن بل ربحت وإذا دفعت عشرين ألف جنية كما تطلب أرملة ذلك الرجل لا يقل ربحي. وقد تم لنا مشتري المئة ألف فدان من الحكومة بالثمن الرسمي والربح منها وافر جداً لأننا إذا اتفقنا على الفدان خمسة عشر جنيهاً لإروائه وتصليحه كما يقرر

المهندسون يبقى الربح كثيراً لأن الفدان هناك يصير يساوي ستين أو سبعين جنيهاً والصعوبة الكبرى في جلب العمال ولابد من إغرائهم ببناء العزب لهم ودفع الأجور العالية ورأيي أن لا نغريهم بدفع الأجور العالية لئلا يعتادوا الكسل والطمع ولكن نعطي كل عائلة منهم فداناً أو فدانين فيصير لهم ملك في الأرض أي يصير لهم جذور فيها وترسخ أقدامهم هناك فنصير بمأمن من تركهم لنا والفلاح يخدم عشرة أفدنة بالراحة ومع آلات يخدم عشرين فإذا كان له فدان أو فدانان يبقى يخدم لما عشرة أفدنة أو عشرين فداناً أي إذا وهبناهم عشر الأطيان أحيينا بهم التسعة الأعشار الباقية وإلا فلا فائدة من الزراعة. وهنأ نفسه لأنه أبقى له أربعين في المئة من أسهم الشركة التي ألفها لهذه الأطيان وخمسين في المئة من أسهم التأسيس. ثم عاد فقال ولكن هل زادت راحتي بزيادة ثروتي كلا بل زدت تعباً وهماً. الناس يتنعمون الآن في فرشهم في هذا الصباح البارد وأنا جالس هنا منذ ساعة وأفكاري تنتقل من موضوع إلى موضوع. شغل شغل من الصباح إلى المساء وأفكار وهموم في النهار والليل. ولم أبع شيئاً من القنصليد الإنكليزي الذي عندي فإذا هبط ثمنه كما هبط وقت الحرب الترنسفال تكون الخسارة كبيرة جداً ويظهر من التلغرافات التي وردت أمس إنه يخشى من أن إنكلترا وفرنسا تشتبكان في هذه الحرب فإذا وقع ذلك خربنا ولكن لا يحتمل أن يقع ما دامت أزمة السياسة في يدنا. ألم يقل لي لورد بنفيلد لما كان هنا منذ سنتين إنه لم يعد في الإمكان وقوع الحرب في أوربا ولاسيما بين الدول الكبيرة التي لنا فيها مصالح مالية كبيرة وقوله حجة فلا خوف من ذلك ومع هذا فليس من الحكمة أن أبقى عندي الآن هذا المقدار من القنصليد لأن الأخبار الحاضرة لابد من أن تنزله فاسترد ما أبيعه الآن حينما

يهبط ثمنه وأكتفي بحصر شغلي في مصر فإن الأرباح فيها ستزيد بإزدياد العمران وتكاثر السكان ولابد من توجيه العناية إلى ضواحي العاصمة ومشتري كل ما يمكننا مشتراه من الأطيان والرمال لأنها ستصير كلها أراضي بناء ما أوسع أبواب العمل. ترى هل تخطر هذه الأفكار ببال يوسف. لا يزال نائماً حتى الآن ولا أرى منه أقل همة أو طمع فمن أين ورث هذا الخلق يا ترى لا مني ولا من أمه لكنه على كل حال احرص من ابن واصف بك ولو كان يميل إلى التبذير والأبهة أكثر منه. لعن الله الأبهة فسنخسر بسببها عشرين ألف جنية. ليس أحسن من البساطة في المعيشة. ولكن لمن نجمع المال إن لم نصرفه نحن ولا صرفه أولادنا. آه هذه مسألة صعبة وعلى كل حال يجب أن لا نجعل مالنا سبباً لزيادة تعبنا فإذا ترك الحال لأبني يوقعنا كل يوم في مشكل جديد لا نخلص منه إلا بشق الأنفس

بينما كانت هذه الأفكار تتزاحم في باله أتت استير وقالت له إن كنت عازماً على الذهاب إلى بيت راغب باشا فخذني معك فقال لها حباً وكرامة انزل إلى المكتب أولاً وأفتح البوسطة ثم أعود وأذهب معك أو تعالى أنت إلي إلى هناك فنذهب معاً. فدنت منه وقدمت له وجهها فباسها وقال إذاً انتظرك في المكتب. رأيت الطبيب البارحة وأنا عائد في المساء فقال لي إن الرصاصة التي دخلت ساعد حليمة خرجت منه ولا ضرر منها ولكن الرصاصة الثانية التي دخلت خاصرتها لم تزل فيها ولم يهتدوا إليها حتى الآن. ما أكبر هذه المصيبة على راغب باشا

فقالت أعلى راغب باشا فقط وماذا تقول عن حليمة وأمها صدقني يا أبي إني لم أنم طول هذا الليل ألم يمسكوا ذلك الكلب يجب أن يمسكوه ويشنقوه. آه لو كنت رجلاً لكنت أقتله بيدي

ولكن الرجال لا نخوة فيهم كيف تركوه يفلت من أيديهم وكل واحد ينظر إلى الآخر

فقال لها هدى روعك من قال إنهم تركوه أمسكوه أمس ووضعوه في السجن حالاً

فقالت يجب أن يشنقوه. وكيف كانت حليمة في المساء هل كانت متألمة جداً

فقال كلا ولكن الصدمة كانت قوية عليها واليوم يجتمع الأطباء والجراحون ليبحثوا عن الرصاصة الثانية بأشعة رنتجن. وقد قال لي الجراح إنه يرجو لها الشفاء العاجل لأنهم صاروا يمنعون الفساد الذي كان يخشى منه على الجروح وود أن يأخذها إلى المستشفى ويعالجها فيه لأن وسائل النظافة هناك أتم جداً مما يمكن أن تكون في البيوت ولكن لم يرد أحد أن يسمع منه هذا الكلام

فوقفت استير هنيهة كأنها تفكر في هذا الأمر ثم سمعت أمها تناديها فخرجت ولم تقل شيئاً ولما خرجت جعل أبوها يفتكر فيها وفي ما يظهره عزرا من الميل إليها والتودد لهم وقال ترى هل يفعل فعل نجم الدين لو صرفناه فارغاً. وأجاب نفسه بنفسه قائلاً من ابن لعزرا الدم الشركسي كلا لا يفعل ذلك ولكنه يقلقني ويقلق يوسف وما أدراني لأنه لا يتعقب يوسف بعد وفاتي حتى يخرب بيتنا لأنه ولد خبيث ماهر في سلب الناس. كيف احتال على ابن واصف بك حتى سلب من أبيه تسعين ألف جنية ولو لم تتدارك الأمر لتضاعفت الخسارة فلابد من كف شره عن أبني ولكن هل أضحي ابنتي لكي أنقذ ابني كلا فلا محل لعزرا في بيتنا على كل حال ولكن لابد من أخذ الأمر بالحكمة وهو مغرم بالكسب فلا بأس بمساعدته

في ذلك حتى نكفي شره

وبينما كان الخواجة لاڤي يفكر في عزرا كان عزرا يفكر فيه ويقول لقد نجا أمين من يدنا بعد أن كدنا نسلخ جلده والحق كله على الخواجة لاڤي ولكنني حملت الخواجة لاڤي جميلاً كبيراً ومرادي أن أبين له احتياجه إلي واضطراره إلى مساعدتي في المشكل الذي وقع فيه لأنه على غناه المفرط لا يدفع عشر ما طلب منه إلا بشق النفس فهو كريم من مال غيره أو من المال قبلما يصير له ولكن متى صار في يده فيعز عليه أن يفرط بغرش واحد منه. ثم مضى وقابل المحامي وسأله عن رأيه في المسألة وتظاهر بالغيرة الشديدة على الخواجة لاڤي وكان المحامي قد رآه في بيت لاڤي وحسب إنه من الأصدقاء إن لم يكن من الأنسباء فذاكره في هذا الموضوع ملياً وقال له عندي أدلة قوية على أن الرجل أغرى إغراء لكي يلقي نفسه أمام المركبة ولا أرى فرقاً بين من يغري رجلاً بقتل نفسه ومن يغريه بقتل غيره

فامتقع وجه عزرا لما سمع هذا الكلام ولم يستطع إخفاء ما حل به ولحظ المحامي ذلك فتنبهت في نفسه الظنون وكتم بقية ما علمه بالبحث والاستقصاء وتظاهر بانه لم يتنبه لشيء وظل يكلم عزرا كأنه من أصدقاء الخواجة لاڤي المخلصين. ولم يكد عزرا يخرج من مكتبه حتى استدعى الإيطاليين اللذين شهدا أمامه أن القتيل أخبرهما عن رجل اغراه بذلك واستكتبهما كل ما يعلمانه ووضع ذلك بين أوراق القضية ومضي وأخبر الخواجة لاڤي بكل ما عمله من هذا القبيل فلم يصدقه في أول الأمر لأنه لم ير مسوغاً له ووقف صامتاً ثم طلب أن يرى الشاهدين فاحضرهما المحامي إليه فسألهما عما إذا كان عزرا أعطى الرجل شيئاً من النقود فقالا نعم اعطاه أولاً نصف ريال أحساناً ثم أعطاه خمسة جنيهات وقد أرانا أربعة منها

ولما خرجا قال الخواجة لاڤي للمحامي كيف العمل الآن ولم ندخل هذا الأمر في التحقيق

فقال إني أدخله في المذكرة والمرافعة فتأمر المحكمة باعادة التحقيق ورأيي يا خواجة لاڤي إننا إذا أثبتنا أن الخواجة عزرا أغرى هذا الرجل إغراء ثبت من ذلك أن الرجل ألقى نفسه أمام المركبة تعمداً فنخلص من المسئولية

فقال الخواجة لاڤي وماذا يكون عقاب عزرا حينئذٍ

فقال المحامي لا أعلم ولكن لا أرى فرقاً بين من يغري واحداً بقتل غيره ومن يغريه بقتل نفسه

فجعل الخواجة لاڤي يتبصر في ما يصير إليه حال عزرا حينئذٍ وكاد يطلب إخراجه من هذه القضية ولكن عاد ففكر في خبثه الذي حمله على فعل هذا المنكر فتصلب وقال مهما فعلنا معه فهو يستحق لأن حاول ألقاءنا في المهالك. لقد أصابت استير في نفورها منه. ما أشد شعور النساء فإنهن يكدن يدركن الغيب

في ذلك اليوم عينه ورد تلغراف على بيت واصف بك من يوكاها ما في اليابان يقال فيه «وصلنا بالسلامة. طمنونا إلى طوكيو. هنري»

وتلا التلغراف كل من في البيت حتى أمين وبهية وأرسلوه إلى بيت الخواجة لاڤي وسرت بهية به أولاً ولكن لم يدم سرورها إلا دقائق لأنها قالت في نفسها كان وصوله إلى بلاد اليابان بعد نشوب الحرب فلابد له الآن من الذهاب إليها ومن يعلم ماذا يصيبه وإن كتب إلينا الآن لا يصل كتابه في أقل من أربعين يوماً فلا أعلم شيئاً من أمره قبل أواخر مارس. وأتت أم برسوم حينئذٍ تعود أباها وأخاها وأظهرت لها إنها تحبها حباً لا مزيد ليه فزاد نفورها منها وحاولت

الهرب من وجهها وقالت إن صح ما يقال عن الجواذب بين الناس فما معنى ما أجده في نفسي من النفور من هذه المرأة وأبنها وهما يودانني هذه المودة

وألتقى عبد الله خادم بيت واصف بك بزين الدار جارية الخواجة عزرا في سوق الخضر ودار بينهما الحديث التالي

زين الدار- شفت شفت يا عبد الله كيف انقلبت الدنيا في هذين اليومين

عبد الله- نعمل إيه يا أمي ولكن نشكر الله على كل حال سيدي أحسن وأمين باي صار يقعد في سرير وبدنا ربنا يريح البال لسا كتاب الشيخ بيومي معي وكنت عايز قول لستي مبارح ولكن جت مسألة بيت راغب باشا فطبقت وغلقت

زين الدار- أهو كل واحد تعبو على قدو وسيدي عزرا مشغول اليوم عايز يخلص الخواجة لاڤي من دوخة الرأس الواقع فيها كرمال عينين ستي استير

عبد الله- ستي استير بتزورنا كل يوم والبارح طلب أمين باي أن تخش لأوضته وهيه عايزه

زين الدار- لا دول يهود ما بتجوزوش بالقبط

عبد الله- مين عارف يمكن تكون كتبتلو أو كتبلا. في مثل الشيخ بيومي كثير

زين الدار- الله كريم أمين باي كويس وسيدي عزرا أمير والمكتوب يصير

الفصل الثالث والعشرون

السفيران

قرأت يا ادورد قصة غريبة جداً في مجلة وندسور فإن كانت صحيحة فتكون الحروب كلها لأجل المضاربات المالية

هذا ما قالته لادي برون وهي داخلة للغداء مع زوجها السر ادورد برون صاحب لندن نيوز

فقال وما هي هذه القصة ولا أظن أن مجلة مثل مجلة وندسور تطلع على أسرار رجال الحكومة وأن أطلعت عليها فلا تفشيها

ثم دخلا غرفة المائدة وجلسا للطعام وحدهما لأن ولديهما الوحيدين هنري ودورا ذهبا إلى بلاد اليابان ولم يكن عندهما ضيوف ذلك اليوم وهذا نادر لاسيما وإن بيوت كبراء لندن لا تخلو من الضيوف في فصل الشتاء. وأخذت لادي برون تقص على زوجها القصة التي قرأتها ذلك اليوم قالت

ذهب ستورتن إلى باريس برسائل من وزارة الخارجية وأقفل بابا المركبة التي دخلها من مركبات سكة الحديد وحجزت له بكتابة صريحة على البابين. ولما دخل نظر يمنة ويسرة وتطلع تحت المقعدين كأنه يخشى أن يكون أحد مختبئاً له هناك ثم جلس وفتح جريدة من جرائد المساء وإذا في رأسها عنوان بحروف سوداء كبيرة يقال فيه

الصين واليابان

اليابان التجأت إلى انكلترا تطالبها بعهودها

البارون نجاساكي في وزارة الخارجية

اجتمع مجلس النظار الآن

وكان هذا الخبر قد شاع في طول البلاد وعرضها ومآله أن الصين عاونت الروس فتلتزم إنكلترا إن تعاون اليابان ويترتب على فرنسا حينئذٍ إن تعاون روسيا فتنشب حرب عمومية بين اليابان وإنكلترا من جهة وروسيا وفرنسا والصين من الجهة الأخرى. ولم تكد الجرائد الإنكليزية تذيع هذا الخبر حتى أذاعت خبراً آخر وارداً من فرنسا مفاده إنه صدرت الأوامر للأسطول الفرنسوي ليقوم من مرافئه وصارت الحرب بين فرنسا وإنكلترا على قاب قوسين أو أدني

وصفر القطار وتحفز للقيام وإذا بامرأة طويلة القامة شقراء الشعر لابسة ثياب السهرة وهي تعدو على رصيف المحطة إلى أن دنت من المركبة التي فيها ستورتن ورآها مقبلة نحوه فنهض حالاً ودنا من الكوة ومحفظته في يده وقال لها مالك يا استير. وكان القطار قد أخذ يسرع في السير فقالت وهي تمشي معه مسرعة أن ستنمور في باريس وقد رأيت أن الخادمة أرسلت إليه تلغرافاً تخبره بسفرك فكن على حذر منه

وكانت سرعة القطار قد اشتدت فلم تعد تستطيع مجاراته وقد انقطع نفسها من سرعة الجري فأشار إليها بمنديله مودعاً ومؤكداً إنه لا يغفل طرفة عين ثم أقفل زجاج الكوة وجلس وهو يخاطب نفسه ويقول رشا الخادمة حاسباً إنني أقع في شراكه مرة أخرى هل نسيت ما أصابني منه في العام الماضي

وستورتن ليس من الرجال الذي ينفعلون سريعاً ولكن المهمة التي كان ذاهباً فيها تفوق كل مهمة غيرها خطارة وأقل خطأ أو إهمال أو تأخر يوقد نار الحرب في المسكونة كلها فلما فكر في ذلك ارتجفت مفاصله إلا إنه كان واثقاً بقوة ذاكرته فإن الأوراق التي كانت معه سرية مكتوبة بالأرقام ومفتاحها في ذهنه ومفادها في ذهنه أيضاً فإذا أضاع الأوراق أو نسي المفتاح فلا يمكن أن ينسى مفاد الرسالة لاسيما وإنها في بضع كلمات صريحة المعنى فلا خطر إلا إذا حدث ما يؤخره عن إيصال الرسالة في الوقت المعين. فلما فكر في ذلك اطمأن باله نوعاً لكنه لم يهمل الحرس والحذر فبقيت يده على المحفظة في جانبه ويده الأخرى على مسدس في جيبه مع أن القطار كان أسرع من الطير. ولما بلغ دوڤر نزل وسار إلى الباخرة وسار معه رجلان واحد مشى أمامه وواحد مشى وراءه وكان يعلم من هما وما هو الغرض من مشيهما معه. ولما دخل الباخرة سار إلى الغرفة المعدة له وأقفل الباب وأحضر الرجلان كرسيين وجلسا عند بابها وهما من أمهر رجال البوليس السري عند الإنكليز. وأقام في غرفته لا طعام ولا شراب ولا هم له إلا النظر إلى المحفظة التي معه ولما بلغ كاله ودخل مركبة القطار دخلها الرجلان وجلسا أمامه فلم يكلمهما بل تجاهل وجودهما معه ووضع المحفظة على ركبتيه وغطاها بحرام كبير إلى أن وصل إلى باريس فنزلا معه واستأجرا مركبة أجلساه فيها وسارا به إلى السفارة الإنكليزية وكانت تباشير الصباح قد لاحت من الأفق ولكن الشوارع لم تكن خالية من المارة لأن أخبار النهار كانت قد اقلقت أفكار الناس فطار النوم من عيون كثيرين وباتوا في القهاوي يترقبون التلغرافات ساعة بعد ساعة والرأي الشائع إنه لابد لإنكلترا أن تقوم بعهدها مع اليابان فتنشب حرب عمومية

ورأى ستورتن القهاوي لا تزال غاصة بالناس فعرف سبب قلقهم وارقهم وضحك في نفسه وهو يقول لو علموا ما أعلم لقاموا إلى بيوتهم واستراحوا في فرشهم. ولما بلغت المركبة باب السفارة نزل منها ورآه رفيقاه يدخل الباب فرفعا برنيطتيهما له قليلاً كأنهما يقولان لقد أتممنا مهمتنا فأدخل بسلام ثم سارا في طريقهما

ولما دخل سأل البواب قائلاً كيف السر تشارلس الأن فأجابه إنه يشكو صداعاً شديداً وقد استدعاه المسيو كاميليون نصف الميل فبقى عنده ولم يعد إلا منذ ربع ساعة وهو الآن في مكتبة وقد أمرنا أن ندخلك إليه حالما تصل

فلم يتوقف ستورتن مع ما كان فيه من التعب بل سار في الدار إلى أن وصل إلى المكتبة فدخلها وكان النور فيها ضعيفاً والسفير جالساً أمام مكتبه فسأل ستورتن عن صحته ودنا منه ووضع المحفظة على المكتب والمفتاح في يده وقال «أحسن قليلاً ولكن لم يزل هذا الصداع الملعون متسلطاً على وقد أضاع كاميليون صوابه وليس في الوزارة رجل يمكن الاعتماد وعليه فهات أخبرني على ماذا قر القرار»

فقال ستورتن سلم سلم وسلام وستنقشع هذه الغيوم في يومين. وإنك لتعجب كيف حللنا هذا المشكل

السفير- دق الجرس ليأتونا بمركبة لأن المسيو كاميليون في انتظارنا ولو كان رأسي يكاد ينشق

ولحظ ستورتن أن صوت السفير كان متغيراً وحركاته كلها تدل على إنه في شدة الألم فقال له لا استطيع أن أحل الأرقام وأكتبها في أقل من ساعة ولكن إن أردت أن تذهب حالاً فإني أخبرك بمفاد

الرسالة فأذهب به ثم أحل الرسالة وأكتبها لك فتكون حاضرة الساعة الثامنة أو قبلها

السفير- أحسنت قل لي ما هو مفاد الرسالة

ستورتن- أخبر المسيو كاميليون إن إنكلترا لا تعترف بالصين دولة من الدول ولذلك لا تحسب نفسها مضطرة إن تعاون اليابان إذا عاونت الصين روسيا فنحن لا نرسل بارجة من بوارجنا إلى الشرق الأقصى ولا نفعل أقل فعل يختل به توازن القوات الحاضر

السفير- سيتلقى المسيو كاميليون هذه البشارة بما لا مزيد عليه من السرور فدق الجرس لكي يحضروا لي مركبة حتى أذهب وأبشره بها

فقام ستورتن ليدق الجرس الكهربائي وفتح السفير شباكاً بجانبه وتطلع إلى الشارع الذي تحته. ووضع ستورتن يده على زر الجرس لكي يدقه ولكنه لم يفعل وأغلق السفير الشباك والتفت إليه فرآه واقفاً وبيده مسدس وقد صوبه إلى رأسه. فقال له أمجنون أنت

فقال ستورتن قد أكون وأن خطوت خطوة واحدة إلى الأمام أو إلى الوراء فإني أطير دماغك

فوقف السفير لا يبدي حراكاً. ومد ستورتن يده إلى مفاتيح النور الكهربائي وأدارها فأنارت الغرفة كلها بنور ساطع ثم دنا من السفير ورجع مذعوراً مدهوشاً وهو يقول قل لي ماذا كان مفتاح المراسلات السرية في الشهر الماضي

فهز السفير كتفيه وقال الظاهر إنك أصبت بخلل في عقلك فأعرف من أنا وكلمني بالاحترام الواجب

فقال ستورتن أخبرني عن مفتاح الشهر الماضي أخبرني حالاً

فضحك السفير وقال أتظن إننا في مجلس استجواب وتحقيق تنح حتى أخرج

فقال ستورتن إذا مشيت خطوة واحدة أطرت دماغك إيها الخداع قل لي من أنت فإنك لست السفير ولو كنت تشبهه وقل لي أين السفير ولا تحاول النجاة من يدي

فقال الرجل لماذا أحاول النجاة ألم تعلم حتى الآن إني ستنمور عم زوجتك أما السفير فإنه عند المسيو كاميليون على ما أظن

فقال ستورتن وأنت ما هو شأنك هنا

فقال لا شأن لي الآن فضعني أينما تشاء ولكن أرفع هذا المسدس الملعون من أمام رأسي

فمشى ستورتن إلى الباب وأقفله ثم جلس وقال لعم زوجته المتزبي بزي السفير إن لم يكن لك شأن هنا فلماذا هذا التخفي وهذه الحيلة الشيطانية حتى عرفت الخبر مني قبل كل واحد

فقال ستنمور لقد كنت أظن إنه يأتي بالحرب فيكون لي من وائه مصلحة كبيرة أما الآن وقد جاء بالسلم فلا فائدة لي منه ولذلك لا يهمني بقيت هنا أو خرجت فأنا بين يديك أفعل بي ما تشاء

وسمع ستورتن حينئذٍ صوت مشي في الدار فنهض وفتح الباب وللحال دخل السفير وهو يقول لماذا لم تذهب إلى فقد كنت في انتظارك عند المسيو كاميليون وأوامري صريحة في ذلك

ستورتن- السبب واضح يا مولاي أنظر من أمامك. قال ذلك وأشار إلى ستنمور

ورأى السفير رجلاً يشبهه تماماً كأنه يرى وجهه في مرآه فدهش ووقف مبهوتاً ثم قال له من أنت يا مسيو

فقال ستنمور اسأل هذا الشاب يخبرك من أنا ومهما حاولت أن أقلدك لا استطيع أن أكون مثلك فمن أين لي هذه القامة وهذه المهابة ومع ذلك فبيني وبينك شيء من الشبه ولاسيما ما دام هذا الشعر على رأسي وهذان الشاربان في وجهي. قال ذلك ونزع الشعر العارية عن رأسه والشاربين من وجهه فبانت هيئته مضحكة حتى لم يتمالك السفير أن تبسم رغماً عما كان به من الغيظ. ثم التفت إلى ستورتن وقال له هات أخبرني بخلاصة الخبر. فأخبره فتنفس الصعداء وقال الحمد لله إذاً أذهب من ساعتي وأخبر المسيو كاميليون وآخذ هذا الرجل معي ولكن لا لا آخذه بل أبقه هنا وأقفل الباب لئلا يذهب ويتاجر بالخبر قبلما يذيع في السوق وأكتب الرسالة وبعد نصف ساعة يأتي بلونت ويتبعني بها. قال ذلك وخرج وجلس ستورتن يحل الرسالة السرية وجلس ستنمور وقالا ألا يأتينا أحد بفنجان قهوة وسيكارة فقرع ستورتن الجرس وطلب له فنجان قهوة وقدم له علبة السكاير عن غير قصد منه وظل يشتغل في حل الرسالة السرية إلى أن أتمها. ثم التفت إلى ستنمور وقال له هذه هي المرة الثانية التي عملت فيها على هلاكي والآن أنت في قبضة يدي ويمكنني أن انتقم منك على أسهل سبيل

فضحك ستنمور وقال أنت تعلم إنك لا تستطيع ذلك لأنه ليس من مصلحتك أن تبين للملأ كيف إني خدعتك ولا تريد أن تصير سفارتكم أضحوكة في الدنيا ثم أن كل رجال البوليس الفرنسوي يعرفونني فإذا سلمتني إلى يدهم الآن أطلقوني بعد ساعة

فقال ستورتن إذا تركتك الآن وسمحت لك بالذهاب فهل تعدني بشرفك إنك ما عدت تفعل ذلك معي فقد تعقبتني مرتين حتى الآن وأخذت أسرار الحكومة مني رغماً عني وأنا أحب خدمة الحكومة ولا

أريد تركها فعدني بشرفك إنك ما عدت تحتال علي

فهز ستنمور رأسه وقال له أنت نسيبي وأنا عم امرأتك ويهمني نجاحك جداً والحادثتان اللتان تشير إليهما هذه وتلك قد نفعتاك كثيراً فإذا وعدتك الوعد الذي تطلبه مني لا تعود شديد الحذر كما أنت الآن. فليبق كل شيء على حاله وأبق على حذرك مني وأبقى أنا أحتال عليك جهدي

ففتح ستورتن الباب وخرج ستنمور منه

وتغذى ستورتن مع السفير ذلك النهار وكان السفير متهللاً بانفراج الأزمة وجاءته رسائل التهنئة من كل صوب ولكن كان في باله شيء شغله فلما انفرد بستورتن بعد الغداء قال له بلغني أن أحد السماسرة اشتري مبالغ وافرة من القنصيلد الإنكليزي والرنت الفرنسوي قبلما نشر المسيو كاميليون الخبر بساعة من الزمان وقد أرسلت الوزارة تخبرني بذلك وتنتقده فعسى أن لا تظن أن لنا اشتراكاً في ذلك

فقال ستورتن أما أنا فلم ادعه يخرج من هنا إلا بعد أن علقت الإعلانات في الشوارع

وبعد أسبوعين جلس ستورتن ليفطر في الصباح ودخلت زوجته وبيدها عقد نفيس من الجوهر ورسالة صغيرة من عمها ستنمور يقول فيها

عزيزتي استير

إن الهدية التي أهديتها إليك يوم عرسك لم تكن على حسب رغبتي فاسمحي لي أن اكفر عن ذنبي الآن فقد ربحت حديثاً ربحاً طائلاً بالأوراق المالية ولو كنت قليل المضاربة

أهدي احترامي إلى زوجك وقولي له إنني سررت بدار السفارة في باريس ولاسيما بالشباك الذي يطل على شارع سان أنطوان (لأنه رمي خبر السلم إلى أحد أتباعه لما أطل من الشباك كما تقدم)

واعطت استير الرسالة لزوجها فقرأها وهي تقول له أخبرني ما هو معناها فأخذها من يدها وقرأها ثم ألقاها في النار

هذه خلاصة القصة فما رأيك فيها وهل صحيحة. فقال أظنها صحيحة وما أسرع ما عرفها صاحب المجلة وكان يجب عليه أن لا يفشيها على هذه الصورة

فقالت إذاً رجال الحكومة يتاجرون بأخبار الحروب وقد قرأت في تاريخ بيت روتشليد أن جدهم عرف أخبار انتصارنا على بونابرت في واقعة ووطرلو قبلما عرفتها الحكومة فربح من مشتري القنصليد الإنكليزي ربحاً وافراً وكنت أظن أن هذه القصة موضوعة ولك يظهر لي الآن إنها صحيحة

فقال سواء كانت صحيحة أو موضوعة فالماليون يجرون على ذلك الآن ولا أبالغ إذا قلت إنهم صاروا يثيرون الحروب لأجل الربح

فقالت الآن فهمت أمراً أشكل على فهمه فقد قرأت بالأمس في مجلة منصي الأميركية أن درزائلي اليهودي الأصل صار رئيساً لوزرائنا وليس في عروقه نقطة من الدم الإنكليزي. وكانت الأمة تكرهه والملكة لا تطيقه فلا يبعد إذاً أن الماليين من الإسرائيليين عضدوه بكل جهدهم حتى صار رئيساً للنظار لكي ينتفعوا من الوقوف على مقاصد الحكومة منه

فقال لا أظن أن الأمر بلغ إلى هذا الحد لاسيما وإن دزرائلي كان عفيفاً ولم يسمع عنه قط إنه تاجر بما يعلمه من أمور السياسة مع

إنه لو فعل ذلك كما كان نبوليون الثالث مثلاً يفعله على ما يقال لربح الملايين الكثيرة

فقالت الظاهر إنه كان موسوساً في السياسة وتاركاً الربح المالي لغيره لأن ثروة زوجته كانت كافية لنفقاته مهما بلغت ولم يكن له أولاد يهتم بمستقبلهم ولو عرف بالتبذير والرجل الذي يبذر لا يهتم بإيجاد الأساليب لجمع الثروة ولكنه لا يمنع غيره من جمعها. هل استفاد أحد من معارفنا من نشوب هذه الحرب بين الروس واليابان

فقال نعم استفاد كثيرون منهم وبعضهم أثروا ثروة وافرة ونحن تضاعف البيع من جريدتنا وفي نيتنا أن نصدرها الآن في منشستر وباريس ونيويورك في الوقت الذي تصدر فيه لندن

فقالت إذاً نحن من المغرين بهذه الحرب والممهدين السبل لها هذا أمر لا يرضى الله يا ادورد ولا يحسن أن نربي أولادنا عليه

فقال الحق في يدك ولكن نحن مسيرون غير مخيرين وهذا هو مقتضى الناموس الطبيعي ناموس الجهاد لأجل البقاء فإذا أردنا تغييره لا نستطيع وهو متسلط على نوع الإنسان وعلى أنواع الحيوان والنبات لحكمة اقتضاها الخالق فالسمك الكبير يأكل الصغير والحيوان يأكل النبات ويأكل بعضه بعضاً ممن يستطيع أن يوقف مجرى الطبيعة

فصمتت وهي تفكر في هذا الموضوع الواسع الأطراف وانتقلت أفكارها حالاً إلى ابنها وابنتها في بلاد كوريا حيث ذهبا مع الجيش الياباني فتنهدت. وكانا قد فرغا من الطعام فقاما ومضى السر إدوارد إلى مكتبته وذهبت هي إلى مخدعها

الفصل الرابع والعشرون

تغير الشؤون

الخواجة لاڤي- اوحشمونا يا حضرة الشيخ وطالت غيبتكم علينا

الشيخ أحمد- نعم كنت غائباً في الصعيد ولم أعد إلا أمس وقد قرأت وأنا هناك عن النكبات العديدة التي أصابت أصحابنا كلهم هنا وفي منشوريا وعسى أن تنتهي على خير

الخواجة لاڤي- على خير إن شاء الله. ولكن من لكم من الأصحاب في منشوريا

الشيخ أحمد- ليس أصحابي أنا بل أصحاكم أنتم. قال ذلك وتبسم وغمز بعينيه

الخواجة لاڤي- مكتوب عندنا في التوراة أن الأمة التي تضطهدنا فالرب يجازيها

الشيخ أحمد- هل تتركون المجازاة للرب أو تساعدونه فيها

الخواجة لاڤي- نحن نفعل ما في يدنا مثال ذلك أننا لا نسهل لعدونا عقد قرض وإذا تيسر لنا أن نحرك أعداءه عليه لا نتأخر لأننا نكون منفذين لإرادة الله

الشيخ أحمد- واي نفع ينالكم من ذلك أي نفع ينالكم لو تم الفوز لليابان على الروس وجمهوركم يسكن بلاد الروس لا بلاد لليابان

الخواجة لاڤي- إذا حدث ذلك فلابد ما تصلح حكومة روسيا ويتولاها أناس مسأولون عن أعمالهم وحينئذٍ نأمن على أرواحنا ويصير لنا المقام الأول فيها لأن اليهود أقدر من غيرهم على الكسب وصاحب المال سلطان. أنظر إنكلترا وفرنسا والنمسا فإن لنا المقام الأول فيها وأنظر كيف صار حالنا في هذا القطر بعد ما استتب الأمن فيه

الشيخ أحمد- ولكن يبلغني أن روسيا تجند الجنود منكم فهل ذلك صحيح وهل تحاربون معها عن طيب نفس

الخواجة لاڤي- أما إنها تجند الجنود منها فهذا صحيح وأما أن رجالنا يحاربون معها قلباً وقالباً فهذا لا أظنه بل أن أكثر جنودها مثل اليهود يفعلون ما يأمرهم به ضباطهم ولكنهم يكونون أول المنهزمين إذا نودي بالهزيمة وحقاً إني لا أدري كيف يستخلص الإنسان عدوه ويعتمد عليه في الدفاع عن بلاده

الشيخ أحمد- وما رأيك في مصير هذه الحرب وما رأى أخوانكم في انكلترا

الخواجة لاڤي- أتانا كتاب من اليابان من الخواجة هنري برون واظنك التقيت به هنا في الشتاء الماضي يقول فيه أن اليابان مستعدة لهذه الحرب استعداداً لا مثيل له وأن البلاد كلها قائمة تطلب الحرب ورجال الحربية كلهم قلب واحد من أكبر قائد إلى أصغر جندي والناس على غاية الرصانة والنظر في العواقب. ويظهر مما نطالعه في الجرائد الأوروبية التي يعتمد عليها أن الفوز سيكون لليابان. وعلى كل حال نحن باذلون جهدنا حتى لا نسهل لروسيا استدانة جنية واحد من أوروبا

الشيخ أحمد- ولكنني قرأت في بعض الجرائد أو المجلات أن في خزينة الحكومة الروسية أموالاً وافرة تنفق منها على هذه الحرب ولو طالت سنين

الخواجة لاڤي- لا تصدق كل ما تقرأ نعم عندها نحو ستين أو سبعين مليوناً ولكنها لا تكفيها أكثر من سنة. أتعرف كم صرفت إنكلترا على حرب الترنسفال صرفت اكثر من مئتي مليون جنية

الشيخ أحمد- ولكن ألا يخشى من نشوب حرب عمومية إذا قامت فرنسا لمساعدة روسيا

الخواجة لاڤي- لقد خفنا ذلك في الشهر الماضي ولكن حكمة انكلترا فضت هذا المشكل وما دام الأمر في يد الماليين فلا خوف من إنهم يسمحون بشيء يعطل أعمالهم ويخسر أموالهم. ولا وزير في أوروبا الآن إلا وله مصالح مالية يخاف عليها ويسعى في تكثير مكاسبها فالحروب البعيدة لا ضرر منها عليه بل منها ربح له ولاسيما إذا كان له اشتراك في المعامل التي تبني البوارج أو تسبك المدافع أو تصنع البنادق أو تمتلك سفن النقل أو كان عنده سندات من دين الدولة التي ينتظر أن يكون الفوز لها. وكل أحد يسعى لمصلحته والملوك أنفسهم لا يأنفون الآن من الاشتراك في الأعمال التجارية التي من هذا القبيل ولاسيما بعد أن رأوا القوة للمال وأن الواحد من رعاياهم يولد فقيراً لا يملك شيئاً ثم يصير أغنى منهم ويصير دخله السنوي أضعاف المال المقطوع لهم. هذا ملك الإنكليز راتبه السنوي نحو نصف مليون جنية وبين رعيته رجل لم يكن يملك شيئاً في صباه فصار دخله السنوي الآن نحو خمسة ملايين من الجنيهات أي عشرة أضعاف ما يأخذه الملك من بلاده . وعلى الملوك نفقات كثيرة ولهم أولاد يجب عليهم أن يهتموا بمستقبلهم

ولم تعد الأحوال كما كانت من قبل حين كان الملك يضع يده على أموال أي كان من رعيته بل صارت الأرملة تداعي الملك على غرش يأخذه منها من غير حق ولذلك لا عجب إذا اشترك الملوك مع أرباب الأموال وراعوا مصالحهم. وقد بلغني عن ملك من الملوك إنه أوصى برجل اعتقد فيه الصدق والأمانة حتى نيطت به أعمال ربح منها في سنة واحدة نحو مليونين من الجنيهات فهل يعقل أن هذا الرجل ينسى مولاه الذي هو سبب نعمته أو لا يقدم له هدية تساوي نصف ما ربحه. وهذا الأمر أي مساعدة الملوك لأحد رعاياهم يحرمه رجال السياسة قولاً ولكنهم يحللونه فعلاً وقد يكون منه شيء من الضرر ولكن ضرره لا يقابل بما كان يفعله الملوك في الأزمنة الغابرة فإنهم كانوا يعزون البلدان ويستبيحون كل ما فيها لأجل الكسب يأخذون أموالها ويبيعون رجالها ونساءها عبيداً لكي يكتسبوا من ذلك وإذا أمكنك أن تحلل وتشرح كل ما حدث في الدنيا من الحروب منذ مئة سنة إلى الآن بل منذ أقدم أزمنة التاريخ إلى الآن رأيت أن للمصالح المالية الشأن الأكبر فيه ولكن لنرجع إلى سياحتك يا شيخ كيف وجدت الصعيد

الشيخ أحمد- على غاية الأرض كلها بساط من الزبرجد بل من الزمرد لشدة اخضرار زرعها وقد شرع أهالي المدريات الوسطى في زرع القطن وستكون سنة خير إن شاء الله رغماً من انخفاض النيل لأن الخزان يسد العجز ويزيد عليه وقد أذهلني ارتفاع أسعار الأطيان فإن أحد معارفي اشترى نحو خمس مئة فدان من شركة الدائرة السنية ولم يدفع حتى الآن إلا نحو عشر ثمنها وقد أعطى ربحاً عشرة آلاف جنية لم يقبل ولا يبعد أن يعطي خمسة عشر ألفاً أو عشرين ألفاً. ولو أبقت الشركة على أطيانها إلى الآن لتضاعف ربحها منها

الخواجة لاڤي- أصبت وهذا كان غرضنا من الأول ولكنهم الزمونا أن نجزي، الأطيان ونبيعها وما كنا نظن أن الأسعار تبلغ هذا الحد ولو ظننا ذلك لكنا اشترينا نحن أنفسنا وما تركنا البيعات الكبيرة. على أن هذا الارتفاع لا يستمر طويلاً إلا إذا بقيت أسعار القطن مرتفعة فإذا هبطت كثيراً اضطر الناس أن يبيعوا الغالي بالرخيص ففي العام الماضي بلغ ثمن القطن المصري نحو ثمانية عشر مليون جنية وبلغت صادرات القطر كلها نحو عشرين مليون جنية فإذا هبط ثمن قنطار القطن جنيهاً فعاد إلى جنيهين ونصف مثلاً وهذا غير مستحيل قلت قيمة الصادرات ستة ملايين جنية فيخسرها القطر ولا يقدر أن يستعيض عنها بغيرها لأن قيمة وارادته أكثر من ستة عشر مليوناً من الجنيهات وعليه فوائد من ديونه وديون الحكومة نحو خمسة ملايين من الجنيهات فإذا جمعنا ثمن صادراته وما ينفقه السياح فيه سنوياً لم يزد المجموع على ما يجب عليه أن يدفعه ثمن وارداته وفوائد ديونه

الشيخ أحمد- فهل رأيك إذاً أن ثمن الأطيان سيهبط

الخواجة لاڤي- هذا يتوقف على ثمن القطن أو على محصول أميركا فإذا بقى ثمن القطن على حاله فالأسعار ترتفع أيضاَ وإذا هبط كثيراَ فلا يبعد أن تهبط لأن كثيرين يضطرون أن يبيعوا أطيانهم والمصيبة على المديون أما الذي ليس عليه دين فهو سلطان زمانه ولا خوف عليه لأن إيراد الأطيان يكفي أصحابها مهما كان

الشيخ أحمد- صدقت صدقت

ودخلت استير حينئذٍ فسلمت على الشيخ مصافحة وسألته عن سفره وقالت إنها آتية من بيت راغب باشا وأن جرح حليمة يكاد يبرأ

فقال الشيخ نعم وقد ذهبت إلى هناك في الصباح وسألت عنها ورأيت حليم بك فقال أن الطبيب يطمنهم كثيراً عنها وأن جودة صحتها وسلامة جسمها من الآفات ساعدتا على شفائها ولكنها لا تستطيع أن تحرك يدها حتى الآن وربما يبقى فيها شيء من اليبوسة. والظاهر أن نجم الدين ادعي الجنون أو أهله أدعوا إنه مجنون وطلبوا وضعه في مستشفى المجاذيب فإذا ثبت ذلك خلص من العقاب

استير- مجنون هذا ولد ردي خبيث أتى متعمداً قاصداً قتلها وأخبر كثيرين بذلك وكانت لنا ساعة يا أستاذ لا أرانا الله مثلها ومن الغريب أن الرجال كلهم وقفوا كالأصنام وأؤكد لك إنني لو لم أر إنه يجب أن اهتم بحليمة وأمها لكنت لحقته بنفسي وكسرت رأسه

قالت ذلك واحمرت وجنتاها وقرعت الأرض بشمسيتها حتى كادت تكسرها. ثم دارت إلى أبيها وكلمته بالإيطالية كلاماً لم يفهمه الشيخ ولكنه استدل منه على أمر هام ثم ودعت الشيخ وعادت إلى مركبتها. وتكلم الشيخ مع الخواجة لاڤي في بعض الأشغال الخصوصية ثم ودعه وانصرف

وجلس الخواجة لاڤي بعد انصراف الشيخ أحمد يفكر في ما قالته له ابنته فإن حلمية كانت تحب استير وقد زاد حبها لها بعد ما رأته من تعلقها بها من حين رميت بالرصاص وكانت استير تعودها كل يوم وتحنو عليها حنو الوالدة على ابنتها حتى أن الأطباء والممرضات صاروا يرون إنها أقدر منهم كلهم على تمريضها وتسليتها وإنهاض قواها ولم يعد يهنأ لحليمة عيش إلا واستير معها. وتعلقت بها أم حليمة وأبوها فصارا ينظران إليها كأكبر معزٍ لأبنتها وكان حليم بك يدخل غرفة أخته مراراً كل يوم ويرى استير ويندهش من جمالها

وطلاقة وجهها والذكاء البادي من عينيها ولا سيما حينما تكلمه بالعربية وتستشهد له احياناً ببيت من الشعر وهي تفعل ذلك من غير دلٍ كأنه أمر اعتيادي فهام بها. ولما زارهم الشيخ أحمد صباح ذلك اليوم خرج حليم معه وأعرب له عن حبه لاستير وسأله عن رأيه في ذلك فقال له هذا الذي ظننته من أول الأمر وأنت تخفي عني أما أنا فلا أعرف فتاة أذكى منها عقلاً وأقدر على إدارة البيوت ويظهر لي أن أباها يجري على طرق الإفرنج ولا يمنع أن تكاشفها أنت بما في نفسك

فقال هذا أمر لا استطيعه ولا أكاد استطيع الكلام أمامها

فقال الشيخ إذاً دع حليمة تفاتحها في ذلك ولو على سبيل التمني فتقف على أفكارها

فقال هذا رأي حسن وعاد وأخبر أخته بذلك وكلم أمه فلم تسر به لأنها كانت تريد أن تزوجه واحدة من نسيباتها ولأنها استقبحت أن يتزوج يهودية مع حبها لاستير وإكرامها لها. أما حليمة فرأت إنه عين الصواب وبعد جدال طويل رضيت أمه أن تترك الحكم في هذه المسألة لأبيه فقام لساعته ومضي وأخبر أباه فرآه أميل من أمه وأستحسن رأي الشيخ أحمد ولكنه رجح أن استير لا تقبل لأنها متربية تربية إفرنجية محضة. وعاد حليم وطلب من أخته أن تفاتح استير بذلك. فلما أتت استير لعيادتها بعد الظهر واستقر بها الجلوس تفرست حليمة في وجهها طويلاً ثم طلبت منها أن تقترب إليها وضمتها إلى صدرها وقالت لها أه يا استير لو كنت تعلمين مقدار محبتي لك وليس محبتي أنا وحدي بل محبة كل أهلي هل تعدينني أن تبقى في مصر هل تعدينني أن تبقي قريبة مني لكي أراك كل يوم آه لو كنت تقبلين رجائي ورجاء كل الذين يحبونك من أهلي وتكونين

مكاني في هذا البيت أنا أؤكد أن أخي يحبك كما أحبك أنا فهل يرضيك ذلك قولي لي هل يمكننا أن نرجو ذلك منك

فتبسمت استير وقالت لها ألا ترين إني آتي كل يوم وأراك ولكن بعد أن تتزوجي ربما لا يريد زوجك أن أزورك كل يوم

حليمة- لماذا غيرت الموضوع لماذا لا تجيبينني صريحاً على سؤالي الأول

فصمتت استير ثم تبسمت ثانية وقالت لها مالنا ولهذا الموضوع الآن سنتكلم فيه في وقت أخر ثم قبلتها وغيرت الحديث وودعتها بعد حين وانصرفت على جاري عادتها. ورأت أن لابد لها من أن تخبر أباها بخلاصة ما توقع حالاً لأن ابن عمها كان مدعواً للعشاء عندهم تلك الليلة وكان أبوها وأمها يلجان عليها لكي تقترن به وقد دعياه ليحضر قبيل الغروب ويخرج معها ومع أمها للنزهة ويأخذ الجواب منهم تلك الليلة. وشاع على السنة المعارف والجيران إنه خطبها وسيقترن بها بعد قليل ولم يبلغ ذلك بيت راغب باشا لانشغال بالهم بابنتهم. ولما أخبرت أباها بما قالته حليمة قال لها أفعلي حسب ما يرشدك قلبك أما حليم فسيرته على أحسن ما يكون. فزادها ذلك قلقاً لأنها كانت تفضل أن يكون أبوها مساعداً لها في الاختيار لا أن يلقي الحمل كله عليها ولم تكن تعتد برأي أمها كثيراً مع احترامها لها

وجاء موسى في الوقت المعين وخرجت استير وأمها معه للنزهة في مركبتهما الكبيرة وأقاموا إلى ما بعد الغروب ثم عادتا به إلى البيت الذي كان نازلاً فيه لكي يلبس للسهرة ويأتي للعشاء وكانت الأحاديث عادية ولم يتكلم موسى مع استير على انفراد. وحضر وقت العشاء وجلست استير إلى جانبه على المائدة ولم يكن طلق اللسان قوي

البداهة فكه الحديث حتى يجتذب النساء بطلاقة لسانه وفكاهة حديثه ولكنه كان كثير المطالعة واسع الخبرة عارفاً بالأحوال المالية غير قليل الإلمام بالمعارف التاريخية والطبيعية وأتت معه السيدة روز ابنة أخت لاڤي وهي نصف أي عمرها نحو أربعين سنة قتل خطيبها في الإسكندرية في بدء الحوادث العرابية فحزنت عليه حزناً مفرطاً وأبت التزوج بعده مع إنها جميلة المنظر وعلى ثروة طائلة وحاول ذووها صرفها عن هذا العزم فلم تنصرف وكانت طلقة اللسان إذا حضر في مجلس فيكون أكثر الحديث لها ومعها ومتى قيل في مجامعهم ستي روز عرف الكل إنها هي المرادة دون غيرها. وكانت جالسة عن يمين مدام لاڤي أمام الخواجة موسى واستير فنظرت إليهما وقالت من رتب مجالسنا على المائدة على هذه الصورة فقد أحسن الترتيب لأنه لو جلس المسيو موسى أمام مداموازل استير لضاع عليه العشاء وشبع من النظر

فقالت استير إذاً سيضيع عليه العشاء على كل حال

روز- هذا كلام لا يسلك علينا. ما قولك يا مسيو

موسى- إن الإنسان يستطيع أن يمتع حاستين في وقت واحد النظر والذوق

فسرت مدام لاڤي بجوابه وقالت إذاً ما عدت أخاف أن يذهب تعبي في تدبير العشاء سدي

روز- وبترتيب المائدة أيضاً

مدام لاڤي- ليس لي فضل في ذلك بل الفضل كله لاستير

روز- هذا اليق شيء بالمداموازل من أين هذا الورد ما أجمل منظره وما أطيب رائحته

استير- لم يكن الورد كثيراً هذه السنة حسب العادة لأن تأخر البرد أضر به

روز- أين البرد في مصر البرد في بلاد الإنكليز كيف وجدت الطقس عندنا يا مسيو موسى

موسى- لا يمكن أن يكون أجمل من ذلك الآن أما يوم وصولي فكان البرد شديداً مثلما يكون في بلاد الإنكليز

الخواجة لاڤي- أظن إنه سيشتد الحر غداً وقد ابتدأت أيام الخماسين

يوسف- قرأت اليوم أن درجة الحرارة في الخرطوم خمس وأربعون

موسى- خمس وأربعون هذا لا يطاق فكيف يعيش الناس هناك

الخواجة لاڤي- الحر شديد ولكن الهواء جاف جداً وقد أخبرني الشيخ أحمد اليوم أن درجة الحرارة بلغت في أسوان في الأسبوع الماضي ٤٢ ومع ذلك كانت محتملة جداً لشدة جفاف الهواء وكيفما كان الحال لا ننكران هذه البلاد حارة جداً

موسى- أنا لم أنس حرها ولا أصدق متى أعود إلى بلاد الإنكليز فإني أتعب من الحر جداً وأظن أن مدموازل استير مثلي

استير- أما أنا فلا أتعب من الحر قدر ما أتعب من البرد وأفضل مصر وحرارتها على لندن وبردها

روز- إيه إيه ما هذا يا مدموازل اتفضلين مصر على لندن اسمع يا مسيو موسى

أم استير- الشتاء في مصر والصيف في أوروبا في بلاد الإنكليز أو غيرها

روز- هذا عدل مدام لاڤي حكمت بالعدل

يوسف- ذهبت اليوم لا ودع أحد أصدقائي فوجدت القطار مملوءً حتى اضطرت مصلحة سكة الحديد أن تقيم قطاراً آخر بعد الإكسبرس وأظن أن اللوكندات تفرغ في هذين اليومين

الخواجة لاڤي- كان عدد السياح هذه السنة كثيراً أكثر مما كان في السنين الماضية

مدام لاڤي- ولكن اللوكندات ما وزعت علينا ربحاً حتى الآن

يوسف- ستوزع عشرة في المئة

الخواجة لاڤي- لا أظن ولكنها توزع ثمانية في المئة

روز- براڤو

استير- الظاهر أن عندك اسهماً كثيرة منها

روز- كان عندي واشتريت ألفي سهم من أول الفصل لما رأيت كثرة السياح

استير- ماذا تعملين لنا من الربح

روز- مثلما عمل لنا أبوك من أطيان الصعيد والشركة الجديدة

يوسف- ألم يعطك من أسهم التأسيس

روز- أعطاني نعم أعطاني ولكن من الجمل أذنه كما يقول أولاد العرب

الخواجة لاڤي- إذاً أنت حاقداً علينا يا ستي روز

روز- أنا لا أحقد على أحد ولكن اللوم على خالتي

مدام لاڤي- كتب اسمك في رأس القائمة ومن يستطيع أن ينسى روز

روز- مرسي مرسي

موسى- ما هي هذه الشركة الجديدة أظن إني لم أسمع عنها

فأخذ الخواجة لاڤي يشرحها له وكان كلامهم باللغة الفرنسوية تتخلله عبارات عربية ولم يكادوا يتمون الطعام حتى دخل الخادم وبيده كتاب للخواجة لاڤي قال إنه من بيت واصف بك ففضه الخواجة لاڤي وإذا هو من بهية تطلب فيه منه أن يحضر حالاً ويرى أباها لأن الخطر قد اشتد عليه فقام لساعته وذهب إلى بيت واصف بك وودت استير أن تذهب معه وترى بهية لكنها راعت ضيفيهم واضطرت إلى البقاء في البيت

واجتمعت زين الدار بقدم خير بعدئذٍ فقالت لها

شفت الخواجة موسى ويا ستي استير والست الكبيرة طالعين للنزهة صار حاجة

قدم خير- لا ابن عمهم وجاي من برا ولكن شايفه لك إنه ما عادش نصيب للخواجة عزرا

زين الدار في حاجة جديدة

قدم خير- البارح كان الابوكاتوا أحمد باي عندنا وسمعه عبدو لما دخل القهوة يقوم إنهم بيدخلوا الخواجة عزرا في القضية وبيحكموا عليه

زين الدار- أي قضية

قدم خير- قضية الطلياني

زين الدار- بيحكموا عليه عمل إيه ومالوا ومال الطلياني

قدم خير- أهو اللي سمعتو بس لا تقوليش حاجة على لساني.

ولكن ستي استير من قد كدا وأنا شايفة لك أن الخواجة موسى داري أن ستي استير ما تملوش كثير ولكن أهو بدها ترضى أمها والسلام

زين الدار- وبتقلك إيه لما تعريضليها بذمر سيدي عزرا

قدم خير- لساها على حالها لو شفت منها أدنى ميل كنت أقل لك

زين الدار- سيدي عزرا مشيع لك هالخاتم أهو دهب وقلبه فيروز

قدم خير- قولي إني بخدمو بعني تعالي لي باكر حتى أقل لك جرى إيه

وعادت زين الدار وأخبرت عزرا بما سمعته من قدم خير فزاد انشغال باله وكان قد سمع بعض أصدقائه ما يؤيد ذلك ولكنه لم يشأ أن يظهر أمامها الاكتراث لهذا الخبر بل تظاهر كأنه لا يهتم به أما هي فلم يخف عليها ذلك لأنها كانت تراقب وجهه لما أخبرته. والحيوان الأعجم يفهم ما يدور في خاطر الإنسان من مراقبة وجهه فلا عجب إذا فهمه الإنسان

*****

الفصل الخامس والعشرون

دار الحرب

الناس والواحد منهم تشبعه كسرة من الخبز أو حفنة من الأرز مع قليل من الزيت والدهن وشيء من أثمار الأرض وبقولها ويستر عريه قليلاً من القطن والصوف. وهو إذا عمل الأرض واستثمرها ورعى المواشي واحتلبها وصاد السمك والطير نال منها ما يقوم بمعيشته ومعيشة زوجته وأولاده وزاد معه ما يكفي نفقة للباحثين عن نواميس الكون وقوى العقل وأسباب الأمراض والآفات وللذين يبهجون العين ويطربون الأذن ويبسطون النفس وينعشون العواطف والأميال- نشأت منهم فئة لا تقنع بما قسم لها مما يكفيها ويغنيها بل تراها دائماً في طمع وجشع لا تروي ولا تشبع

كالحوت لا يرويه شيء يلهمه * يصـــبح ظمآناً وفي البحر فمه

وهي ترى الحياة الدنيا دار غربة والمرء فيها على سفر والقليل يشبعه كالكثير. والصحة والمرض والراحة والتعب والسرور والكدر لا تتوقف على كثرة المال وقلته. ومع ذلك لا هم لها إلا تسخير الناس وإيقاع بعضهم في بعض لأخذ ما في أيديهم ولو استلحم بعضهم بعضاً ونهكت قواهم من التعب ويبست السنتهم من الظمأ وتقطعت أوصالهم من الجراح ونزفت الدماء من عروقهم وذاقوا الموت أشكالاً وألواناً

وهذه الفئة قديمة في الدنيا لم يخل منها عصر من عصور

التاريخ قام منها الملك والكاهن والقائد والوزير وتكاد تنحصر الآن في أرباب الأموال والذين على شاكلتهم من كل منتفع بضرره غيره ولو ملكاً عظيم الشأن. فقد صمت آذانهم عن عويل اليتيم والأرملة ووقرت عن نوح الثاكل وأنين الجريح فلا تسمع إلا رنة الدينار وصوت المنادي بارتفاع الأسعار. فبينا ترى الزوجة تقتر على نفسها وأولادها لكي ترسل إلى زوجها في ساحة القتال شيئاً ينعش فؤاده من مأكل أو مشرب. والطبيب يمشي تحت الرصاص ليجد جريحاً يضمد جراحه. والممرضة تسهر الليل ولا هم لها إلا تخفيف آلام الجرحى وتغميض عيون القتلى. والأمة كلها شاخصة العيون فاغرة الأفواه مفتوحة الآذان تنتظر خبراً من دار الحرب يذهب ببعض كربتها. ترى أرباب الأموال والذين ينتفعون من الحرب بعمل آلاتها والتزام الميرة والأسلحة لها لا يهمهم سوى ملء جيوبهم من النضار الذي بيعت به الأرواح بيع السماح

نشبت هذه الحرب بين الروس واليابان والسبب الظاهر الذي يذكره الخصمان ويفاخران به أن الواحدة تطلب منفذاً لتجارتها في أقاصي المشرق ولو لم يكن لها هناك تجارة تذكر والثانية تخشى أن تناظرها لأولى وتضيق خناقها وتمنع شعبها عن المهاجرة إلى بلاد قريبة منها ولابد لها من الارتزاق فيها. والسبب الباطن بل سبب الأسباب أن خزائن الماليين في أوروبا فاضت بالنضار وفي بلاد الروس مئة وثلاثون مليوناً من النفوس وفي اليابان وكوريا ومنشوريا نحو سبعين مليوناً وكلهم ديونهم العمومية قليلة ويستطيعون أن يعطوا من عرق جبينهم أكثر مما يعطون الآن فعلي مُ لا يستدينون الأموال من أولئك الأغنياء بالربا الفاحش وتتقيد دولهم بدفع رباها السنين الطوال والأموال التي يستدينونها تحرق بارود وتغرق بوارج ولو

ذهبت معها المهج وذابت بها النفوس

نسير بالقارئ الآن إلى أربع عواصم وهي لندن وبطرس برج وطوكيو والقاهرة ونسمع ما يقال فيها مما يتعلق بموضوع روايتنا

لندن

جلس كبار الماليين الثلاثة في الغرفة الفاخرة الأثاث والرياش التي تدفئها أنابيب الهواء السخن في أوقات البرد وتبردها المراوح الكهربائية في أوقات الحر وتتصل بها أسلاك التلغراف والتلفون ممدودة إلى أكثر العواصم الأوروبية والأميركية. ووضع أحدهم وهو لورد بنشيلد رجلاً فوق أخرى وأدار كرسيه قليلاً وانحنى إلى الوراء وهو ينظر إلى السقف وينفخ الدخان من فيه ثم قال فازت اليابان براً وبحراً فإن الضربة الأولى أضعفت الأسطول الروسي الذي في الشرق الأقصى وهو أكثر من نصف الأساطيل الروسية كلها فصار أضعف من الأسطول الياباني وإذا تساوى الفريقان في العلم والمهارة والحماسة (وهذا بعيد على ما علمته من الواقفين على حقائق الأمور لأن اليابانيين يفوقون الروسيين في كل ذلك) إذا تساوى الفريقان فالأسطول الياباني صار أقوى من الأسطول الروسي فإن التقى الخصمان في عرض البحر كما لابد من أن يلتقيا يوماً فالفوز للأسطول الياباني. وجاء غرق البارجة بتروباولسك التي غرقت في ١٣ الماضي (إبريل) وغرق فيها الأميرال ميكاروف قائد الأسطول كله ومحيي الحماسة في صدور رجاله ضربة قاضية على الروس لأنها أضعفتهم مادياً وأدبياً. والظاهر إنهم ليسوا في البر أنجح منهم في البحر لأن الجنرال كروكي هزم جناح الجيش الروسي الأيسر على

ضفاف نهر يالو

فالتفت إليه المالي الثاني وقال هل يظن أصحابنا أن الحرب تنتهي قريباً

لورد بنشيلد- كلا ولا ينتظر الآن إنها تنتهي في سنة من الزمان وحرب مثل هذه يجب أن تدوم سنة أو سنتين نعم إنه يستهلك في السنة الواحدة الآن قدر ما كان يستهلك في عشر سنوات ولكن المنتفعين من الحروب صاروا كثاراً فلا يصل النفع إلى كل منهم إلا إذا كثر مقداره جداً ألا ترى إن هؤلاء الأميركيين يتعاملون بالملايين كما نتعامل نحن بالألوف فلابد من أن تكبر اللقمة لكي تشبع الجميع

الثالث- كم تبلغ نفقات كل من الخصمين قبل إنتهاء القتال على ما تظن

لورد بنشيلد- يظهر لي قياساً على حرب الترنسفال وحرب فرنسا وبروسيا أن نفقات كل من المتحاربين ستبلغ مئة مليون جنية إن لم تزد عليها ثم لابد الدولة الغالية من أن تأخذ غرامة من الدولة المغلوبة فإذا فرضنا إنها مئة مليون جنية إن لم تكن مئتين فلا تنتهي الحرب وتضع أوزارها ما لم ينفق فيها وعليها ثلثمئة مليون من الجنيهات نصفها من بلاد المتحاربين ونصفها دين على الفريقين ولا ندينهم إياه بأقل من خمسة أو ستة في المئة ونربح بصعود الأسعار وهبوطها ما دامت الحرب سجالاً ثم نبقى من سنداتها في أيدينا قدر ما تشاء. وسيربح كل أصحاب المعامل والبواخر والتجار والملتزمين لأن الأموال التي تنفق توزع عليهم. وخيرات الأرض كثيرة في بلاد الروس وكوريا ومنشوريا واليابان فيستخرجها أهل الزراعة والصناعة ولا يعطون أصحاب الديون ألا جانباً صغيراً من ربحهم فإن المئة

والخمسين مليوناً من الجنيهات لا يزيد رباها على عشرة ملايين في السنة مهما كان فاحشاً وهي إذا وزعناها على مئتي مليون سكان روسيا ومنشوريا وكوريا واليابان لم يلحق النفس منهم سوى شلن واحد

الثالث- ليس هذا بالشيء الذي يذكر وما منهم إلا وهو يحرق تبغاً أو أفيوناً بأضعاف أضعاف ذلك

الثاني- إذاً نحن متفقون على أن نمد اليابان بما تحتاج إليه من المال

الأول- نعم ولكن لا يحسن بنا أن نفعل ذلك مع الروس الآن لأنه لابد لنا من أضعاف روسيا بأية واسطة كانت حتى لا تقوى على اليابان وحتى تضطر أخيراً إلى عقد الصلح ودفع الغرامة فنقرضها الغرامة عن طيب نفس بعد أن نأخذ عليها الضمانات الكافية

الثالث- هل منعنا المال عنها الآن يكفي لأضعافها وجعلها تطلب الصلح

الأول- لا أظن لأن جيراننا الفرنسويين قد يغترون بمواعيدها ويمدونها بالمال أو تلجأ هي إلى المطل والتقهقر البطيء وترك اليابانيين في قفار سيبيريا القاحلة فلابد لما من واسطة فعالة الواسطة القديمة المعروفة التي الجأنا بها فرنسا إلى طلب الصلح من المانيا وهي الثورة الداخلية وهذه أمرها جارٍ على ما يرام فإن اجراءنا منتشرون في كل مكان ليحرضوا عليها ولم ننفق عليهم حتى الآن إلا جزءاً مما ربحناه وهب إننا أنفقنا عليهم كل ما ربحناه فالربح الواصل يكفينا. نعم لابد من الثورة الداخلية بحجة طلب الدستور أو بأية حجة كانت حتى تضطر الحكومة إلى عقد الصلح بالشروط

التي تشترط عليها

الثاني- إذاً لابد من الانتظار إلى ما بعد استفحال الثورة

الأول- نعم وإلى ما بعد سقوط بورت ارثر واندحار الجيوش في منشوريا والتغلب على الأسطول الروسي كله وقد يقتضي ذلك كله سنة أخرى من الآن ولكن ما هي السنة وما هي السنوات في حياة الأمم

وجلس السر ادورد برون وزوجته في مكتبه وقرأ كتابين واردين عليهما من ولديهما من دار الحرب فإن التلغرافات كانت ترد منهما تباعاً ولا سيما من هنري ولكن لا يذكر فيها إلا أخبار موجزة وأما هذان الكتابات ففيهما تفاصيل لا تحتملها الرسائل البرقية

كان هنري قد انضم إلى الجنرال كروكي كمكاتب حربي وسارت دورا مع جمعية الصليب الأحمر لتمريض الجرحي فكتبا يصفان ما لقياه في كوريا

قال هنري وصفت لكم في كتابي السابق ما لقيته في اليابان من الحفاوة والإكرام وإني سأتشرف بمقابلة الإمبراطور وقد حدث ذلك يوم سفري ولما ذكر السفير اسمي وأسمك يا أبي واسم لندن نيوز كرر الإمبراطور اسمي ورحب بي وسألني كيف وجدت بلاد اليابان ورجالي طيب الإقامة فيها وقال إنه مديون لنا وللأمة الإنكليزية عموماً وظهر لي من حديثه إنه عارف بمشتري الطرادين. ولم تطل مدة المقابلة إلا خمس دقائق لكثرة الأشغال والمهام ولما ودعت جلالته قال لي إنه لا ينسى اسمي واسم أبي فقال له السفير إنني سائر إلى دار القتال فوقف حينئذٍ مفكراً وهو ينظر إلى تارة وإلى السفير أخرى كأنه استغرب ذلك ثم قال سنوصي ناظر الحربية إذاً لكي يعتني

بك اعتناء خاصاً وعسى أن لا نسمع منك وعنك إلا كل ما يسر ونحن واثقون بالنصر لأننا أصحاب الحق الذي لا نزاع فيه والحق يقوى أصحابه ويشدد عزائمهم والبغي مرتعه وخيم ولكن ليس من السهل أن يقيم الإنسان على بساط الراحة مثلي وأولاده كلهم في ساحة القتال. ثم شد يدي وخرجت وأنا شاعر كأني فارقت أباً شفوقاً والحق أن رعيته كلها تنظر إليه كما تنظر إلى أبيها بل إلى معبودها. والكلام الأخير الذي كلمني به عن قيام الإنسان على بساط الراحة وأولاده في ساحة القتال كرره أو كرر مثله باللغة اليابانية وأظن إنه ترنم بشعر نظمه حديثاً لأنه من الشعراء المعدودين بل هو أبلغ شاعر في بلاد اليابان والناس يحفظون أشعاره ويترنمون بها وأكثرها يدل على حبه لرعيته وكرهه لكل ما يسؤها وسهره عليها سهر الوالد على أولاده

وتشرفت دورا بمقابلة الإمبراطورة ولابد من أن تصف لكم ما لقيته منها ثم سافرنا كلانا في سفينة حربية إلى كوريا ودخلنا سيول العاصمة وشاهدنا قصر الإمبراطور وقد جمع من ضروب الزخارف والسخائف ما يكل الفلم عن وصفه ولا أدري لماذا يحب هؤلاء المشارقة تقليد الغربيين في ما لا يحسنون إتقانه ولا تقليده وعندهم من فنون الصناعة الخاصة بهم ما يحق لكل أمة أن تفاخر به حتى اليابانيين تجد في غرفهم آنية وأمتعة فرنسوية أو إنكليزية مما نحسبه تحت الوسط وإلى جانبها أمتعة يابانية نفتخر لو رأينا شيئاً منها في أكبر متاحفنا. ولم اتشرف بمقابلة إمبراطور كوريا ولكنني رأيته عن بعدٍ

وسرت مع الجيش إلى أن بلغنا الحدود الفاصلة بين كوريا ومنشوريا وقد اخبرتكم تلغرافياً بالمناوشات القليلة التي وقعت في أثناء الطريق ولا أقدر أن أصف لكم مقدار اعتناء القواد والضباط

بالجنود وسهرهم على راحتهم. وأنا اجتمع مراراً بمندوبنا الحربي وهو يقول لي أن نظام الجيش تام وبسالته تفوق الوصف ويظهر أن إدارة المخابرات عندهم بلغت غاية ما رواءها غاية فإنها رسمت للجيش خرائط يرون فيها كل طريق وشعب ونهر وجدول وينبوع ومرتفع ومنخفض فضلاً عن المدن والقرى والمزارع. وإدارة اللوازمات والتشهيلات لم تترك شيئاً مما يحتاج الجيش إليه. ولا ضابط إلا وفي يده نظارة يرى بها عن بعد وعلى ذراعه ساعة وحك ليعرف الوقت والجهات ومع كل جندي تذاكر يكتب في التذكرة منها كلمتين ويضعها في صندوق البريد فيرسلها إلى أهله. وطعامهم ساذج ولكنه كافٍ ومغذٍ. والغريب من أمرهم وأمر ضباطهم إنهم لا يسكرون أبداً وقلما يشربون شيئاً من المسكر وأظن إنه لو لم نكن بينهم ما كانوا يذوقون مسكراً ولكنهم يحسبون الشرب من مجاملتنا فيشربون معنا قليلاً من الوسكي أو من الشبانيا

وكتاب هنري طويل وأكثره على هذا النسق. أما كتاب دورا فمختصر لأنها أصيبت بزكام شديد وهي في بلاد كوريا وكتبت كتاباً مسهباً عن بلاد اليابان قبل مغادرتها لها. وقد رأت من ويلات الحرب في من مرضتهم من جرحي الروس واليابانيين ما جعلها تحنق على الذين ساعدوا في إثارة هذه الحروب أو لهم أقل مشاركة فيها ولم تكن تبر راباها من ذلك ولو لم تكن تود البقاء بالقرب من أخيها لتركت التمريض والمرضى وعادت إلى بلادها. وقد غاظها من الجرحى اليابانيين إنهم كانوا يظهرون الاشمئزاز كلما دنت منهم أو دنا منهم غيرها من الممرضات الأوروبيات ولاسيما لما علمت إنهم يفعلون ذلك أنفه لأنهم يدعون أن للأوروبيين رائحة كريهة. أما الجرحى الروسيون فكانوا على غاية الوداعة ورأت في نفسها ميلاً

إليهم أكثر من ميلها إلى اليابانيين وسمعت ضابطاً منهم يتكلم الإنكليزية فأخبرها إنهم مسوقون إلى هذه الحرب على غير رضاهم وأن أكثر إخوانه يجهلون مقدرة اليابانيين وأما هو فلا يجهلها ولكنه صغير لا يسمع أحد قوله. وختمت كتابها بتطمين والديها عنها وعن أخيها وبحث أبيها على بذل الجهد في ما يقرب عقد الصلح حجباً للدماء ودفعاً لهذه الويلات

لما أتمت لادي برؤن قراءة الكتابين التفتت إلى زوجها وقالت له ما ظنك يا ادورد هل تطول هذه الحرب وهل يسفك فيها كثير من الدماء

فقال هذا هو المرجح عند الذين يوثق بعلمهم. ويقال أن السنة تنقضي ولا تنقضي الحرب لأن روسيا لا تسلم إذا انكسرت ولا تسلم إذا انتصرت

فقالت وهل تستطيع اليابان أن تستمر على تعبية الجنود ومداومة القتال. فقال نعم تستطيع ذلك على ما يظهر وأصدقاؤها يساعدونها بالمال إن لم يستطيعوا أن يساعدوها بالرجال

فقال بئس العمل وبئس المساعدة نساعد الناس حتى يقتل بعضهم بعضاً

فقال لقد قلت لك مراراً يا ادث أن سلامة إمبراطورتينا تتوقف على أضعافنا الروس لأن انظارهم طامحة إلى الهند وقد اهتم القائد العام بتقوية الجيش الهندي وتسهيل طرق النقل والمواصلات ولكنه مهما قواه ومهما سهل له الانضمام يبقى دون الجيش الذي يسهل على روسيا أن تضرب الهند به. وإذا استطاعت روسيا أن توقد نار الثورة في تلك البلاد فجيشنا لا يكفي لإخمادها فكيف نلقي به

ثلثمئة ألف أو أربع مئة ألف من الجنود الذين تستطيع أن ترسلهم إلى الهند. فحياتنا وموتنا كلمة عظيمة يتوقفان على هذه الحرب

فقالت الظاهر إنك تنسى أن ثبوت أقدامنا في بلاد الهند يتوقف على حسن إدارتنا لها فإذا أحسنا إدارتها وعاملنا الهنود كإخوان لما كأننا وإياهم رعية ملك واحد فلا يثورون علينا كما لا يثور بعضنا على بعض ويستحيل أن يتوخوا إبدال حكمنا بحكم الروس كما يستحيل أن يفكر أهالي ادنبرج مثلاً في إبدال حكم الإنكليز بحكم غيرهم. وأما إذا كنا نمتهنهم ولا نعاملهم بالإنصاف ولا نساويهم بنا فإنهم يثورون علينا ولو ضربنا حولهم نطاقاً من الحديد. وسيكونون أقرب إلى الثورة بعد فوز اليابان منهم الآن لأننا طالما حاولنا إقناعهم بمعاملتنا لهم أن الشرقي دون الغربي ولا يمكنه أن يحكم نفسه بنفسه ويفلح فإذا فازت اليابان على دولة الروس العظيمة امحي كل ما حاولنا ترسيخه في أذهانهم عن ضعفهم وترفعنا عليهم ورسخ فيهم إننا نحن علة تأخرهم عن مجاراة اليابانيين وتمكنت العداوة لنا من نفوسهم. وسنرى إنهم هم وأهالي الصين يشرعون من الآن في اقتباس طرق اليابانيين لكي يقووا مثلهم وقد نفلح في منعنا السلاح عنهم من البحر ولكن لابد من أن يصل إليهم عن طريق روسيا بأية واسطة كانت فلا سلامة لنا في الهند إلا إذا ساوينا الهنود بأنفسنا وحينئذٍ تصير بلاد الهند مثل كندا واستراليا ولا تبقى كما هي الآن

فضحك زوجها وقال انسيت ما قال بسمارك

فقالت كلا لم أنس ما قاله عدو النساء ولا أدري كيف سكتم عنه وزمامكم كان في يد امرأة. وأنا وأنت على طرفي نقيض في هذا الموضوع وقد لا استطيع إقناعك كما لا تستطيع إقناعي ولكن أرجو

أن توافقني على إرجاع ولدينا فإني أرى من كتاب دورا إنها غير مسرورة ولعل صحتها ليست على ما يرام ولم نرب ابننا ليكون ضابطاً ولا قائد جيش وليس من الحكمة أن نغرر بحياته لمصلحة مالية فإن كان ذهابه لغاية سياسية فقد قضاها ومكاتبة الجريدة أمر يستطيعه كل أحد ولذلك أرى من الحكمة بل من الواجب أن نرسل إليهما تلغرافاً ليحضرا حالاً

فقال سكني روعك فإنني أظن إنهما يستاءان جداً إذا طلبنا منهما الرجوع الآن

فقالت نطلب منهما الرجوع ولا نلج بل نترك لهما التصرف المطلق كأن نقول لهما إننا نفضل رجوعكما سريعاً

فقال أن تلغرافاً مثل هذا يقلقهما ويقلق غيرهما لأن إدارة المخابرات اليابانية لابد وأن تطلع عليه

وبعد بحث طويل أرسلا إليهما تلغرافاً يقولان فيه إننا نود رجوعكما في أول فرصة ممكنة

في بطرس برج

سرجيوس- هل قرأتم التلغراف الذي ورد قبل الظهر

فلادمير- التلغراف الذي نشرته نظارة الحربية. من يصدق تلغرافاتها

سرجيوس- هذا التلغراف لم تنشره حتى الآن ولكن لابد لها من نشره اليوم لأن القيصر لابد وأن يأمر بجناز عن نفوس الغرقي

أولغا- أي غرقي

سرجيوس- الأميرال الأميرال ميكاروف وكل من في بارجته بتروباولسك غرقت البارجة بلغم مسته وهي راجعة إلى بورت ارثر من مطاردة اليابانيين. مست لغماً من الغامنا فانفجر وأغرقها بمن فيها ولكن نجا الغراندوق سرل فلابد من أن تكون الصلاة للترحيم على الغرق وللشكر على نجاة الغراندوق أو نبدأ بالشكر على نجاته ثم بالترحيم على المئات الذين غرقوا

أولغا- أصحيح ما تقول هل قرأت التلغراف بنفسك

سرجيوس- نعم صحيح ونحن مهما كانت مقاصدنا لا يسعنا إلا الحزن على ما جرى لأن الذين غرقوا إخواننا ولا ذنب لهم حتى يذهبوا ضحية سوء التدبير وقد اجتمعت بمير أمس فأكد لي أن هذه الحرب لا تنتهي ما دامت البلاد تبني البوارج وترسل الفيالق وأن هذه أفضل فرصة لنا لمطالبة القيصر بالدستور فإذا سمح لنا بحكومة نيابية فالحكومة تضطره إلى أبطال الحرب حالاً أو إلى عقد الصلح قبلما يتسع الخرق على الراقع ومن رأي مير إننا إذا شرعنا في التهييج من الآن لا نستطيع أن نتمم عملنا وننال بغيتنا قبل سنة من الزمان

أولغا- الكلام سهل ولكن العمل صعب

فلادمير- ومن أين المال. فإن صندوقنا يكاد يفرغ

سرجيوس- قال مير إننا إذا شرعنا في العمل الآن فهو يضع تحت أمرنا مئة ألف روبل ومتى نفدت يضع غيرها

أولغا- لم يصدق معنا في المرة الماضية فقتل أخي الكسي وأرسلت هيلانة إلى سيبيريا

فلادمير- ليس اللوم عليه فقد سلم إلى أكثر من ستين ألف روبل ولكن الدنيا قامت علينا حينئذٍ

أولغا- لم تقم الدنيا علينا ولا قام أحد ولكن أتته الأوامر من الذين يدفعون المال ليكف عن الدفع فسافر إلى كارلسباد بحجة التداوي وتركنا نحرق أصابعنا

فلادمير- كيفما كان الحال في الماضي فالفرصة الحاضرة لا تفوت ولا أحد يلومنا الآن على ما نفعل لأن الغرض منه النفع العام

بطرس- وهل يتوخى مير ما منه نفع عام. إليكم عن الغرور والتغرير فإن قومه لا يطلبون إلا نفع أنفسهم ولو خرجت الدنيا

سرجيوس – أصبت ولكن يتفق أحياناً كثيرة أن ينفع الإنسان غيره وهو يطلب نفع نفسه

بطرس- أنا معك في هذا أما القيام بثورة جديدة فلا فائدة منه ما لم نضرم نارها في كل المدن الكبيرة

سرجيوس- ما دامت البلاد مستعدة لهذه الثورة فهي تنتشر فيها من نفسها ولا يطلب منا إلا أن نصب الزيت عليها

أولغا- هل وضعت الخطة التي يجب السير عليها

فلادمير- قبل وضع الخطة يجب أن نعرف إلى أي حدٍ يتصل استعداد مير لدفع المال

سرجيوس- رأيت منه اندفاعاً شديداً هذه النوبة ولا استغرب إذا كان يعطينا مليون روبل

أولغا- مليون روبل هذا لا يمكن لأنه لا يملك أكثر من ذلك

فلادمير- إذا أراد وكان له ولإخوانه مصلحة فلا يكثر عليهم أن يدفعوا عشرة ملايين

بطرس- كيفما كانت الحال فالوقت الحاضر لا يوافق لتحريك الثورة لأن الأمة كلها مجروحة ومغتاظة ولكن متى سكن ألمها قليلاً وطلبت منها أموال جديدة وجنود جديدة فحينئذٍ نجد من يسمع كلامنا

فوافق الباقون على هذا الرأي وعلى بقاء المخابرة مع مير وعلى أن الغرض نفع البلاد لا غير

في طوكيو

اجتمع مجلس النظار وتليت عليهم الأخبار التلغرافية من الإميرالية وقواد الجيوش البرية فقال الجنرال الكونت تارو كتسورا رئيس النظار لم يكن فوزنا حتى الآن أقل مما انتظرنا وقد احسن الأميرال طوغو بوضع الألغام في مدخل البوغاز وهي فكرة صائبة ولو قيل له كم تؤمل منها ما كان أمل أكثر مما نال لأن غرق الأميرال ميكاروف على هذه الصورة لابد وأن يضعف عزائم الروس

فقال الدكتور يوزورو كوبوتا ناظر المعارف ألم تبد روسيا أقل ميل حتى الآن إلى عقد الصلح فأجابه ناظر الخارجية ولا ينتظر منها ذلك لاسيما وأن أسطولها لا يزال قوياً. وقال الجنرال مساتاكي ناظر الحربية وزد على ذلك أن بورت ارثر محصنة أقوى تحصين وإذا استطعنا فتحها في شهرين أو ثلاثة فيكون السعد خادماً لما أكثر مما ننتظر وعندي في قلم المخابرات أدلة قوية على أن فتحها يكاد يكون ضرباً من المحال إذا لم يقع الشقاق بين قواد حاميتها أو لم نوفق إلى سحق أسطولها ثم نأتيها بمدافع الحصار ونقطع سكة الحديد

عنها. وأماكن الجيوش البرية حصينة جداً فإن الروس مستعدون لهذه الحرب من حيث الحصون والمدافع وما أشبه أكثر مما هم مستعدون من حيث عدد الجنود

وقال ناظر المالية لابد لنا من قرض آخر قريباً ولا صعوبة في عقده على ما يبلغني.

فقال ناظر المعارف لقد خصصنا لهذه الحرب الأموال المتوفرة عندنا وهي نحو ٤٠ مليون ين وكل ما يزيد من احتكار التبغ وهو نحو ٦٠ مليون ين واستدناً في أوائل فبراير مئة مليون ين فهل إذاً استدنا مئة مليون أخرى تكفينا إلى نهاية الحرب

فقال ناظر البحرية إن هذا الأمر لا يعلمه إلا علام الغيوب لأن الفواعل في الحرب كثيرة جداً كما لا يخفي على حضرة الناظر وأكثرها غير خاضع لإرادتنا ولكننا باذلون غاية جهدنا في إنجاز عملنا بأسرع ما يمكن

رئيس النظار- لا شبهة في أن رجالنا كلهم قاموا بما يجب عليهم لإمبراطورهم وأمتهم. ولما ذكر لفظة امبراطور نهض النظار كلهم وقوفاً ثم جلسوا

فقال ناظر الخارجية أصبت وكل سفرائنا يكتبون إلى عن إعجاب الدول الأوروبية بما فعلناه حتى الآن

وبعد محاورة قليلة في هذا الشأن قر قرارهم على عقد القرض بأقل ما يمكن من الربا وفوضوا إلى ناظر المالية عقده بعد مصادقة مجلس النواب

القاهرة

استير- أبوك أحسن جداً فقومي نخرج إلى النزهة

بهية- نعم أحسن والحمد لله ويا حبذا لو خرجت أمي وبقيت أنا عنده لأنها لم تخرج من البيت منذ عشرة أيام

استير- قولي لها فإني أودها مثل أمي تماماً وأظن أن كل أحد يودها لأنسها وبساطة قلبها

بهية- أصبت ويجب أن نشكر الله لأن أمي وأمك قريبتان إلى القلب جداً ولا أدري كيف تقدر البنت أن تفارق أمها

استير- آه ما هذا وهل يخطر ببالك أن تفارقي أمك ومتى وإلى وأين. أنا شاعرة بذلك ولكنك لم تخبريني حتى الآن. قومي وتعالي معي وأخبريني وأنا أخبرك شيئاً آخر

فقامت بهية وقالت لأمها أن استير آتية لتخرج معها إلى النزهة وإنها هي تفضل أن تبقى مع أبيها وتخرج أمها بدلاً منها. فتنهدت أمها وقالت لها أخرجي أنت لأنك أحوج مني إلى النزهة وقد أرسلت هانم أفندي حرم راغب باشا تقول إنها آتية لزيارتنا فلابد من بقائي في البيت

فخرجت بهية مع استير ولم تكادا تركبان المركبة حتى قالت استير لبهية هل كتبت إليك مس برون. فأحمرت وجنتا بهية وقالت نعم كتبت. كتبت مكتوباً طويلاً ما أمهرها في الكتابة

استير- وماذا قالت لك عن أخيها

فنظرت بهية إليها ثم أطرقت ولم تقل شيئاً

استير- أتخفين عني يا بهية

بهية- أنظري في أي حال نحن أمين لم يقم إلا منذ يومين وأبي لم يزل على حاله وماذا أقول لك صدقيني إني كرهت الدنيا وكرهت الحياة

استير- سينتهي كل شيء على خير ويعود هنري بالسلامة. قالت ذلك باسمة ثم ضمت استير إليها وقالت لها قولي لي ماذا تم بينكما

بهية- لم يتم شئ ولم يقل كلمة لأبي ولا لأمي وقد طلبت أن يكاتبني فأبيت والظاهر إنه أخبر أخته وهي تكتب لي مع كل بريد وكان كلامها عمومياً إلا في كتابها الأخير فإنها قالت لي أن هنري قلق جداً وإنه يود أن يتم شغله ويعود بأسرع ما يمكن وتطلب مني أن أخبرها أين نحن عازمون على تمضية الصيف

استير- أهذا كل ما في مكتوبها

بهية- كلا ولكن هنري نفسه أخذ مكتوبها وكتب لي حاشية فيه يقول فيها إني منعته من أن يكتب لي ولكنه لا يظن أن هذا المنع يتناول أن يكتب لي حاشية في مكتوب أخته

استير- وماذا كتب إليك

بهية- كتب إلى ما جعلني أبكي ساعتين. قالت ذلك وهطلت الدموع من عينيها فضمتها استير إلى صدرها وجعلت تقبلها وتقول لها يجب أن تشكري ربك لأن أبي يقول أن هذا الشاب من أحسن الشبان الذين رآهم وأبوه من الأغنياء أهل الوجاهة وسيرث مقام أبيه لأنه بكره فتصيرين لادي برون

بهية- ولكن أين نحن وهو في ساحة القتال

استير- إذاً هذا هو الذي شغل بالك وأبكاك ولماذا لا تكتبين إليه ليرجع حالاً

بهية- قال إنه سيرجع قريباً ولكنه ختم الحاشية التي كتبها إلى بقوله أن الحالة لا تخلو من الخطر على حياته لأنه عازم أن يزور معسكر الروس قبل رجوعه ولأن الحميات منتشرة هناك الآن وقال إنه إن رجع سالماً فهو لي إن قبلته وإلا فسلامته وعدمها على حدٍ سوى بالنسبة إليه. وقد عقبت دورا على حاشية أخيها فقالت إنه دائم التفكير في وإنه أخذ صورتي منها وهي معه دائماً. ومع ذلك أشعر يا استير كأن بلاطة على صدري فلقد صدق من قال إن المصائب لا تأتي فرادي. لقد أخبرتك كل شيء فهاتي أخبريني أنت فإن في وجهك خبراً. هل ودعك أمين قبل ذهابه إلى الاسكندرية وهل ما يقال عن ابن عمك صحيح

استير- نعم مر أمين علينا وودعني وقد تغير كثيراً. وموسى أجبناه بالرفض لأني لا أميل إليه. والحق أقول لك إني لا أميل إلى أحد. احرزي من طلبني أيضاً طلبني حليم بك. هو شاب طيب جداً ولا بأس به ولكن اتستسهلين أن تتزوج الواحدة رجلاً لا من شعبها ولا من ملتها. نعم إن كثيرات يفعلن ذلك ولكن تكون الواحدة منهن مع زوجها كأنها غريبة عنه أو تضطر إلى تغيير عاداتها ومشاربها لكي توافق عادته وعادات قومه ومشاربهم وهذه ليست المعيشة الزوجية التي الفناها في بيوتنا ولا هي المعيشة التي يجب أن تكون ولا أقول ذلك بالنسبة إليك وإلى المستر برون بل بالنسبة إلى إذا اقترنت بابن راغب باشا

بهية- ولماذا لا يكون قولك بالنسبة إلي وإلى هنري فإن عادات

قومه واطوارهم أبعد عنا من عادات بيت راغب باشا عنكم. ألا تظنين أن ذلك من جملة الأسباب التي تقلق بالي ولكنني لا أعلم كيف اتغلب عليها وتزول من فكري أحياناً كثيرة وأظن أن هذا ينطبق على قولهم في العربي عين الحب عمياء (لأنهما كانتا تتكلمان باللغة الفرنسوية على جاري عاداتهما)

استير- هذا هو الصواب ولو كنت أحب حليماً لا غضبت عن المصاعب التي أراها الآن

بهية- لقد كنت أحلم وأمني نفسي بأنك تكونين لأمين وأمين يودك كثيراً ولكنه من حين علم مقدار الخسارة التي لحقت أباه بسببه ضعفت عزائمه وصغر في عيني نفسه. لعن الله البورصة فإنها تميت نفس الشريف وتضعف عزيمته

استير- أن خسارته كبيرة ولكنها طفيفة بالنسبة إلى ثروة أبيك وقد دفعها أبوك كلها ولم يقل شيئاً

بهية- لم يدفعها أبي بل دفعها أبوك عنه وحسبها علينا ولكن ألا تظنين إنها أثرت في أبي حتى أضعفت صحته وهي وسقطة أمين كانتا سبب مرضه لا من حيث الخسارة نفسها بل من حيث نوعها فإنه لو اشتغل شغلاً قانونياً يرضاه أبي ثم خسر به ضعفي ما خسره الآن ما كان تألم من ذلك قدر ما تألم الآن ويخاف أبي أن يبقى أمين متعلقاً بشغل البورصة ولكن لا أظن إنه يكون كذلك لأني أراه في أشد الندامة على ما فعل وهو يقول أن عزرا غشه وإنه يستحيل أن تكون خسارته بلغت هذا الحد. أو لا تريدين أن أقول شيئاً ضد عزرا

استير- قولي ما شئت فإني أعلم خبثه وأخاف أن يكون قد فعل ما فعل بأمين لكي يبعدني عنه ولكن لابد من أن ينال جزاءه أو كما

يقول المثل العربي على الباغي تدور الدوائر

بهية- أنا شاعرة بشيء من ذلك فإذاً لا فكر لك في عزرا ولا موسى ولا حليم وسترين من أمين غير ما تظنين بعد أن ينسى هذه الورطة التي وقع فيها. وكلمة منك تنعش فؤاده وتشدد عزيمته

فلم تقل استير شيئاً ووصلنا حينئذٍ إلى موقف المركبات في سكة الأهرام وسلمتا على كثيرات من اللواتي رأتاهن هناك ثم عادتا ومرتا على بستان الحيوانات ودخلتاه ومشتا فيه ولم تعودا إلى الموضوع الأول إلا بعد رجوعهما حينما ودعت استير وبهية فإن بهية قالت لها ماذا أقول لأمين حين أكتب إليه. فقالت استير سامي عليه وقولي له أن يعتني بصحته ولا يبعد أن ننزل نحن إلى الرمل أيضاً بعد نحو عشرة أيام وسنتكلم في هذا الموضوع في فرصة أخرى ثم تعانقتا وقالت بهية لاستير تعالى ادخلي معي فإنني أظن أن أم حليمة عندنا وهذه مركبتها

فقالت استير قد فات الوقت الآن والظاهر أن حليمة قامت حتى صار يسهل على أمها أن تفارقها مع إنه بلغني أمس إنها نكست فأدخلي الآن وسأزورك غداً فتخبريني بكل ما تقوله لك

ودخلت بهية وسلمت على أم حليمة فاعتنقتها هذه عنها وعن ابنتها وقالت لها أن ابنتها عادت إلى سريرها ويقول الطبيب إنه يخشى من أن شظية من العظم بقيت في خاصرتها وإنه ربما يضطر أن يعمل لها عملية أخرى لأن الحمى عاودتها من أول أمس

فسألتها مدام واصف بك عن نجم الدين وما فعلوا به. فقالت أن أهله أدعوا إنه مجنون لكي ينجوه من العقاب وهو مسجون الآن وجاء محام إيطالي مشهور يقال إنه درس عند عالم إيطالي يدعي أن

المجرمين كلهم مجانين فألف رسالة يزعم فيها أن نجم الدين مجنون وأن حليمة سبب جنونه فكأنه يلقي اللوم علينا. أرأيت خبص هؤلاء المحامين. أما الباشا فيقول أن لابد من تأديبه حتى يكون عبره لغيره. وبعد حديث من هذا القبيل قامت وودعت ودعت بهية لتأتي من الصباح وترى حليمة

*****

الفصل السادس والعشرون

بين الحاضرة والآخرة

- قلت لك يا هانم لا يخلص ستي حليمة إلا الزار مالي ومال الحكما أهو بقا لهم شهرين يعالجوا فيها عملوا إيه

- أتظنين يا فاطمة إنه يمكننا أن نعمل الزار هنا في السرايا من غير ما يدري الباشا

- لا ما يمكنشي لأن الزار بدو أربع وعشرين ساعة ودق وزيطة ولكن أنا كلمت شيخة الزار حتى تعملوا في بيني لستي حلمية والشيخة تجي الليلة وتبخر ستي حليمة وتكتفي هنا بالبخور والليلة فرح في بيت حقي باشا وأن راح الباشا لهناك ما يرجعش قبل نصف الليل ونحن ساعة واحدة تكفينا وبالكثير ساعتين

- فجلست أم حليمة تفكر في هذا الأمر وهي تدخن سيكارة دقيقة ثم نهضت ودخلت غرفة حليمة وجست نبضها وجبينها وجلست إلى جانب سريرها وفاتحتها بموضوع الزار. وكانت قوى حليمة قد نهكت من العملية الأخيرة وتواصل الحمى وضعفت إرادتها جداً فالأمر الذي كانت ترفضه أولاً رفضاً باتاً ضعفت عن رفضه الآن فقالت لأمها أفعلي ما بدالك أما أنا فلا استطيع المشي ولا الوقوف

فقالت لها أمها أن فاطمة تقول إنهم هم يعملون الزار في بيتها ويكتفون هنا بتبخيرك

فتململت حليمة وقالت لأمها أن تخبر أباها وأخاها على الأقل أن لم تشأ أن تخبر الطبيب. وكانت تتكلم بالتركية بصوت متقطع ولما رأت أن أمها بقيت صامتة ولم تتكلم قالت لها أن تفعل ما تشاء بشرط أن لا يجبروها على القيام والمشي ولا يرفعوا أصواتهم كثيراً. وخرجت أمها وتداولت مع فاطمة مدة وقر القرار على أخبار شيخة الزار لتحضر تلك الليلة وتعمل أبسط ما يمكن أن يعمل

وكانت أفكار حليمة سريعة التنقل من موضوع إلى موضوع فراجعت ماضي حياتها من حين كانت طفلة وتردد في بالها ما حفظته غيباً من الآيات والأشعار العربية والتركية والفرنسوية وأحاديثها مع أمها وأبيها وأخيها لأن راغب باشا لم يكن يهمل الكلام مع أولاده وقص القصص عليهم. وكررت أيضاً ما كانت تسمعه من معلمتها الفرنسوية عن السماء وجهنم والثواب والعقاب فقالت إلى أين أمضي بعد الموت وحاولت أن تنظر إلى ما وراء القبر فلم تر إلا ظلاماً دامساً ثم قالت أن كل المعلمين والمهذبين يأمروننا بعمل الصلاح وأنا لم أضر أحداً ولا قصدت ضرر أحد فإلى أين أذهب بعد الموت وكيف يكون حال أمي بعدي لابد من إنها تنساني كما نسيت أختي توحيدة كم بكت عليها وكم ناحت نعم إنه مضى على ذلك خمس سنوات الآن ولو بقيت توحيدة لكانت صبية. كان عمرها تسع سنوات لما ماتت. يا حبيبتي كانت تحبني أكثر من كل أحد وقد فارقتني منذ خمس سنوات. فراق طويل جداً ولكنني لا أنساها أبداً وسأذهب إليها نعم سأذهب إليها سريعاً وهي الآن في انتظاري. ما أعظم سروري بها حين أراها. أظنها صارت طولي الآن ولكن هل يطول الجسم بعد الموت وهل ينمو كما ننمو أجسام الأحياء. أن أجسام المصريين القدماء التي في الانتسكخانة لم تزل على حالها

الكبير كبير والصغير صغير حتى الطفل لم يزل طفلاً وقد بقيت محفوظة لأنها محنطة ولو دفنت في الأرض كما ندفن نحن لا نحلت وصارت تراباً فأين التقى بها يا توحيدة يا عزيزتي بعد أن صرت تراباً ورماداً وهل أصير أنا تراباً مثلك أصير تراباً ولا يبقى شيء من جسمي وشعري. كان لي جسم أما الأن فصرت جلداً وعظماً وسيبلي كله. ما أفرغ هذه الحياة التي نهايتها الموت والبلي. من أرى بعد الموت ومن أعرف ومن انتظر ومن ينتظرني. لم يعلمني أبي شيئاً ولا علمتني أمي عماً يكون بعد الموت. نعم أن المداموازل كانت تقول لي إننا نجتمع في السماء ونرتل مع الأبرار ونمجد الله ولكن كيف نرتل لله وكيف نمجده ونحن من غير أجسام. آه يا أمي ما هذا الصداع. كيف نمجده من غير أجسام. الفم يبلي واللسان يبلي فكيف نتكلم ولا لسان لنا ولا فم ولكن ها أنا أتكلم الآن أفتكر فكراً ولا أحرك لساني ولا فمي. آه نعم نعم نستطيع أن نتكلم من غير لسان نتكلم بالفكر وهذا الفكر يبقى ولا يموت فإن الجسم ينام في الليل والفكر يبقى فقد يبقى الفكر حياً بعد موت الجسم. قد يكون ذلك صحيحاً وقد لا يكون يا حبذا لو أتى الشيخ أحمد إلى هنا فإنه يعلم كل شيء وكنت اسأله وحليم بعلم أيضاً فسأسأله متى حضر. أين هي الآن. مسكين حليم كنت أريد أن يقترن باستير. هل أرى توحيدة بعد الموت نعم أراها بدون جسمي أراها هوذا أنا أراها الآن أراها بعين العقل ولكن هل يبقى العقل من غير جسد إن كان عقلي يبقى فعقلها يبقى فلماذا لا تكلمني مطلقاً. حلمت بها مرتين أو ثلاثاً في السنة الأولى ثم لم أعد أحلم بها. أين أنت يا توحيدة يا حبيبتي كلميني. نعم سأراك ولا أعلم كيف أراك ولكنني سأراك. آه يا ربي ما هذا الصداع آه يا أمي يا رأسي

ثم فتحت عينيها فرأت أمها واقفة تنظر إليها والممرضة تروح لها بمروحة فتبسمت لهما وقالت لأمها أتعلمين مع من كنت أتكلم الآن. كنت اتكلم مع توحيدة كنت أفتكر فيها وقد رأيتها وكلمتها ولكنها لم تكلمني. فجالت الدموع في عيني أمها وأدارت وجهها ومشت إلى مقعد جلست عليه وقد تشاءمت من ذلك ودخل راغب باشا حينئذٍ ورآها على تلك الحال فأوجس شراً ودنا من ابنته وقبل جبينها فتبسمت وقالت له أين حليم فقد مضى من الصباح وما عدت أراه. فأجابها إنه سيأتي الآن وقد ذهب لمساعدة بين حقي باشا في مهام العرس لأن سنية ستتأهل هذه الليلة وهي وأمها تسلمان عليك وقد أسفنا جداً لأنك لا تستطيعين أن تحضري الزفة

ودار إلى حيث تضع الممرضة قائمة الحرارة والنبض فنظر فيها وجس نبض حليمة ومسح العرق عن جبينها ثم أدنى كرسي من سريرها وجلس قرب رأسها. وقامت أمها وخرجت وهي لا تكاد تستطيع الوقوف لشدة ما حل بها ومضت إلى غرفتها وقد تذكرت الجرح القديم وكأنها رأت أن حليمة ستتبع أختها ففاضت الدموع من عينيها واستسلمت للبكاء والنوح ونظرها الجواري كذلك فخفن من الدنو منها لأن مهابتها كانت شديدة في نفوسهن

وأتى الطبيب حينئذٍ وأكثر من وضع أكياس الثلج على رأس حليمة نحو ساعة فاستراحت كثيراً واطمأن بال ذويها. وأتت شيخة الزار في المساء وبخرتها فلم تقلقها وارادت الممرضة أن تمنعها أولاً ثم لما علمت أن ليس مرادها سوى إطلاق البخور وظنت إنه فرض ديني فكفت عن منعها لاسيما وإنها كانت تعلم أن إطلاق البخور بفيد ولا يضر لأنه مميت للمكروبات ومطهر للفساد. وقد تكفلت الشيخة إنها تصنع الزار في بيت آخر ومع ذلك تصل الفائدة منه إلى

حليمة على خلاف العادة المتبعة لأن حليمة أبت أن يعمل الزار في غرفتها ولم تكن أمها تجرأ على عمله ولا كانت واثقة أن منه فائدة

ومرت فاطمة على بيوت عشر من النساء وأخبرتهن أن شيخة الزار عازمة أن تعمل الزار في بيتها من أجل حليمة بنت راغب باشا فاعترضن عليها وقلن إنه لا ينفع ما لم تركب حليمة نفسها على خروف الزار فقالت فاطمة بل ينفع وإنها هي تقول مقامها وقد أكدت لها الشيخة إنه ينفع كما لو كانت حليمة نفسها الراكبة إذا وضعت في بالها أن الزار عمل لأجلها. وأن أم حليمة أعطتها مئة جنية لتعمل الزار بها. فقمن من الصباح التالي وأخذت كل واحدة منهن ملابسها الغريبة التي تلبسها وقت زفة الزار الواحدة لباس رجل صعيدي والأخرى لباس مغربي والأخرى لباس سوداني وهلم جراً وأتين إلى بيت فاطمة وأتت الشيخة فأعطتها فاطمة أجرة عملها عشرة جنيهات وأعطتها مال المخالفة لئلا يهتدي البوليس إليها فيكتبها في المخالفات ووزعت على كل من الباقيات خمسة جنيهات خمسة جنيهات ثم لبسن ثياب الزار الغريبة وأتين بخروف ألبسنه شالاً من الكشمير أتت به فاطمة من بيت راغب باشا وأوقدن الشموع وأطلقن البخور وسألن الشيخ الذي على فاطمة عما يريد أن تلبس فأخرجت لسانها من فيها وقالت إنها تريد أن تلبس جلد نمر وعشرين عقداً من الفضة والخرز المذهب وكانت قد أعدت ذلك فألبسنها إياه وابتدأت الزفة بنقر الدفوف والإكثار من إطلاق البخور والغناء والزئاط وأركبن فاطمة على الخروف وطفن بها في جوانب الغرفة نحو ساعتين من الزمان ثم ذبحن الخروف وغسلن أيديهن بدمه ومسحن به وجوههن وأخذه طباخ فسلخه وطبخه لهن فأكلن منه الظهر والمساء وشرين السوبيا وهي نقاعة الأرز

ومسحوق القرفة وبقين في غناء ورقص ونقر على الدفوف وإطلاق للبخور الليل كله إلى أن طلع الصباح وقد نهكت قواهن وأرتمين على الأرض لا يستطعن الحراك والشيخة تنادي الشيخ الحال على فاطمة وتأمره بتركها وهو يجيب أحياناً بالتهكم عليها وأحياناً بالانقياد لها

هذا ما كان في بيت فاطمة وأما حليمة فأصبحت وقد ارتفعت حرارتها درجة عما كانت في الصباح السابق فقلقت الممرضة واستدعت الطبيب فوقف يهز رأسه وأستدعى جمعية الأطباء والجراحين فحكموا بوجوب العملية لنزع شظية العظم وما يمكن أن يكون حولها من الصديد

*****

الفصل السابع والعشرون

تقرير برودي

كلكتاً في ... لم أكتب قبل الآن لأنني لما وصلت إلى يوكاهاما نزلت في مركبة قاصداً الغراند هوتل فسارت بي المركبة إلى دار المحافظة بدلاً من المسير إلى الهوتل ولم أشعر إلا وأنا بين نفر من الحراس فساروا بي إلى سجن مظلم وتركوني فيه. وعبثاً كنت أنادي وأقول إني رجل إنكليزي وأطلب أن يرسل جوازي إلى قنصلي وبح صوتي وأنا أنادي وأستغيث ولا مجيب ولا مغيث. وبعد ساعتين من الزمان جاءني ضابط يعرف الإنكليزية وقال لي أن ولاة الأمر اكتشفوا إنني جاسوس لروسيا من حين كنت في البحر الأحمر وكل المكاتيب التي كتبتها من ذلك الحين محفوظة الآن في قلم المخابرات وهم غير عازمين أن يفعلوا بي شراً وإنما يبقونني في هذا السجن إلى أن تنتهي الحرب ويعقد الصلح وحينئذٍ يطلقون سبيلي. وطلب إلى أن أقبل مصيبتي بالصبر لأنني أنا الجاني على نفسي. قال ذلك وخرج وأقفل الباب وراءه

ولا تسألوا عما حل بي حينئذٍ لأن الحق قهار. ولم آسف على نفسي بل أسفت لأن خدمتي ضاعت وتعبي ذهب سدي ولولا مرض حل بي من شدة البرد في ذلك السجن ومن سخافة الطعام لكنت الأن لا أزال فيه لا أسمع غير رسف قيود المسجونين. ولم أعد أرى ذلك الضابط إلا مرتين وفي المرة الثانية أنست به وتوددت إليه واعترفت له بذنبي بعد أن أعطيته الإشارة الماسونية وعرفت إنه من

الإخوة. ثم سألته كيف عرفوا إنني جاسوس فضحك وقال الأمر سهل فإن خدام السفينة يغيرون الورق النشاش على مائدة الكتابة مرتين كل يوم ويدققون نظرهم في ما ينطبع عليه وقت تنشيف الكتابة فيكتشفون أموراً كثيرة والظاهر إنهم اكتشفوا من كتابتك إنك جاسوس للروس فصادروا مكاتيبك واطلعوا على ما فيها فعرفوا حقيقة أمرك ولو كانت بالروسية لأن قلم المخابرات عندنا يعرف كل اللغات الأوروبية

فسألته عما إذا كانت نجاتي ممكنة وإني أعدهم بالسفر حالاً. فوعدني إنه يبذل جهده في ذلك ثم لم أعد أراه والظاهر إنه دعى للحرب وإلا لرأيته أو سمعت عنه لأنني أبديت له إشارة الضيق ولا يسعه حينئذٍ إلا أغاثتي. ثم مرضت ونقلت إلى مستشفى السجن ووجدت أن طبيب المستشفى من الإخوة ويتكلم الإنكليزية والألمانية وقد درس في ألمانيا فسألني عن أمري فأخبرته. ولما نقهت سعي في خلاصي فوضعوني في سفينة آتية إلى كلكتا بعد أن أقسمت لمدير قلم المخابرات إنني لا أعود إلى بلاد اليابان أبداً. وأعادوا رسمي وقياسي وأعادوا أيضاً رسم أناملي أي دهنوا أناملي بالحبر وطبعوها في كتاب عندهم ثم أعطوني جواز السفر

وأنا الآن في كلكتا ولم أجسر أن أرسل إليكم تلغرافاً لئلا يعلم لدى رجال الحكومة هنا وأخاف أن يكونوا عارفين بي أن تكون حكومة اليابان قد أخبرت حكومة الهند بكل ما توقع لأني أرى اثنين يقتفيان خطواتي كيفما سرت. وهذا الكتاب مرسل ضمن كتاب لأمي ولا أدري موجباً للانتظار هنا لأنني لا استطيع أن آتي عملاً ولذلك سأعود إلى انكلترا في الأسبوع القادم

وقد تحدثت مع الطبيب ملياً وفهمت منه أن استعداد اليابان

يفوق التصور وإنها ضربت الأسطول الروسي في بورت آثر وأتلفت جانباً كبيراً منه ودخلت بلاد كوريا وامتلكتها وقطعت نهر يالو ولابد من أن تكون هذه الأخبار قد وصلتكم كلها بالتلغراف في حينها. واجتهدت لا علم منه عن مقدار المساعدة التي نالتها اليابان منا فوجدت إنها كلها مالية وأدبية. أما المستر برون فقوبل بمزيد الاحتفاء في السفينة اليابانية التي ركبناها من السويس وقد أخبرتكم عن كل ما سمعته منه ومن أخته بالتفصيل وعن كل ما سمعته من اليابانيين ولكنني علمت بعد ذلك أن كتبي صودرت كلها فلم يصل إليكم شيء منها ولا داعي الآن لذكر شيء مما ذكرته فيها لأن الحرب قد نشبت ولم يبق محل للحذر والتوقي وسأكون عندكم بعد وصول هذا الكتاب إليكم بأسبوع على الأكثر

استلمت مئة جنية من المسيو نيقولاڤيتش وأودعكم الآن إلى اللقاء

القرض الثاني

السر هنري برون- ربما أتأخر يا ادث إلى ما بعد وقت العشاء لأننا نبحث الآن في عقد قرض آخر لليابان

زوجته- بلغني إننا نمنع البوارج الروسية من أخذ الفحم من أساكلنا إلى أساكل غيرنا فأخبرني بالله عليك يا هنري ما الفرق بين مساعدة الروس بالفحم ومساعدة اليابان بالمال الذي يشتري به الفحم والبارود والديناميت وكل لوازم الحرب كيف نحرم على غيرنا مساعدة أحد الفريقين بالفحم ونحن نساعد الفريق الآخر بالمال

السر هنري- لا يمكنني أن أقول سوى أن إن الدول متفقة على أن الفحم من المواد الممنوعة والمال ليس من المواد الممنوعة

زوجته- أي إنسان له عقل يمنع الخاص ويترك العام الذي يشمل ذلك الخاص ولماذا لا نعدل نحن من قبل أنفسنا فإن المراد بمنع الفحم أو البارود هو أن لا يساعد أحد المتحاربين على الآخر. وأي مساعدة أقوى من المساعدة المالية فإذا كانت دول أوربا تكره الحرب حقيقة وتود أبطالها فسبيلها أن نمنع المساعدة المالية عن الفريقين فيضطرا إلى أبطال الحرب

السر هنري- إذا فعلنا ذلك كان الفوز لروسيا لأن خزائنها أغنى من خزائن اليابان

زوجته- وإذا لم نفعل ذلك كان الفوز لليابان لأننا نعقد لهم القرض بعد القرض ولا نعقد قرضاً للروس

السر هنري- وهذا هو المراد لأن مصلحتنا تقوم بفوز اليابان على الروس

زوجته- إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم نجاهر به من أول الأمر وتقل لروسيا إنك إن حاربت اليابان فنحن نساعدها عليك فتحجم روسيا حينئذٍ عن الحرب وننال بغيتنا من غير سفك الدماء وتيتيم الأطفال

السر هنري- إذا فعلنا ذلك قامت فرنسا وانتصرت لروسيا وصارت الحرب عمومية بدلاً من أن تكون محصورة بين دولتين

زوجته- لا يخلو أن تكون روسيا محقة أو غير محقة وإذا كانت محقة أو غير محقة فلا يمكن أن يخفي ذلك على أناس لهم عقول فألفوا مجلساً يرى مطالب الفريقين ويحكم أيهما المحق ويقضي له بحقه وإذا أبى الفريق الآخر اتحدت الدول كلها وأكرهته على القبول فإذا رأى أن الدول كلها متفقة اضطر أن يذعن لها وإذا كان الرجال لا

يستطيعون أن يؤلفوا مجلساً مثل هذا فالنساء يؤلفنه لهم ولكن ما لنا وللهزل الآن لماذا لم نؤيد مؤتمر السلم ولم نقر على وجوب التحكيم في كل المسائل

السر هنري- إذا جرى التحكيم بطلت الحروب وإذا بطلت الحروب بطل الصيد في المساء العكر فقل البيع من الجرائد وأقفلت معامل البارود ومسابك المدافع ولم تعد الدول تستدين الأموال من أرباب الأموال ولا عاد أحد يكسب من الالتزام

زوجته- قل لي ذلك هذا هو المحرك الأول للحرب وإلا فما فائدة فلاح روسيا من بورت أرثر وما يهمه سواء كانت للروس أو للصين أو لليابان. وما فائدة الفلاح الياباني من هذه الحرب بل ما هي فائدة التسعة والثلاثين مليوناً من الشعب الإنكليزي من الحروب التي اشتبكنا فيها أو ساعدنا غيرنا عليها. المعدن لا تكاد أجرته تكفيه وتكفي زوجته وأولاده والعامل لا تزاد بنسة واحدة في أجرته ما لم يجاهر بالاعتصاب وقتاً بعد آخر وكل الذين يستفيدون من الحروب لا يبلغون مليون نفس من الأربعين مليوناً هؤلاء يبنون القصور ويقتنون اليخوت ويركبون المركبات والأوتوموبيلات وينفق الواحد منهم على نفسه ما يكفي لمعيشة ألف نفس فيقاسي تسعة أعشارنا أشد المشاق لكي يعيش العشر الآخر بالرفاهة والترف

السر هنري- حرام عليك يا أدث ألا ترين أن أغنياءنا وأمراءنا يشاركون عامة الجند في تجشم المشاق ويقتحمون المخاطر. أين ولدانا الآن. ألم نرسلهما إلى دار الحرب في مصلحة وطنية

زوجته- أصحيح ذلك يا هنري ألا يذهب ابن الأمير إلى الحرب كما يذهب إلى صيد الأسود لأجل الفخر والشهرة ولكي يعود ويتقلد

رتبة عالية أو وساماً فاخراً ولولا حب اقتحام المخاطر ما رأيت أحداً يخاطر بنفسه لمصلحة غيره ثم أن الذين يكتسبون المكاسب الكبرى من الحروب لا يتقلدون سلاحاً ولا يسيرون فيها خطوة وجمهورنا مسخر لغيره

يلتفت السر هنري إلى الساعة ويقول لابد من ذهابي الآن وسنعود إلى الكلام في هذا الموضوع بعد رجوعي أن شئت. ثم يقبل وجنتيها ويذهب ويدور الحديث في نادي الصحافة على طلب اليابان قرضاً جديداً وعلى كيفية مساعدتها في الجرائد بالكتابة والترغيب حتى يغطي القرض مراراً عديدة. ويعرض على كل جريدة المبلغ الذي يحق لها أن تكتتب به وتأخذ فرقه. وحسب السر هنري إنه إذا أرتفع السعر واحداً في المئة فقط بلغ ربحه من هذا الاكتتاب خمسة آلاف جنية فصادق على الخطة التي أقروا عليها. ثم قل أحد الحضور أن الحرب لا تضع أوزارها ما لم تطلب روسيا الصلح وهي لا تطلبه ما لم تحدث فيها ثورة داخلية أو شبه ثورة حتى ترى نفسها مدفوعة إلى طلب الصلح لكي يتسنى لها الاهتمام بداخليتها. وطلب من أصحاب الجرائد أن يساعدوه بكتاباتهم ويوعزوا إلى مكاتبيهم ليرموا إلى هذا الغرض وقال لهم أن الشركات التلغرافية وعدتنا بالمساعدة. ونحن لا نتوخى ضرراً لروسيا بل نفيدها بتنبيه شعبها إلى طلب الإصلاح. فضحك بعض الحضور من كلامه وقال غيرهم إننا نسير حسب دواعي الحال ولا نتقيد بشيء. وأنفض المجلس وعاد السر هنري برون وهو يفكر في فائدة الحرب للذين يستطيعون أن ينتفعوا منها مالياً ثم خطر على باله كلام زوجته وقال من أين تأتيني هذه الخمسة آلاف جنية أليس من عرق الفلاحين وحاول طرد هذا الفكر من ذهنه فلم يستطع

الفصل الثامن والعشرون

التهييج

عزرا- لقد أخبرتك يا حنين أفندي واقعة الحال كما هي وأنت وشأنك بعد الآن وغاية ما أطلبه إخراجي من هذه القضية بأي وجهٍ كان

حنين المحامي- لابد لنا من استخدام الرأي العام وتهييج الجرائد فكم تدفع

عزرا- أدفع لمن. الجرائد الكبيرة لا تشتري على ما أظن والجرائد الصغيرة لا يقرأها أحد فكيف نهيجها ومع من وعلى من

حنين- هذا شغلي وليس شغلك

عزرا- أتعابك أنقضى أمرها ثلثمئة جنية معجلة وثلثمئة مؤجلة أما الجرائد فأنت وشأنك فيها. كم تظن إنه يلزم أن نصرف عليها

حنين- قل ستمائة جنية

عزرا- ستمائة جنية يا سلام

حنين- أتستكثر ستمائة جنية وتخرج من هذه القضية ولا تعرض دفاترك على المحكمة

عزرا- دفاتري. ومن قال أن دفاتري تعرض على المحكمة. حسابات الناس نصف زبوناتي لا يريدون أن يعرف عنهم إنهم يشتغلون في البورصة. أكثرهم من مستخدمي الحكومة الممنوعين

من الشغل فيها. خد ستمائة جنية. خذ سبعمائة جنية وخلصني من هذه الورطة

حنين- اتفقنا ستمائة جنية أرسل لي ثلاثمائة منها الآن

عزرا- حاضر أهو تشك بثلاثمائة جنية لحامله. ثم طلب منه وصلاً بهذا المبلغ فأبى أن يعطيه وصلاً وبعد جدال طويل أرتضى عزرا أن يذهب من غير وصل لكنه سأله أن يبسط له الطريقة التي يستخدمها لإثارة الجرائد والرأي العام معه وكيف يحمل القضاة على قراءتها. فضحك المحامي وقال له ليس المراد أن أثيرها معك بل أن أثيرها عليك وهذا ليس شغلك بل شغلي فكن مطمئن البال

ولما خرج عزرا نادي المحامي اثنين من الكتاب يعتمد عليهما في هذه الشؤون وأملي عليهما أربع مقالات لتنشر في جريدتين عربيتين وجريدتين افرنجيتين وكأنها بلسان الخواجة لاڤي يتشكى فيها من القضاة وإنجازهم إلى عزرا لأنهم من زبائنه المشتغلين عنده في البورصة ولذلك انحازوا إليه وتهددهم بأن يرفع أمرهم إلى المقامات العليا. فصدرت تلك الجرائد مملؤة بالتهديد للقضاة فأبتاع حنين أفندي أعداداً منها وأرسلها إلى كل واحدٍ من القضاة وإلى مستشار الحقانية والنائت العمومي ووكيله. فلما أطلعوا عليها لم يشكوا في إنها كتبت بإيعاز الخواجة لاڤي والمحامي عنه. وبعد يومين نشرت جرائد أخرى مقالات من نوعها كلها تهديد ووعيد ومضمونها أن الخواجة لاڤي مطلع على كل ما يجري سراً وعلى كل المساعي التي استعملها الخواجة عزرا لاستمالة القضاة إليه حتى عزموا على تبرئته وتغريم الخواجة لاڤي لأنهم استكثروا ثروته ولم يروا ما ينتظر منه. وكان الكلام مضمناً لا يمسك والجرائد التي صرحت أكثر من غيرها

أجنبية لا يسري عليها قانون المطبوعات. وطاف أصدقاء حنين أفندي في دواوين الحكومة ينبهون الناس إلى تلك المقالات ويقولون أن الخواجة لاڤي قوم الدنيا على القضاة والمحاكم

واجتمع أحمد بك المحامي عن الخواجة لاڤي بأحد القضاة وكان من خلص أصدقائه وقد درسا علم الحقوق معاً وكانا في فرقة واحدة فرأى منه نفوراً على غير ما كان ينتظر فاستغرب ذلك وسأله عن السبب فقال أتسألني عن السبب بعد أن ملأتم الدنا تهييصاً

فلم يفهم أحمد بك مراده لأنه لم يكن قد اطلع على ما كتبته تلك الجرائد ولأن الجرائد المعتبرة التي كان يطالعها لم تكتب شيئاً من ذلك فقال له أفصح لي أين التهييص ومن ملأ الدنيا به

القاضي- أعلى يا أحمد بك أعمل معروفاً ولا تكلمني في هذا الموضوع

فظن أحمد بك إنه أمتنع عن مكالمته لئلا يؤثر كلامه فيه وأن الخواجة لاڤي أستعمل ما له من النفوذ لدى ولاة الأمر وشكا القضاة قبل أن يرى منهم شيئاً يخالف مصلحته فلامه في نفسه ولم يبد لصديقه القاضي شيئاً من ذلك بل غير الموضوع وتكلم معه في شؤون أخرى ثم ودعه وسار إلى مكتب الخواجة لاڤي وانفرد به وسأله عما فعل من أمر التهييج على القضاة فأكد له الخواجة لاڤي أنه لم يكلم أحداً في هذا الموضوع. فعاد إلى مكتبه منشغل البال ونادى واحداً من كتابه وسأله عما يقال عن قضية الخواجة لاڤي فقال الكاتب أن البلد مطبولة بها والناس يقولون أن الخواجة لاڤي استحضر توصية من الملك وأن المستشار تأكد أن القضاة منحازون إلى عزرا لأنهم يشتغلون عنده في البورصة وأسماءهم في دفاتره

ولذلك لا يمكن أن يطلبوا إحضارها إلى المحكمة. فقال له وما سبب هذه الإشاعات فقال مقالات كثيرة نشرت في بعض الجرائد فقال له علي بها

وجعل أحمد بك يقرأ فاتضح له حالاً أن حنين المحامي عن عزرا هو مصدر تلك المقالات وتلك الاشاعات أراد بها أن يغيظ القضاة من الخواجة لاڤي بتظاهره بالدفاع عنه والتحامل على عزرا فقال في نفسه يا لها من حيلة شيطانية ولابد لي من السعي في أبطال التأثير السيء الذي أثرته فدق التلفون واستدعى الخواجة لاڤي إليه وأطلعه على ما اكتشفه فوقف مبهوتاً وقال له صار عمري خمساً وخمسين سنة ولم أسمع في حياتي كلها بحليةٍ شيطانيةٍ مثل هذه فما العمل

أحمد بك- يظهر لي أن القضاة كلهم مغتاظون منا أشد الغيظ ويستحيل أن لا يؤثر فيهم غيظهم لأن سلطة الأهواء أقوى من سلطة العقل في أكثر الناس ولذلك لا استغرب إنهم يبرئون عزرا غيظاً منك

الخواجة لاڤي- هب إنهم برأوه فهذا لا يضرني ولكن ماذا يفعلون بي

أحمد بك- يحكمون على السائق بالأشغال الشاقة وعليك بالحق المدني ويخرج عزرا بريئاً وهو الفاعل المتعمد الذي دبر هذه المكيدة من أولها إلى آخرها. لا لا هذا لا يكون إذا لم يكن عندك واسطة لإظهار الحق فأنا أظهره

فصافحه الخواجة لاڤي وقال له أفعل ما بدا لك بشرط أن لا تزيد المصاريف

فضحك أحمد بك وقال له طمن بالك وصر على أموالك

الفصل التاسع والعشرون

النقه

بهية- أنا آتية من عندها الآن العملية نجحت وقد توقفوا بجراح من أكبر جراحي فرنسا كان ماراً في القطر المصري فاستدعاه طبيبها لمساعدتهم في العملية

استير- كم أعطوه يا ترى فإن أجور الجراحين المشهورين غالية جداً

بهية- سمعت إنه طلب عشرين ألف فرنك فأخذها دعيه يأخذ مئة ألف من لا يدفع كل ماله لكي ينجي ابنته من الموت واي ابنة هل تجدين كثيرات مثل حليمة

استير- صدقت لا اعرف ابنة أجمل منها ولا ألطف ولا أقرب إلى القلب ولكنها صارت الآن كالخيال لم أرها اليوم ولكنني رأيتها أول أمس ومع كل ألمها لا تتشكى وقد قالت لي إنها تود أن تموت وتذهب إلى أختها ولا تود لئلا يحزن والداها عليها. ما هو هذا الموت يا بهية كيف نفارق الذين نحبهم وهل نجتمع ثانية بعد الموت وأين نجتمع. التوراة لا تقول لنا شيئاً وهي الكتاب الوحيد الذي يعتمد عليه عندنا أما أنتم فعندكم كتب أخرى لكن العلماء الباحثين في هذا الموضوع يقولون إنهم لا يعلمون شيئاً علم اليقين وقد سألت الإمام أحمد عن رأيه وهو عالم كبير فقال إنه لا يعلم عن هذا الأمر أكثر مما أعلمه أنا ولكنه لا يقدر أن يتصور أن خالق هذه الأجسام وهذه الأرواح خلقها لتعيش سنين قليلة ثم تفنى فكأنه بناء يبني القصور

الفخيمة ثم يخربها ليتسلى ببنائها وخرابها وهذا أمر لا يصدقه عقل. فقلت له ولكننا إذا رأينا القصور تبنى وتخرب أمام عيوننا فكيف لا نصدق ما نراه. أين أجدادنا وأجدادهم وكل الذين عاشوا في الدنيا من أول وجود الإنسان فيها إلى الآن. ألم يموتوا وتبلى أجسامهم وتصير ترابا قصور تبنى وتخرب أمام عيوننا. أما الأمام أحمد فيقول أن الأجسام كلا شيء بالنسبة إلى الأرواح وأن النفوس تبقى ولو صارت الأجسام تراباً ورماداً وقد قالت لي حليمة إنها رأت أختها وكلمتها ولكنها لم تر لها جسماً ولا صورة محدودة

بهية نعم قالت لي ذلك وأنا أظنه من قبيل الأحلام التي نراها في الليل فكم من مرة نحلم بأناس قريبين أو بعيدين عنا وهذا لا يستلزم إنهم هم أنفسهم يزورونا في الليل مثال ذلك إنني حلمت بمس برون منذ يومين وكنت أتكلم معها كأنها واقفة أمامي مع إنها بعيدة عنا الوفاً من الأميال فلا يدل ذلك على أن نفسها تركت جسمها في بلاد اليابان وأتت وزارتني في الليل بل إني أنا افتكرت بالصورة المرسومة لها في ذهني وجعلت أتوسع في الفكر بالتذكر وائتلاف الأفكار

استير- وهل حلمت بأخيها وأين هو الآن

فأحمر وجه بهية ونظرت إليها نظر اللوم وقالت لها ما لنا وله

استير- ماذا جرى هل كتب إليك شيئاً

بهية- كلا ولكن قلبي يدلني على إنه في ضيق شديد. كان آخر خبر منه أن أخته مريضة وهو ينتظر شفاءها حتى يرجع معها ولكنني أشعر بضيق في قلبي ولا أظن أن السنة تنتهي على خير فأنظري ما أصاب أخي وأبي وحليمة وما أصاب مركبة أبيك وخسارة أمين في البورصة وهذه الأمور كلها قد انتهت إلا مسألة حليمة وأرجو أن

تنتهي على خير ومع ذلك فنفسي صغيرة جداً وأخشى من شر قريب يحل بنا. ما نفع هذه الحياة إذا كنا لا نجد فيها غير التعب والألم

استير- أنا أعلم سبب ما تشعرين به وكيف تحاولين اخفاءه وهو لا يختفي. إن كان هنري قد سافر بعد ما كتب إليكم بأسبوع أو أسبوعين فإنه يكون ههنا في أواخر هذا الشهر وحينئذٍ يزول كل ما تشعرين به الآن من الغم وصغر النفس وتكون حليمة قد ملكت صحتها فتزل كل المشاغل معاً

بهية- أتظنين يا استير أن حليمة تشفي لا أظن فإنها صارت كالخلال جلداً وعظماً أين شعرها الذهبي فقد قصوه ليضعوا الثلج على رأسها. أين تلألؤ عينيها. أين ذلك الوجه الصبيح وذلك الجسم الممتلئ. كنت لا أشبع من النظر إليها قد فارقها كل ذلك إلا بشاشة وجهها. وهي نفسها لا تظن إنها تشفي ولا يهمها أمر شفائها. إذا فقدناها يا استير فمن يقوم مقامها

فجالت الدموع في عيني استير وهذا نادر وكادت تقول لبهية إنك أنت تجدين من هنري ودورا خير بديل وأما أنا فقلبي فارغ لم يدخله أحد لكنها كتمت ما يجول في بالها ولم تقل شيئاً وبعد هنيهةٍ تبسمت وقالت لبهية قومي نذهب إلى النزهة فنجلو هذا الصدأ عن نفوسنا يا حبذا لو سمعت الشيخ أحمد يعلل لك فعل النزهة في إزالة صداء الهموم من النفس

بهية- لماذا تلقبينه مرة بالشيخ ومرة بالأستاذ ومرة بالإمام

استير- هو شيخ وهذا لقبه ويلقب أستاذاَ للتعظيم وإذا أردنا المبالغة في التعظيم قلنا أماماَ والحق إنه إمام كبير عند قومه وأظنه يعرف كل شيء أو له المام بكل العلوم كما يقولون

الفصل الثلاثون

الخطر الأصفر

السر هنري غراي – أقرأت يا سر ادورد ما كتب أمس عن الخطر الأصفر

السر ادورد برون- نعم قرأت ما كتب أمس وما قبله بل قرأت أكثر ما كتب في هذا الموضوع وعندي إنه كله أوهام في أوهام. ذرة من الحق في بحر من الباطل هذه أضاليل الروس يريدون أن يثيروا بها الرأي العام الأوربي علينا لأننا حالفنا اليابانيين ووقفنا بينهم وبين دول أوروبا لئلا تعتصب عليهم

السر هنري- مهما يكن غرض الروس والألمان فهو لا يغير الحقيقة إن كان لما يسمى بالخطر الأصفر حقيقة. وأنا لا أرى لماذا لا تكون له حقيقة واقعية فإن الصينين ليسوا أضعف من اليابانيين ولا أقل منهم مهارة ولا هم الآن أبعد عن العمران مما كان اليابانيون منذ ثلاثين أو أربعين عاماً واليابانيون أنفسهم يشهدون للصينين إنهم أسيادهم وأساتذتهم. نعم إنهم يكرهونهم ولكن كرههم لهم مثل كره الضعيف للقوى إذا كانا متجاورين. وهذه الأمور قلما كان يختلف فيها أحد من كل الذين كتبوا عن الصينيين واليابانيين منذ ثلثمئة سنة إلى الآن ولاسيما بعد أن نظم غوردون بعض الجيش الصيني وشهد له. ولم يقم أحد يرتاب فيها إلا في هذه الأيام بعد ما تغلبت اليابان على الصين في الحروب الماضية والذين ارتابوا لم يدعوا أن اليابانيين أرقى من الصينيين بالفطرة بل قالوا أن اليابانيين

اتفق إنهم اقتبسوا أساليب الأوروبيين في تنظيم الجيوش واستخدام البوارج ففازوا على الصينيين في المكان الذي حاربوهم فيه. وإذا كان الصينيون كاليابانيين في استعدادهم الفطري فلابد من أن يقووا مثلهم إذا أخذوا أخذهم وتربوا تربيتهم وتأهبوا تأهبهم. ثم تأتي مسألة العدد وغنى الأرض الطبيعي أما من حيث العدد فأهالي الصين أكثر من أهالي أوروبا كلهم وأما من حيث غنى الأرض الطبيعي فلا أغنى من بلاد الصين فهي من أخصب الأراضي الزراعية وأكثرها معادن من الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص والحديد والفحم الحجري والحجارة الكريمة على أنواعها. وأنهارها كبيرة تسير فيها السفن ويكثر فيها السمك فهي من كل وجه صالحة لتقدم سكانها مثل أحسن الممالك الأوروبية فلماذا لا يرتقي أهلها إذا أخذوا أخذ اليابانيين وساروا في خطتهم العلمية والحربية. وإذا ارتقوا ارتقاءهم واتحدوا معهم لم يمكنا أن نقف أمامهم في آسيا وقد لا نستطيع أن نقف أمامهم في أوروبا نفسها إذا هاجمونا فيها

وكان السر هنري غراي يتكلم بتأن على جاري عادته وهو كهل طويل القامة كث اللحية أبيض الوجه براق العينين فصيح المنطق مشهور بأصالة الرأي بين أقرانه فقال له السر ادورد برون إن كان للخطر الأصفر وجود في الحقيقة فلا يمكن ظهوره في عشر سنوات ولا في عشرين سنة لأن حكومة الصين مبنية على الفساد والرشوة من أولها إلى آخرها ولا يكفي أن تكون الأمة مستعدة للارتقاء بل لابد لها من قائد يقودها ومرشد يرشدها. وعندي إنه لو لم توفق اليابان بإمبراطورها الحالي لكانت الآن مثل غيرها من ممالك الشرق الصغيرة ولكن امبراطورها هو الذي جمع كلمة شعبها وسار به في هذا الطريق. والصين على ما تعلم ليست كذلك والذين يوجسون

شراً من تقدمها لا يتعذر عليهم أن يمنعوا اتصال ملكها إلى امبراطور حازم كإمبراطور اليابان

السر هنري غراي- آه هذه مسألة أخرى وأنا أعلم أن كثيرين يستحلون هذا المنكر ولكن نحن الإنكليز لا نستحله

السر ادورد- لا أعلم ولكن ما معنى الجهاد وتنازع البقاء أن كنت أدع خصمي يقوى على ويأكلني ولا اتغداه قبلما يتعشاني. وأنا أعلم ما يدور في خاطرك الآن وهو أن الديانة المسيحية والآداب المسيحية تنهانا عن ذلك وتأمرنا بأن نفعل بالغير كما نريد أن يفعل الغير بنا. ولكن أن كانت الديانة والآداب تأمرنا بشيء والطبيعة نفسها تأمرنا بضده فحكم الطبيعة هو الغالب أخيراً. ولا أوضح من هذا الحكم بين أحكام الطبيعة ونواميسها وهو أن كل نفس مدفوعة إلى الجهاد والتغلب على الغير بالقوة أو بالحيلة أو بهما كلتيهما وأنا وأنت على طرفي نقيض من هذا القبيل ولكنني واثق بصدق وطنيتك وبأنك لا تشايع أولئك الخونة الذين تحملهم أوهامهم على التنديد بالحكومة ولو رأيت فتوراً في جريدتك منذ الشهر الماضي

السر هنري- أظنك تشير إلى انتقادي الأخبار المبالغ فيها عن الثورات والقلاقل في بلاد الروس فأنا لا أستحل نشر مثل هذه الأخبار على علاتها ولو كنت لا أعلم حقيقتها لكان لي عذر أما وأنا عالم مصادرها ومقاصدها فيستحيل على أن أوافقكم على نشرها كما هي وأظن إنه كان يجب على أن أكذبها تكذيباً. ولولا اعتقادي أن في ذرو من الحق لكذبتها حتماً. واستغرابي من السر كمبل كار أشد من استغرابي منك لأنه يدعي الدفاع عن مصالح المشرق والمشارقة ولكنه أشد الناس وطأه على الروس

ودخل السر كمبل حينئذٍ فقال له السر ادورد ما هي أخبارك الآن فقال: يظهر أن الثورة ستعم بلاد الروس كلها ولا سبيل لنا لتوقيف هذه الحرب وجعل الروس يطلبون الصلح إلا إذا ثار الروسيون على حكومتهم

فقال له السر هنري أتستحل ذلك. فقال لماذا لا نستحله من لا يستحل توقيف الحرب ودفع ويلاتها وإصلاح الحكومة الروسية بتنبيه شعبها إلى طلب حقوقه

السر هنري- أنا لا أسألك عن الغاية بل عن الوسيلة هل تستحل إثارة الثورة في البلاد لكي تنتج عنها نتائج حميدة. ومن يستطيع أن يحتم أن نتائج الثورة تكون حميدة ولماذا لا تقول إنها لا تقف عند حد الدستور بل تتجاوزه إلى الفوضى ولماذا لا تقول إنه إذا صارت بلاد الروس نيابية في الأحوال الحاضرة فشعبها يستمر على الحرب إلى ما شاء الله ولا نعود نجد أحداً نخاطبه في أمر الصلح. لا يا سر كمبل أنا لست من رأيك في ذلك ويقيني إنك لست على الصواب

واجتمع حولهم حينئذٍ أناس كثيرون وانقسموا فرقاً فرقاً يتباحثون ويتناظرون. وكان اليوم شديد الحر على خلاف العادة في شهر أكتوبر ومشي السر كمبل كار مع السر ادورد برون وسأله عن ابنه وابنته فقال إنهما عادا من مواقع الحرب لانحراف ألم بصحة دورا ومراً على اليابان فزاد الانحراف في صحة دورا واضطرا أن يبقيا هناك مدة ولكنهما سافرا منذ أيام وأظن إنهما يصلان إلى مصر في أواسط الشهر المقبل ويظهر لي أن هنري سيصير من حزبك

السر كمبل- من حزبي أي حزب

السر ادورد- من حزب المشارقة هو لم يكتب شيئاً في هذا الموضوع ولكن دورا أشارت إلى ذلك في مكاتيبها بل صرحت به وقد اضطر أن أذهب أنا ولادي برون إلى مصر

السر كمبل- ماذا أميرية يابانية أو صينية أو هندية. لقد كان هنري دائماً يميل إلى التصورات الشرقية مثل أمه

السر ادورد- لا يابانية ولا صينية ولا هندية بل فتاة من بنات فرعون ومن نسل الفراعنة

السر كمبل- من نسل الفراعنة حسناً حسناً هذا هو الشعر بعينه

السر ادورد- لكن الأمر لم يزل سراً ولم نكاشف به أحداً وأنت أول شخص اخبرته به لأنني لا أزال استبعده جداً. وهنري نفسه لم يصرح بفكره

السر كمبل- أتخاف أن أذهب وأنشره في «المشرق». ما هو رأي مس برون فيه فإني اعتمد على رأيها قرأت المقالات التي نشرتها بإمضاء D في لندن نيوز وهي منها حتماً وقد وصفت فيها المستشفيات النقالة وصفاً لم أقرأ أبلغ منه. وأتذكر الآن إنني قرأت لها مقالة عن مصر وصفت فيها بيت أحد الباشاوات وابنته أهذه هي الفتاة السعيدة التي أختليت قلب هنري

السر ادورد- كلا فإن الباشاوات ليسوا من نسل الفراعنة ويندر أن يكون منهم من هو من نسل المصريين ولكن الفتاة التي أحبها هنري قبطية فهي من نسل المصريين الأقدمين ويظهر من وصف دورا لها إنها بديعة الجمال طويلة القامة هيفاء القد تشبه صورة مصرية خيالة موجودة في بيتنا

السر كمبل- ربما أذهب معكم إلى مصر فإن مصر صارت لنا الآن بعد الاتفاق الأخير مع فرنسا فصار يسهل علينا أن نزورها كل سنة

السر ادورد- لقد أعجب كل أحد بهذا الاتفاق على مصر إلا لادي برون فإنها تظن غبنا فرنسا أخذنا منها أكثر مما اعطيناها. وقد قالت صريحاً إننا أخذنا اللحم واعطيناها العظم وهي مستغربة كيف رضيت فرنسا بمراكش لاسيما وأن المانيا ستكون لها في المرصاد هناك. لا تزال تحن إلى وطنها والدم لا يصير ماء ويخال لي أن هذا الميل في هنري إلى المشارقة موروث من أمه لأن الدم الفرنسوي يميل إلى أهل المشرق

وتصافحا وعاد السر ادورد إلى بيته فوجد زوجته في انتظاره فقالت له وصل تلغراف من هنري ودورا من الهند وسيكونان في مصر في أوائل نوفمبر فيجب أن نصمم على السفر

*****

الفصل الحادي والثلاثون

المرافعة

رشيد بك- لا تلكمني يا أحمد بك في هذا الموضوع فإنك تعرف إنني إن أبديت لك رأيي التزمت أن انسحب من الجلسة ولكنني أنصح لكم أن تبطلوا هذا التهييج في الجرائد

أحمد بك- أي تهييج وأية جرائد فانت تعلم أن الخواجة لاڤي لا يكاد يعرف أن يكتب اسمه بالعربية وأما أنا فأظن إنك تجلني عن أن استنجد بالجرائد في مسألة لم نترافع فيها حتى الآن ولست والحمد لله قاصراً عن المرافعة وإقامة الحجج حتى التجئ إلى إثارة الرأي العام

رشيد بك- قاصراً أو غير قاصر فهذه واقعة الحال ولم تكتفوا بالكتابة والتهييج بل أرسلتم إلينا إعداد الجرائد التي كتبتم فيها حتى تطلعونا على تهييجكم للرأي العام وانتصاركم به على القضاء هذا عدا مكاتيب التهديد والوعيد. نعم أن اليهود أغنياء ولكن لا يليق بهم أن يستخدموا غناهم لتهييج البلاد وأرجو من فضلك أن تعذرني عن الخوض في هذا الموضوع

لما سمع أحمد بك ذلك منه لم يسعه إلا السكوت لأنه رأى أن القضاة على رأي واحد ونهض بعد قليل وودع وأنصرف وكان ميعاد المرافعة في اليوم التالي فهرع إلى إدارة إحدى الجرائد وكتب فيها رسالة تبرأ فيها من كل ما نشر في الجرائد الأخرى دفاعاً عن الخواجة لاڤي. وكان يتردد في المساء على أحد الملاعب الذي يتردد عليه كبراء القوم فذهب إليه تلك الليلة على جاري عادته والتقى فيه برجل من

كبار رجال الحكومة وكان من خلص أصدقائه فأعرض عنه بوجه باسر فأستغرب منه ذلك لأنه لم ير منه هذا الإعراض قبلاً وأوجس شراً وسأله ما الخير فقال له ألى هذا الحد يا أحمد بك تتهمنا نحن والقضاة بالانحياز إلى رجل سمسار وتزعم إننا شركاؤه في المضاربة. هب إننا نضارب يا أخي أفيليق بك أن تشهرنا في الجرائد هذا التشهير. هو ذا كلنا نجتمع في هذا المكان وليس منا من هو أفضل من الآخر فإن كنت أخرج من هنا وأندد بك لأنك تأتي إليه فماذا تقول عني ومع ذلك فإنني أؤكد لك إنني لا أعرف صورة عزرا هذا ولا رأيته قط ولا أعرف أين مكتبه ولم أضارب بقنطار قطن عن يده وكل أصدقائك مغتاظون منكم

فوقع هذا الكلام كالصاعقة على أحمد بك وجعل يقسم له الإيمان المغلظة إنه لم يكتب كلمة في هذا الموضوع ولا في غيره وقال له ولو لم أسمع هذا الكلام من سواك لاستغربته منك تمام الاستغراب ولكنني سمعته اليوم وأمس وكذبت هذه الإشاعة اليوم في الجريدة الفلانية

وكانا يتكلمان بصوتٍ منخفض لئلا يسمع أحد ما دار بينهما من الكلام. ولما رأى أحمد بك أن صديقة لم يصدق كلامه أغتاظ منه وخرج مغضباً ونام تلك الليلة مبلبل البال مضطرب الأفكار وقام في الصباح للمرافعة وكان من الخطباء المعدودين

وجلس الخواجة لاڤي في الصباح مع عائلته ليشرب فنجان الشاي واللبن على جاري عادته وكان قلقاً مضطرب البال وعرفت استير ما يجول في خاطره لأنها شديدة الفراسة ماهرة في قراءة أفكار أبيها. فقالت له لماذا نقلوا المرافعات من عند القناصل إلى المحاكم

الأهلية

فقال لأنهم ظنوا إنها صارت كفؤا لتؤتمن على أرواحنا

فقالت وهل تظن إنها ليست كفؤا لذلك

فقال إني لا أكاد أعرف أحداً من قضاتها معرفة تامة ولكن إن كانوا يتأثرون من كتابة الجرائد ويعلقون عليها هذا الشأن كما بلغني عنهم وكما يشكون جهاراً فليس ذلك مما يمدح فيهم. ونحن حقنا واضح كالصبح رجل رمي بنفسه عمداً أمام مركبتنا وقد فعل ذلك بإغراء رجل آخر وقصد المغري الانتقام منا وقصد المغري أن ينصب علينا مقابل ما يصله من الأذية ولا لوم علينا ولا على السائس ولكن اللوم كل اللوم على المغري والمغري وكلاهما فعل ما فعل عن سوء قصد متعمداً الاضرار بنا فإن رأت المحكمة ذلك جلياً كما نراه نحن وبرأتنا وحكمت على الجاني الأصلي فتكون قد عدلت في حكمها وإذا بقيت معتقدة إنني رشوت الجرائد حتى كتبت ضد عزرا واتهمت رجال الحكومة بمشاركته والتشيع له واستنتجت من ذلك إني مجرم فحكمت على السائس بالسجن وتركت للمحكمة المختلطة الحكم علينا بالحق المدني فهي بلا شك مخطئة ومهما كان لها من العذر في خطاءها فهو لا يبررها من الخطاء ولا يقوى ثقتنا بها. والتماس الاعذار للمحاكم بأن أصحاب الحق لم يؤيدوا حقهم التأييد الكافي أمامها لا يبررها إلا إذا كانت غير قادرة أن تكتشف الحق بنفسها لأن ليس الغرض من المحاكم أن تحكم بأن حجة زيد أقوى من حجة عمرو كما يفعل أهل الجدل بل أن تكتشف الحق وتبينه. بالأمس رفع رجل دعواه إلى المحكمة المختلطة على رجل آخر إنه استدان منه مالاً ولم يوفه إياه. وقال المدعي عليه إنه

أوفاه المال ولكن المدعي حفظ السند عنده مدعياً إنه لم يكن له وصول إليه حينئذٍ وأعطاه بدلاً منه وصلاً بالمبلغ وإن الوصل ضاع منه. فالدي يأخذ بالظواهر يقول أن المدعي عليه لم يستطع أن يثبت براءته وهو ملوم لأنه أوفي الدين من غير أن يسترجع السند إن كان قد أوفاه حقيقة وما دام السند في يد الدائن فهو صاحب الحق. لكن المحكمة لم تكتف بهذه الظواهر بل عرفت بالبحث أن المدعي عليه فلاح بسيط وكل القرائن تدل على إنه صادق المعاملة وأما المدعي فالسوابق تدل على إنه غير مستقيم فتكلفت البحث في دفاتره فوجدت منها إنه استوفى الدين فبرأت المدعي عليه وأحالت المدعي إلى محكمة الجنايات أي إنها لم تكتف بحجج الخصمين بل بحثت بنفسها عن الحقيقة حتى وجدتها

فقالت استير وبماذا يمكن أن يحكموا علينا

قال إنهم يحكمون على السائق بالأشغال الشاقة لأنه قتل غير متعمد ويحكمون علينا بالتعويض المدني بعد ثبوت الجناية وقد يحكمون بكل ما يطلبه الخصم وهو عشرون ألف جنية فتكمل معنا هذه السنة خسائر في القنصايد والدين الروسي وبهذه الغرامة

فقالت ولكن المحاكم المختلطة لا تأخذ بالظواهر كما قلت فترى الحق ولا تحكم علينا بشيء

فقال قد يكون ذلك ولكن من يعتني بعائلة السائس مدة سجنه ألا نلزم بها نحن إكراماً لعيني أخيك حتى لا يركب إلا مثل أولاد الباشوات

فقالت كيف يكون الحال لو برأتنا المحكمة المختلطة ألا يصير تضارب بين الحكمين المحكمة الأهلية تحكم بالإدانة والمختلطة

بالتبرئة

فقال نعم يصير ولكن أحمد بك يقول أن المحكمة نفسها تحكم اليوم بالإدانة وغداً بالتبرئة في مسألتين متشابهتين تمام المشابهة بل أعرف ما هو أغرب من ذلك فإن أحد أصدقائي كان له قضية مدنية فحكمت المحكمة الابتدائية ضده فاستأنف فحكمن محكمة الاستئناف له. وسمعته بالأمس يتكلم مع أحد قضاة الاستئناف فقال له القاضي أشكر الصدفة التي جعلت قضيتك في جلسة لست فيها أنا لأنها لو أتت أمامي لحكمت عليك لا لك. فأنت ترين أن القضاة يحكمون حسبما يتراءى لهم لا حسب الحق المجرد كأنه لا يوجد ما يسمى حقاً مجرداً. ولا تنسى ان الفواعل الخارجية تفعل القضاة كما تفعل بغيرهم من الناس لأنهم لم يخرجوا من كونهم بشراً. وقد بلغني أن خصومنا استخدموا ذلك الآن فكتبوا في الجرائد كتابة تظهر كأنها منا وفيها يتهددون القضاة بإفشاء إسرارهم أن هم حكموا لعزرا ولم يكتفوا بذلك بل كتبوا إلى القضاة أنفسهم مكاتيب من غير إمضاء يتهد دونهم فيها بمثل ذلك وأنت تعلمين أن هذا الأمر لم يخطر ببالي قط ولا أنا مجنون حتى أفعله لأنني أعلم إنه يعود على بالضرر ومع ذلك صدق حضرات القضاة إننا نحن الكاتبون لتلك المكاتيب وإننا نحن نقصد إثارة الرأي العام عليهم وعلى الحكومة بما لنا من الصولة وجاراهم رجال الحكومة في هذا التصديق

فقالت أو تظن يا أبي إنه يمكن لرجال يشغلون مناصب عالية أن يصدقوا هذه الخزعبلات

فقال ألم أقل لك إنهم صدقوا وعاتبونا هم ورجال الإدارة أيضاً

فقالت إذاً نحن النساء أقدر منكم على اكتشاف الحقائق فإنك حالما قلت لي عن الكتابة في الجرائد أدركت إنها فعل خصم لا فعل صديق وإنها حيلة شيطانية ولكنها صبيانية لا تخفي ولابد من أن يستفيد يوسف من هذه الحادثة

فقال عسى أن يكون ذلك لأنه إذا مال إلى الاقتصاد وكره الظهور الفارغ أحسب إنني ربحت ربحاً وافراً من هذه الحادثة ولو كلفتني خمسين ألف جنية

ودخل يوسف حينئذٍ لأنه يتأخر عادة في نومه وقيامه فقالت له استير اليوم المرافعة ألا تذهب وتحضرها. فنظر إليها كأنه لم يفهم ما تقول ثم قال أي مرافعة

فقال أبوها دعيه في أحلامه فإنه لا يزال نائماً

فتبسم يوسف حينئذٍ وقال نعم نعم مسألة السائق والرجل الطلوان إن أبي يظن أن كل اللوم على كأن لا أحد يركب مركبات ملاكة غيرنا أو كأني أنا قلت للسائق أن يقتل الرجل

فقالت له صه وكل البيض قبلما يبرد. ونهض الخواجة لاڤي وذهب إلى غرفة زوجته لأنها كانت مصابة بزكام شديد فرأى زكامها أخذ يخف ونزل ومضى إلى مكتبه

وجرت المرافعة ذلك اليوم وجيء بالسائق ووضع في قفص المجرمين وأفاض وكيل النيابة في شرح التهمة وأسهب في وصف ما بلغه أهل الترف والبذخ من التفاني في اقتناء الجياد لمركباتهم وتوصيتهم السياق بسوقها السوق العنيف حتى تسبق غيرها. وقال

أن مركبة من مركباتهم كادت تدوسه مرة مع شدة حذره ومركبة أخرى كادت تكسر مركبته في نوبة أخرى وإنه لا يعجب من أن مركباتهم تقتل رجلاً أو اثنين في السنة ولكنه يعجب من أنها لا تقتل رجلاً أو اثنين كل يوم وليس اللوم على المارة لأن الانسان يندهش إذا رأى مركبة كبيرة مقبلة عليه بغتة وخيلها تنهب الأرض نهباً فلا يستطيع أن يهرب من طريقها وقد يحاول الهرب منها فيهرب إليها لشدة انذهاله بل اللوم على أصحاب المركبات لأنهم لا يسوقونها السوق العنيف اغتناماً للوقت كيف لا وهم يسوقونها كذلك في النزهة بل افتخاراً وبطراً وما من شيء يردعهم عن هذا الغرور والبطر إلا سيف العدل. ثم مثل لهم رجلاً مسكيناً سائراً في طريقه مهتماً بالسعي لعياله رأى مركبة عن بعد فحسب إنه يقطع الطريق من جانب إلى جانب قبلما تصل إليه ولم يظن إنها آتية بسرعة البرق فلم يكد يصل إلى وسط الشارع حتى دهمته وخيلها بطرانة لأن خيول الأغنياء كثيرة لا يشدونها إلى المركبات إلا مرة كل يومين أو ثلاثة فداست قلبه وأحشاءه ولم ترحم زوجته وأولاده وكان صاحب المركبة وأبنه جالسين فيها وعوضاً عن أن ينزلا ويرفعا الرجل من تحت حوافر خيلهما وينياديا له جراحاً يضمد جروحه أمر السائق أن يدير المركبة ويفر بهما لكي لا يكتشف أحد فعلتهما الشنعاء ولو حدثت في رائعة النهار وفي أكثر شوارع العاصمة ازدحاماً لكن يد العدل أطول من أن يفر منها جان أما المجني عليه فكانت جراحه مميتة فلم يعش إلا بضعة أيام ثم مات على أثرها بشهادة الأطباء الذين عالجوه وشهادتهم مع أوراق القضية فلم يبق إلا الحكم على الجاني المتعمد تأديباً له وعبرة لغيره وإني أترك إلى المحكمة تقدير العقاب لأن الجناية كبرى والقتل عمد ولو تأخرت الوفاة

ولما لم يكن مطالب بالحق المدني لأن المطالبة به إنما تكون في المحكمة المختلطة قام أحمد بك مدافعاً عن السائق وقدم قضية فرعية وهي إدخال الخواجة عزرا السمسار في الدعوى كمغر للمجني عليه لكي يرتكب الجناية في نفسه

فتباحث القضاة في طلبه لحظة ورفضوه وطلبوا منه السير في المرافعة فقال «إن من الجرائم ما يرتكب عمداً يرتكبه الجاني من تلقاء نفسه لغرض يقصده أو مغنم يكسبه ومنها ما يرتكب بإغراء مغرٍ يحرضه على ارتكاب الجناية ولا يندران يكون الجاني هو المجني عليه أي أن ينتحر الإنسان انتحاراً كأن يتجرع سماً ناقعاً أو يلقي نفسه في البحر أو يطير دماغه برصاصة إذا ضاقت الدنيا في عينيه وسئم الحياة أو استثقل كربها ولكن يندر جداً أن يفعل الجاني ذلك لكي يتهم غيره بالجناية ويجر إلى نفسه مغنماً من وراء ذلك»

«رجل ضاقت الدنيا في وجهه ولم يعد دخله يكفي للقيام بعائلته أما لقلة الأعمال أو لسوء التدبير أو لأنه مولع بالسكر فينفق على الكاس في يوم ما يكتسبه في أسبوع كأكثر فقراء الأوروبيين الذي لفظتهم بلادهم إلينا ولاسيما الذين من طائفة المدعي علينا. رجل مثل هذا لا يكثر عليه أن يحتال حيلة تريحه من التعب والكدح وهي أن يقف أما مركبة سائرة فيها رجل من كبار الأغنياء فتلطمه وترميه وقد تجرحه في يده أو ساقه وربما جرح نفسه قبل ذلك ثم يدعي إنها هي جرحته فيشفق عليه صاحب المركبة ويعطيه مبلغاً من المال أو يضطر إلى ذلك اضطراراً بحكم القضاء»

«وهذا الأمر كثير الحدوث وقد حكمت المحاكم في قضيتين من هذا النوع في العام الماضي فبرأت صاحب المركبة والزمت المدعي

بالمصاريف. وقضيتنا من هذا القبيل من وجه ومن قبيل آخر من وجه آخر وهو أن لدينا أدلة قاطعة على أن المجني عليه والحق أن يسمى بالجاني على نفسه إنما فعل ما فعل بإغراء مغرٍ وقد أودعت بين أوراق القضية شكوانا على رجل اسمه عزرا أغرى الجاني على نفسه بارتكاب هذه الجناية لأسباب عائلية لا داعي لبسطها وإني أطلب من المحكمة تحقيق هذه القضية الفرعية لأنها مرتبطة بقضيتنا ارتباطاً لا انفكاك له حتى إذا ثبتت لها دعوانا برأتنا من كل ما نسب إلينا وحكمت على الفاعل الحقيقي بما يستحقه»

وقامت المحكمة للمداولة فقضت نصف ساعة ثم عادت وحكمت على السائق بالسجن تسع سنوات والاشغال الشاقة. فأحاط به الحرس وأخذوه إلى السجن وزوجته وأولاده يعولون وراءه

*****

الفصل الثاني والثلاثون

سرقتان

أمين بك- سرقتان في ليلة واحدة سرقتان كبيرتان جداً يا أستاذ لم نسمع بمثل هذا قط ولا سمع به غيرنا. ما قولك في ذلك

الشيخ أحمد- أي السرقتان وعند من ومتى

أمين بك- أتاني كتاب من بهية الآن تقول فيه أن بنك الخواجة لاڤي سرق في الليل الماضي دخله اللصوص وفتحوا خزانة الحديد وسرقوا كل ما فيها من النقود والأوراق المالية والسندات. ويقدر المسروق بثلثمئة ألف جنية ووجدت أبواب البنك مقفلة على عادتها وكذلك باب الخزانة. ويؤكد الخواجة لاڤي إنه أقفل بابها بيده في المساء وهي كبيرة جداً يستحيل كسرها والظاهر أن اللصوص فتحوها بمفاتيح مثل مفاتيحها واخذوا كل ما فيها. ولم يكن فيها من النقود سوى خمسين أو ستين جنيهاً ولكن كان فيها من أوراق البنك المصري نحو مئة ألف جنية ومن سندات الموحد وأسهم البنك الأهلي والبنك الزراعي والعقاري والدائرة العادية والمؤسسة ما قيمته مئتا ألف جنية والذي سرقها سرق معها الدفتر الذي فيه نمرها أيضاً فصار يتعذر الإعلان عنها في الجرائد. وهنا الغفلة فما الفائدة من كتابة نمرها في دفتر ووضعه معها. وأخذوا أيضاً الحجج والرهنيات ولم يتركوا شيئاً والضرر من أخذ الحجج والرهنيات قليل لأن الخواجة لاڤي يستطيع أن يستخرج غيرها من المحكمة المختلطة

وكان أمين يتكلم ولحية الشيخ أحمد ترتجف وامتقع وجهه وزايله الدم فظهر لونه ترابياً وصمت هنيهة ثم قال ألم يهتدوا إلى شيء من آثار اللصوص أو لم يكن في البنك خفير يخفره

أمين بك- قالت لي بهية في كتابها إنه كان في البنك خفيران من البرابرة وقد أنكرا إنهما رأيا أحداً دخل البنك ولا شبهة في إنهما كانا نائمين أو متواطئين مع اللصوص. وليس الغرابة في ذلك بل الغرابة أن بنك الخواجة عزرا السمسار سرق أيضاً في الليلة نفسها وأخذ اللصوص كل أمواله ودفاتره ولم يبقوا له شيئاً والظاهر إنهم متواطئون هم واللصوص الذين دخلوا بنك الخواجة لاڤي على تنظيف المكانين. ويقال إنه كان عند الخواجة عزرا أسهم وسندات ونقود بقيمة تسعين ألف جنية بعضها له وبعضها لزبائنه وقد وجد باب خزانته مكسوراً أي أن اللصوص ثقبوا الخزانة بمثقاب عند القفل وفتحوها. ومصر قائمة قاعدة لهذا الخبر

الشيخ أحمد- رأيت وكيل الداخلية منذ ساعة فلم يقل لي شيئاً. ثم ماذا ذكرت لك عن الإجراءات التي اتخذوها

أمين بك- لا شيء ولكن المسألة كبيرة جداً كما ترى فيها أربعمائة ألف جنية لم أسمع بسرقة مثلها في حياتي. وسأعود إلى مصر غداً أو بعد غدٍ لأن هواء الرمل لم يوافقني كما كنت أنتظر ولاسيما بعد ما اشتدت الرطوبة في هذين اليومين

الشيخ أحمد- أما أنا فإني راجع إلى مصر بقطار الساعة السادسة

ثم فتح ساعته وقال بعد ساعة وربع. أنا أعرف الخواجة لاڤي وأقدره بأكثر مما سرق منه كثيراً وأما عزرا فمن هو أليس هو السمسار الذي اغراك بمشتري القطن

أمين بك- لم يغرني عزرا بل رجل اسمه برسوم ولكن عزرا غشني واغتنم فرصة سقوطي ومرضي وتصرف بالقطن كما يشاء فحملنا خسارة كبيرة جداً أنت تعلم كيف كان تأثيرها في أبي وحتى الآن لا أقدر أن أنساها ساعة واحدة ولولاها لملكت صحتي وكنت بألف خير من الله. ولكن ضاع كل ما يملكه الآن لأنني لا أظن إنه يمتلك شيئاً آخر هو وشريكاه فقد خسروا خسارة كبيرة في الشهر الماضي على ما بلغني لأنهم لا يكتفون بالسمسرة وأرباحها الوافرة في الصعود والنزول بل يشتغلون على حسابهم فخسروا عشرين أو ثلاثين ألف جنية وخسروا نحو عشرة آلاف جنية من تفليسة أمين باشا على ما سمعت أمس في البورصة. الذي تجمعه الريح تبدده العاصفة والمال الحرام يذهب ويذهب معه الحلال

الشيخ أحمد- مال عزرا حرام صدقنا ولكن مال الخواجة لاڤي ليس كذلك وعنده ودائع لغيره وهي أحل من الحلال. والحق يقال إننا لا نعرف كل الأحكام التي يجري عليها نظام هذا الكون لأن العلل كثيرة جداً فيتعذر علينا جمعها كلها لرد المعلولات إليها. وعلى كل حال أنا مسافر الليلة فبماذا توصي

أمين بك- السلام يا أستاذ وسنلتقي في مصر بعد يومين إن شاء الله

ونادى الشيخ أحمد خادم المنزل الذي كان نازلاً فيه ليهيئ له أمتعته فيقوم في أول قطار إلى محطة سيدي جابر حتى يدرك اكسبرس المساء

هذا ما جرى في رمل الاسكندرية أما في مصر فإن الخواجة لاڤي نزل إلى مكتبه نحو الساعة السابعة صباحاً نزل هو وواصف بك

ليدفع إليه مبلغاً من النقود فيرسله ببوسطة الصباح ولما فتح خزانة الحديد وجدها فارغة لا شيء فيها فارتجفت مفاصله واصطكت ركبتاه وأصفر وجهه وانقطع صوته وكان معه واصف بك وواحد من الكتاب فأتياه بكرسي فجلس وأخذ العرق يتصبب من جبينه ثم حضر بقية الكتاب وضربوا التلفون إلى حكمدار البوليس فحضر بنفسه هو وثلاثة من المعاونين ولم يكادوا يشرعون في التحقيق حتى جاءهم الخبر بالتلفون من المحافظة أن بنك الخواجة عزرا سرق أيضاً فقام إليه الحكمدار ورأى ما فيه. وكان مع واصف بك خادمة فرأى ما حدث في البنكين وعاد إلى البيت وأخبر بما رأى وكانت بهية تكتب إلى أخيها فقص عليها ما رأى وسمع فكتبته في الكتاب وارسلته باكسبرس الصباح فوصل قبلما وصلت جرائد مصر إلى الاسكندرية

أما الحكمدار فبحث ودقق وأرسل من أخبر النيابة وأستدعى اثنين من المعاونين الذين كانوا معه أحدهما إيطالي والآخر مصري وقال لهما هذا يومكما وكل اعتمادي عليكما. ثم عاد إلى المحافظة وأرسا التلغرافات إلى كل جهات القطر ولاسيما إلى الاسكندرية وبورت سعيد والسويس. واسم والمعاونين إسمعيل وبدرو وكان إسمعيل أكبر سناً من بدرو وأوسع خبرة ولكن بدرو كان أعلم منه باللصوص من اليونان والطليان الذين يترددون على القطر المصري وينفون منه اليوم فيرجعون إليه غداً بعد أن يغيروا أسماءهم وأشكالهم

ودخل إسمعيل أفندي إلى غرفة ومعه الخواجة بدرو وقال له أذهب إلى بنك عزرا وخذ معك مصوراً من مصوري الشمس وصور خزانة الحديد من كل جهاتها وأفتح بابها وصورها من الداخل وصور

أيضاً باب الغرفة التي فيها الخزنة. فقال بدرو لماذا هذا التعب الفارغ فإن النور في البنك حيث الخزانة ضعيف جداً لا يصور به شيء

فنظر إليه إسمعيل أفندي وقال له أفعل ما أقوله لك وسأخبرك بمرادي في ما بعد. وكان مأموراً بأن لا يخالف له أمراً فذهب وأحضر مصوراً فصور باب الغرفة وجدرانها وجوانب الخزانة وبابها وفعل إسمعيل أفندي كذلك ببنك الخواجة لاڤي وأخذا زجاجات التصوير بعد تثبيت الصور عليها وجلسا مع سكرتير الخواجة لاڤي وحده وسألاه مسائل عديدة كتباها وكتبا أجوبتها ثم سألا كل واحد من الكتبة والفراشين والخفراء وفعلاً كذلك بالخواجة عزرا وشريكيه وكتبته وخدامه. فعلا ذلك كله في يوم واحد واستحضرا ستة من رجال البوليس السري الذين يعتمدان عليهم وأوصياهم بما يريدان واستحضرا أيضاً امرأتين من نساء البوليس السري وأوصياهما بأمور أخرى. وجلس إسمعيل أفندي في غرفته في المحافظة يطالع التقارير الواردة إليه من جهات القطر ومن البوليس السري وهو لا يهتم إلا بهاتين السرقتين وكان العمل كله في يده وبدرو يساعده ويفعل ما يطلبه منه فالأمور التي يدرك المراد منها يفعلها حالاً والتي لا يدرك مغزاها يعترض عليها ولكنه لا يلبث أن يفعلها حالما يأمره بفعلها ولو لم يفهم المراد منها لكن إسمعيل أفندي لم يكن بالرئيس العاتي بل كثيراً ما كان يشرع مراده لبدرو ولا يكتمه عنه إلا إذا رأي أن الضرورة تقتضى ذلك

وفي اليوم الثالث وضع اثنين من البوليس السري حول بيت الخواجة عزرا يراقبان الداخلين إليه والخارجين منه نهاراً وليلاً ويتبعه واحد منهما أينما سار وكان أمام باب بيته رجل يبيع التبغ وهو من رجال البوليس السري أيضاً فلم يكن دكانه يخلو من واحد

يراقبه ويراقب بيته

وفي مساء ذلك اليوم جلس بدرو مع إسمعيل أفندي وجعلا يراجعان الأمور التي اكتشافاها والاستعلامات التي وصلا إليها فقال بدرو كل هذا فهمته إلا الصور الفوتوغرافية فإني لا أرى لها معنى ولا فائدة

إسمعيل أفندي- يظهر لي إنك اعترضت عليها من أول الأمر ولا تريد أن تحول عن اعتراضك على جاري عادتك

بدرو- كلا ليس الأمر كذلك ولكنني بذلت جهدي لأجد لها معنى فلم أجد ولا نحن طبعناها على الورق بل أبقيناها على الزجاج ولو حاولنا طبعها ما ظهر فيها شيء وقد رأيتك أمس تنظر إليها بالمكرسكوب فتناولنها بعد خروجك ونظرت إليها به فلم أجد فيها شيئاً

وكانا يتكلمان باللغة الإيطالية لأن بدرو يفهم العربية ولكنه لا يحسن التكلم بها وأما إسمعيل أفندي فيحسن الإيطالية تكلماً وكتابة وهو مثل أكثر الشرقيين في تعلم اللغات الأجنبية. فقال ألم تر في بعض الصور خطوطاً دقيقة

بدرو- كلا لم أر شيئاً وهب إننا رأينا فيها خطوطاً فما فائدتها. فقال- سأخبرك بذلك في فرصة أخرى هل رأيت هذه الأيام يني اكولبلو الذي نفيناه أربعة أشهر

بدرو- يني اكولبلو يني اكولبلو أين رأيته يا ربي. رأيته هنا في مصر أو في المطرية أمهلني الآن لأقول لك أين رأيته نعم رأيته في مصر اشتبهت به اشتباهاً لأن شعر يني أسود وهذا شعره أشقر ولكن وجهه لم يتغير إلا إنه صار أسمن مما كان نعم هذا يني بعينه أنفه

وجبهته وقامته كل ذلك لم يتغير ولكن شعره أشقر وقد كان أسود فاحماً فكيف صار أشقر

إسمعيل أفندي- هذا أمر سهل فإن الماء المسمى أكسيد الهيدروجين يغير لون الشعر ويصيره أشقر. ولا شبهة في أن يني هنا فأذهب وأبحث عنه حالاً وراقبه في حركاته وسكناته ودخوله وخروجه حتى تعرف كل من يتردد عليه ويكلمه وإذا أريته يحاول الخروج من مصر فأقبض عليه حالاً وخذ معك مرسي وعبد المجيد ولا تخبروا أحداً مطلقاً ولا تدعوا أحداً يعلم شيئاً من أمره

ثم قام وذهب إلى بنك الخواجة عزرا وجعل يسأله بعض مسائل وهو يمزح تارة ويجد اخرى ثم قال لعزرا ترى ألم يكتب اللصوص شيئاً وهم هنا. فقال عزرا لا أظن ولكن لو كتبوا شيئاً فكيف نستدل عليهم من الكتابة فقال إنه قد يمكن الاستدلال على الشخص من كتابته أحياناً كثيرة ولكنني لا أقصد ذلك وإنما أقصد إنه ربما تلوثت يد أحدهم حبراً ولمس الورق بها فقد يمكن الاستدلال عليه من آثار أصابعه

عزرا- ماذا تقول أيمكن الاستدلال على الإنسان من آثار أصابعه كيف ذلك. فقال إسمعيل أفندي هكذا ولوث رأس سبابته بالحبر ولمس بها ورقة ففعل عزرا مثله ولكن كان الحبر كثيراً فكان الأثر أسود طامساً. فقال له إسمعيل أفندي اكثرت الحبر فقلله. فقلله وطبع عدة طبعات على ورقة أخرى فرماها إسمعيل أفندي وقال هذا لا ينفع أطبع هكذا ولوث أصبعه وطبعه ففعل عزرا مثله وقال وما فائدة ذلك فقال إسمعيل أفندي يقال إنه يمكن الاستدلال بهذه الآثار على الأشخاص. فضحك عزرا وقال كيف يمكن الاستدلال

على الأشخاص وأنا أرى أن علامات أصبعك مثل علامات أصبعي تماماً. فقال إسمعيل أفندي كذا يقولون وعلينا أن نجمع كل الاستدلالات حتى لا نقصر في شيء ولكن الاعتماد على تحقيق النيابة أكثر من الاعتماد على تحقيقنا. ثم سأله مسائل أخرى وكتب أجوبته في مذكرته وقام وأنصرف

وكان إسمعيل أفندي يحقق وحده والنيابة تحقق وحدها فأقامت الدنيا وأقعدتها. وكان جل اعتمادها على تقرير قدمه لها الشيخ أحمد وهو أن بين الأوراق المالية التي سرقت من خزانة الخواجة لاڤي أوراقاً له من أسهم الدائرة السنية العادية والمؤسسة نمرها كذا وكذا. فأسرت بذلك إلى البنوك وسماسرة الأوراق المالية وقبضت على الغفيرين اللذين في بنك الخواجة لاڤي وأخذت إقرارهما مراراً وأخذت إقرار الكتبة كلهم في البنكين ورجحت أن لاثنين من الكتبة في بنك الخواجة لاڤي اشتراكاً مع اللصوص فأمرت بالقبض عليهما وإيداعهما السجن

*****

الفصل الثالث والثلاثون

الفقر بعد الغنى

حمل الخواجة لاڤي من مكتبه إلى داره وهو يكاد يغيب عن صوابه وعاونه اثنان من الكتاب على صعود الدرجات القليلة أمام باب بيته. وأطلت زوجته من الطبقة العليا من البيت ورأت اثنين يسندانه في نزوله من المركبة فصرخت صرخة منكرة وأغمى عليها فبادرت استير إليها وسألت عما أصابها فأخبرها الخدم أن أباها دخل البيت واثنان يسندانه فلم توجس شراً بل بقيت تعتني بأمها ففكت أزرارها وجعلت تفرك يديها وتروح لها وأمرت أحد الخدم أن يسرع ويحضر الطبيب

وكان الخبر قد شاع في العاصمة أن بنك الخواجة لاڤي سرق ولكن لم يجسر أحد أن يوصله إلى أهل بيته. وسمعه الطباخ في السوق لكنه كتمه ولم يخبر به إلا الخدم. فلما رأوا سيدهم داخلاً على هذه الصورة لم يخف عليهم السبب أما استير فكانت تجهل ذلك وبعد قليل أصعد أبوها إلى الطبقة العليا ولما رأى زوجته مطروحة مغمى عليها أرتمى على مقعد إلى جانبها وقال بالعبرانية ليتبارك اسم إله إسرائيل. الرب أعطي والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً

فاضطربت استير من هذا الكلام وظنت أولاً أن أخاها أصيب بمكروه ولكنها عادت فقالت إنه لم يزل في البيت ودنت من أبيها وقبلت وجهه وقالت له ماذا جرى يا أبي لا تخف فإن أمي يصيبها

الإغماء كثيراً وقد أغمي عليها مرتين في السنة الماضية

فقال لا بأس فركي يديها. لا قدر أن أساعدك لأني خائر القوى الرب أعطى والرب أخذ ولكن أموال الناس ما الحيلة ما العمل

فظنت إنه خسر خسارة كبيرة في البورصة وقالت له المال فدى الرجال والذي يكسب يخسر أتخاف أن نموت جوعاً خسرنا خسرنا أين همتك وإلى متى نبقى عبيداً للمال

فقال أفركي يدي أمك وروحي لها روحي لها أنظري أظنها فتحت عينيها الآن أليس عندنا روح النشادر يا داود يا مريم يا لبيبة هاتوا حنجر روح النشادر ها هو فوق المغسلة في أوضة الست

فدخل الخادم وأتى به وأعطاه لاستير ففتحته وشممت أمها فحركت رأسها وفتحت عينيها ونظرت إلى ما حولها فوقع نظرها على زوجها ثم حاولت النهوض فساعدتها استير حتى نهضت وجلست وقالت لزوجها ماذا جرى هل رأيتك في حلم ولماذا رجعت من المكتب ألم أرَ اثنين من الكتاب يسندانك وأنت نازل من المركبة فماذا جرى لك

فقالت لها استير خذي راحتك الآن ماذا جرى له الظاهر أن الأسهم هبطت نصف جنية فظن أننا سنموت جوعاً. فالتفتت أمها إليه وقالت له قطعت قلوبنا أتنتظر أن تربح دائماً ولا تخسر. صدق فيك يوسف فإنه يقول أن قلب أبي على ماله إذا خسر غرشاً طار عقله معه

فقال قولي له ليسد فاه أتعلمين ما أصابنا الآن صرنا على الأرض

استير- صرنا على الأرض يا أبي ما هذه المبالغات حتى تقطع

قلب أمي آه لو تعلمتم العربية ورأيتم ما فيها من الحكمة. أسمع ما يقولون الدهر يومان يوم عليك ويوم لك فإن كان عليك فلا تضجر وإن كان معك فلا تبطر. وما قال شاعرهم

لقد علمت وما الإسراف من خلقي * أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
اســـعي لـه فيعنيني تطلبـه * وأن قعـدت أتـاني لا يعنيني
كم من فقير غني النفس تعرفه * ومن غنيٍ فقير النفس مسـكين

ثم فسرت له ذلك بالفرنسوية فقال لقد أصاب فإن الغني هو غني النفس ولكن هذه تسلية المفلس وأنت تظنين إنني خسرت في البورصة وتحاولين أن تخففي عني. لو خسرت بالبورصة لكنت أسكت ولا أشكو إلى أحد ولا أشكو من أحد لأن لومي على نفسي ولكن ليس الأمر كذلك بل أن لصاً خبيثاً دخل بنكنا في الليل الفائت وسرق منه كل ما نملكه حتى الأموال الغير المودعة عندنا ولم يسرقوا بنكنا فقط بل سرقوا بنك عزرا أيضاً

لما سمعت استير ذلك فتحت فاها وجحظت عيناها غصباً عنها أما أمها فعاودها الإغماء وجعل الزبد يخرج من فيها وحضر الطبيب حينئذٍ ودخل مع يوسف ووجدهم على تلك الحال فلم يعلم من يكلم ولا من هو المريض الذي دعى له وأشار الخواجة لاڤي إلى زوجته فبادر الطبيب إليها وكان حنجر الأمونيا لا يزال إلى جانبها ففتحه وشمه فعطس ثم أدناه من أنف مدام لاڤي وانتبهت استير إلى نفسها وتجلدت ودنت من أمها وعادت تفرك يديها ثم سارت إلى أبيها وقالت له قلت إنهم سرقوا بنك عزرا أيضاً فأنا لا أصدق ولابد من حيلة في الأمر وسأكشف لك السرقة والسارق. من قال لك إنهم سرقوا بنكه ومتى حدث ذلك

فقال لما كان حكمدار البوليس عندنا ينظر ما حدث نادوه من المحافظة بالتلفون وقالوا له ليسرع إلى بنك الخواجة عزرا لأن اللصوص كسروا خزانة الحديد وسرقوا كل ما فيها البارحة في نفس الوقت الذي سرقوا فيه بنكنا

فجعلت تتفرس في أبيها ثم التفتت إلى أمها فرأت إنها أخذت روعها فقالت لأبيها أنا ذاهبة إلى البنك مع يوسف لأرى بعيني. أنا أصدق إلا أن في الأمر حيلة

فقال لها أبوها أذهبي فأنت خير من ألف رجل

فأمسكت بيد أخيها ونزلت وهي تقول للخادم أسرع ناد لنا مركبة من الشارع ثم ركبت أول مركبة التقت بها وحثت السائق على الإسراع إلى أن وصلت إلى مكتب أبيها ودخلت مكان خزانة الحديد ورأت المصور يصورها فسألت وفحصت ودققت ثم ركبت مع أخيها وسارت إلى مكتب الخواجة عزرا. فلما رآها اضطرب في أول الأمر لكنه تجلد وسلم عليها وقال لها أرأيت ما حل بنا أنا وأبيك. فلم يخف عليها اضطرابه وقالت له نعم كأنه على ميعاد. فلم يفهم مرادها. ودخلت ودققت نظرها في خزانة الحديد وسألت عزرا مسائل كثيرة كأنها مهتمة بأمره كما هي مهتمة بأمر أبيها. فسرى عنه بعض الشيء وعاد يظهر عزة النفس بعد أن أظهر التذلل وقال لها الله كريم الرجال تجلب المال فقالت والذي اغتنى مثلك في سنةٍ لا يصعب عليه أن يسترد غناه في سنة. وبقيت نحو نصف ساعة تكلمه في موضوع السرقة وهو على تمام الحذر منها لأنه كان يشعر إنها أقوى منه. وهذا شأن النفوس الصغيرة متى وقفت أمام النفوس الكبيرة. ثم سألت مَن مِن رجال البوليس الموكل بالبحث والتحقيق

فقيل لها إنه إسمعيل أفندي وكان هناك حينئذٍ فسلمت عليه مصافحة وقالت له إننا نرجو اكتشاف غوامض هذه الجناية بمهارتك وأنا واثقة إنك لا تعجز عن اكتشافها. ووصل الشيخ أحمد في المساء ومر ببيت الخواجة لاڤي فنهضت استير للقائه وعرفت من وجهه إنه عارف بما جرى فقالت له كن مطمئن البال يا أستاذ فإن المال الحلال لا يضيع وإن ضاع

فقد تقلب الأيام حالات أهلها * وتعدو على أسد الدحال الثعالب

فقال لها لا فض فوك يا بنتاه ولكن المال والبنون لذة الحياة الدنيا

ولا رفع النفس الدنيئة كالغني * ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

*****

الفصل الرابع والثلاثون

القرض الجديد

لورد بنشيلد- لقد نجحت مساعينا فوق ما كنا ننتظر فالفوز حليف اليابان براً وبحراً والأسواق المالية تتلقف سنداتها تلقفاً ولابد لنا من أن نبيع كل ما عندنا منها قبلما يعقد الصلح ثم نشتريها بعده لأن فوز اليابان في ميدان القتال لا يضمن لها الفوز في ميدان السياسة والروس على ما نعلم من الدهاء فلو كان خصمهم فيها رجلاً من ملتنا مثل لورد بيكنسفيلد لوطناً النفس على الغلبة في السياسة

ناثان- أو كان بيكنسفيلد أقدر من الروس وأدهى

لورد بنشيلد- نعم كان كذلك ولقد سمعت عنه بالأمس قصة رواها كاتبة الأول لورد روتن بعد أن حفظها في صدره من عهد مؤتمر برلين قال. لما قر القرار على عقد المؤتمر كنت مريضاً من شدة ما قاسيت من عناء الاشغال وأنا كاتب بيكنسفيلد وكان هو أيضاً منحرف المزاج فأبي أن يذهب إلى المؤتمر ما لم أذهب معه. ولما قال لي ذلك وقعت في حيرة ولا حيرة الضب لم أشأ أن أتركه ولا كنت قادراً على الذهاب معه. وبعد حديث طويل في هذا الشأن قلت له إنني أمضي واستشير طبيبي فإن أذن لي في الذهاب ذهبت وإلا فلا. فمضيت واستشرت الطبيب وهو السر وليم غل ففحصني ملياً ثم قال لي أذهب كمشير للورد بيكنسفيلد ولكن لا تعمل عملاً آخر. ففعلت حسب أمره وذهبت ولم أصب بمكروه بل جادت صحتي على ضد ما قدرت كأن الاهتمام بما جرى في ذلك المؤتمر أنعش

قواي وفَعَل فِعل المنبه والمقوي. ولما أخبرت لورد بيكنسفيلد إنني ذاهب معه أشرت عليه أن لا نذهب مع لورد سلسبري وسائر رجال وزارة الخارجية بل نسبقهم ونمر على بركسل ثم نذهب إلى برلين وحدنا فعمل حسب مشورتي. وجاء لورد سلسبري برلين بقطار خاص معه أربعون موظفاً من نظارة الخارجية. ولم نكد نحن نصل إلى برلين حتى أرسل البرنس بسمارك بطلب مقابلة لورد بيكنسفيلد. ولما أخبرته بذلك قال قل للرسول إني أنا أذهب وأراه. وبعد نصف ساعة كنا في قصر ردزڤل حيث البرنس بسمارك فدخل بيكنسفيلد إليه وبقيت أنا في حديقة القصر في انتظاره ثم سمعت واحداً يناديني بأسمى فالتفت وإذا أنا بالكونت شوقالوف سفير روسيا في لندن وكان صديقاً لي فقال ما شأنك هنا وكيف وصلت إلى هذا المكان فقلت إني منتظر لورد بيكنسفيلد فقد أتي وأختلى بالبرنس بسمارك. ولما قلت ذلك امتقع كأنه كان آتياً لهذا الغرض فسبقه بيكنسفيلد إليه ولا شبهة في أن البرنس بسمارك عرف قدر بيكنسفيلد من تلك الساعة

وعقد المؤتمر وجرى في أعماله وطلب الإنكليز من الروس أربعة أمور قالوا أن لابد منها فقال معتمدو الروس إنها أمور هامة جداً لا يمكنهم أن يقبلوا بها ما لم يستشيروا القيصر ولابد لهم أن يبعثوا بها إليه مع رجل من أكبرهم مقاماً. فتأجلت جلسات المؤتمر ثلاثة أيام أو أربعة إلى أن يمضي الرسول ويعود

وفي صباح اليوم التالي دخل بيكنسفيلد غرفتي وقال لي أن الروس لا يقبلون بهذه المطالب وقد صممت على أن نعود إلى لندن بأسرع ما يمكن حتى نصلها الأحد مساءً فأنام وأستريح ثم أقوم في الصباح وأذهب إلى قصر الملكة وأعرض عليها نتيجة المؤتمر ثم

نشهر الحرب على روسيا فدبر ما يلزم لسفرنا حالاً. فأحضرت جداول السفر ونظرت فيها فوجدت إنه يستحيل علينا أن نصل إلى لندن يوم الأحد مساء ما لم نستأجر قطاراً خاصاً يقوم بنا من كولون وللحال أرسلت تلغرافاً إلى ناظر محطة كولون لكي يعد لنا قطاراً خاصاً يكون في انتظارنا الساعة الفلانية

فأدار ذلك التلغراف دفة السياسة لأني ألتقيت في اليوم التالي بالبرنس بسمارك وهو في مركبة مفتوحة فقال لي أين لورد بيكنسفيلد فقلت له إنه في النزل فقال هل يسهل على أن أراه الآن. فقلت نعم. فأخرج ساعته ونظر إليها ثم قال الآن الساعة الرابعة إلا اثنتي عشرة دقيقة وأنا مدعو لمقابلة مولاي الإمبراطور الساعة الرابعة تماماً وأحب أن أرى لورد بيكنسفيلد فهل تستطيع أن تدخل علينا الساعة الرابعة إلا خمس دقائق وتنبهني لكي لا يفوت الوقت علي. فقلت له إني أفعل وسرت معه إلى النزل وأريته الغرفة التي فيها بيكنسفيلد. وفي الساعة الرابعة إلا خمس دقائق تماماً قرعت الباب عليهما ودخلت وكانا يتكلمان عن عدم انتظام التبليط في الشارع المعروف بولهلم ستراس فاعتذرت إليهما وقلت للبرنس بسمارك أن الساعة قد صارت أربعاً إلا خمس دقائق وخرجت. وفتح الباب بعد دقيقتين وخرج البرنس بسمارك وصعد إلى مركبته ومضى لكي يصل إلى القصر الساعة الرابعة تماماً. ودخلت أنا واعتذرت إلى لورد بيكنسفيلد عن دخولي عليهما فقال لا بأس بذلك وأنا أعلم إنك لم تدخل لغير داع ولكن حدث في هذه الفترة حادث في حد الغرابة فإن البرنس بسمارك التفت إلى بعد خروجك وقال «قل لي هل تصر إنكلترا على هذه الأمور الأربعة وتحسبها بمثابة بلاغ أخير» فقلت «نعم» ولم يكن كلامنا في هذا الموضوع بل في مواضيع أخرى لا

علاقة لها به

وفي اليوم التالي اجتمع المؤتمر اجتماعه الأخير وطال الاجتماع ساعتين ثم فتح الباب وخرج المعتمدون والروس في أولهم وبقى لورد بيكنسفيلد إلى الآخر حسب عادته فمسك بيدي وسرنا معاً ولم نبعد إلا قليلاً حتى قال لي «لقد حدث أمر لم أكن أتوقعه فإن روسيا سلمت بكل مطالبنا». ثم علمنا أن تلغرافي فعل كل ذلك فإن ناظر المحطة في كولون أرسل صورة منه إلى بسمارك فرأى إننا عازمون على الحرب إن لم تسلم روسيا بالأمور الأربعة التي طلبناها. وكان القيصر قد أمر معتمدية أن يسلموا بكل ما نطلبه إنكلترا ولا يشتبكوا في حرب معها فلما رأي بسمارك من تلغرافي ومن الكلمة التي سمعها من بيكنسفيلد إننا مصرون على عزمنا أخبر معتمدي الروس بذلك فسلموا حالاً. أما المعتمد الذي أدعى إنه ذهب لعرض الأمر على القيصر فلم يذهب إلا إلى كوتنسبرج ولم يكن ذهابه إلا خدعة

هذا ما فعله بيكنسفيلد فغلب الروس في ميدان السياسة ولكنه لم يقدم عليه إلا وهو واثق أن تركيا تمده بالرجال وأن النمسا تحالفه على حرب الروس. وليس عند اليابانيين رجل يماثله ولذلك لا أعجب إذا خرج الروس منصورين في ميدان السياسة بعد أن دحروا في ميدان القتال ويجب أن ننتبه لذلك حتى إذا بدت لنا بارقة فوزهم السياسي اشترينا كل ما يمكن مشتراه من أوراقهم المالية لأنه لابد من ارتفاع أسعارها حالما يعقد الصلح

ناثان- وما الرأي الآن في هذا القرض الجديد الذي طلبته اليابان

لورد بنشيلد- لا بأس به ولابد من إكتتابنا فيه هنا وفي نيويورك وبرلين. وسواء أخذت اليابان غرامة أو لم تأخذ فإن أسعار أوراقها

تبقى مرتفعة إلى قبيل عقد الصلح ولاسيما ما دامت جرائدنا وجرائد أميركا تطنب في مدحها. كم دفعنا ياموريس لجرائد أميركا

فتناول موريس دفتراً نظر فيه ثم قال بلغ المدفوع حتى الآن نحو تسعين ألفاً يخرج منها تسعة وعشرون لجرائد باريس والبقية لجرائد أميركا وقد اشترينا نحو ثمانين في المئة من أسهم جريدة المساء ونصبنا هوغ على إدارة تحريرها

ناثان- هذه مبالغ زهيدة ولكن النفقات الكبيرة في روسيا. كم صار المدفوع حتى الآن

موريس- نحو مئة وثمانين ألفاً ومير يطلب أموالاً أخرى

لورد بنشيلد- لابد من الإنفاق ومن لا يزرع لا يحصد. والخلاصة إنه لابد من الاكتتاب بالقرض الياباني الجديد وحمل الروس على طلب الصلح والاستفادة من فورهم سياسياً

ولم يكد يتم هذا الكلام حتى قرع التلفون ونعي له ابن عمه البارون سلمون من ڤينا مات فجأة وخلف من الأموال ما لا يقع تحت الحصر حتى يقال أن ثلث المباني في تلك المدينة الفخيمة له فأطرق هنيهة وهو يقول في نفسه ماذا ينفع المال. ثم دارت المذاكرات بالتلفون في سبب الوفاة والوقت المعين للدفن. وقد أثر هذا الحادث في نفسه تأثيراً عميقاً فكان يجاوب ذويه في مذكراتهم وصورة الموت مرسومة أمام عينيه وكأنها تخاطبه بقول الشاعر

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوماً أن ترد الودائع

وفتحت وصية البارون سلمون بعد أيام فإذا هو قد أوصى بمليون جنية لتبني بها مستشفيات لمعالجة الفقراء فرحموا عليه وهم لا يدرون أن تلك الأموال مبتزة من دمائهم ودماء أمثالهم ولكنه فعل خيراً من الذين يبتزون الأموال ثم يتركونها كلها لأولادهم لينفقوها في الملاذ والمحارم

*****

الفصل الخامس والثلاثون

الرجوع من السفر

دورا- هذه سفن الغواصين فنحن الآن أمام عمان والبحرين من هنا يستخرجون اللؤلؤ النفيس أنظر ما أصغر مراكبهم وما أرق حاشيتهم أرأيت أفقر من هؤلاء المساكين وهم يستخرجون أثمن الجواهر ولكن لماذا أدنونا من جزيرة العرب إلى هذا الحد

هنري- لقد كنت أفكر في ذلك الآن. نعم هؤلاء هم الغواصون الذين تقلد أعناق ملكاتنا وأميراتنا بجواهرهم يعيشون في الماء وتفترسهم كلاب البحر ولا يكتسبون إلا ما يسد الرمق لكي تتحلى ربات الجمال وتتفاخر الغواني بالدور الغوال ولكن اسمعي كيف يوقعون غناءهم على حركات مجاذيفهم وقولي لي أهم أنعم بالا أم نحن. لا يكادون يتبلغون من العيش تبلغاً ونحن جمع لنا أبونا ثروة طائلة تكفينا وتكفي ألوفاً معنا وقد زاد المبيع اليومي من اللندن نيوز لواسطة هذه الحرب حتى فاق على المليون وها أنا وأنت لسنا أصح بدناً منهم ولا أنعم بالاً ومجموع الساعات التي يسر بها الواحد منا مدى عمره ليس أكثر من مجموع الساعات التي يسر بها الواحد منها ثم يأتي الموت ويساوي بيننا وبينهم فبماذا نفضلهم. أنظري عضلات سواعدهم وصدورهم ما أكبرها وما أقواها لم أرَ بين تلامذة أكسفرد وكمبردج الذين نعدهم أبطال العصر لسبقهم في التجديف من عضلاته أكبر من هذه العضلات أو أشد منها توتراً. أنظري لقد أوقفوا التجديف فقد هب النسيم البحري بعد أن سخنت أشعة

الشمس اليابسة وهم يرفعون الشراع. ما أسرع حركاتهم رفعوه فامتلأ هواء ويكاد هذا الزورق يلحق بنا لكنه لا يريد الانفصال عن رفاقه. أبعدنا عنهم لا شيء يضاهي البخار

وبينما هما يتكلمان دنا القبطان منهما فقالت له دورا أرأيت زوارق الغواصين فقال نعم رأيتها فاستغربت خروجها في مثل هذا الوقت وأبعادها إلى هذا الحد لأن زمن استخراج اللؤلؤ فات وهو من إبريل إلى آخر سبتمبر ولكن المرض الذي اعتراه قلل ما استخرج منه هذا العام فأضطر الملتزمون إلى أن يصلوا الصيف بالخريف لكي يعوضوا عما نقص

وانقضى ذلك اليوم والسفينة تمخر في بحر رهو إلى أن آذنت الشمس بالمغيب فتلبدت الغيوم وتكائف السحب حتى أظلم الجو ثم بدا على وجه البحر نور مستطير وانتشر حتى بلغ الأفق فذر الركاب واجتمعوا على ظهر الباخرة وهم يظنون أن ناراً اضطرمت في ماء البحر فتهلل وجه القبطان وقال لدورا رأيت هذا النور مرة واحدة قبل الآن وهذا هي المرة الثانية وقد احار العلماء في تعليله واكثرهم على إنه من الظواهر الكهربائية النادرة مثل الشفق القطبي

فقال أن العلماء يحيلون على الكهربائية كل ما يجهلون سببه كأنها صارت علة العلل

فقال ولا غرابة في ذلك بعد أن بينوا لنا أن جواهر المادة نفسها دقائق من الكهربائية فإذا كانت المادة نفسها كهربائية فلا عجب إذا كانت ظواهرها كلها من نتائج الكهربائية

وسمع بعض الركاب كلامه فجعلوا يتساءلون ويتباحثون فيه فقال أحدهم أن هذه الظاهرة من ظواهر الكهربائية وقال آخر إنها

من الشفق القطبي وقال غيره أن مركوني كهرب ماء البحر ليرسل به إشاراته التلغرافية. وقالت إحدى السيدات أن اليابانيين كهربوا البحر لينسفوا بوارج الروس وأتصل الخبر بالخدم فذعروا وهرعوا إلى ظهر السفينة فعلت الجلبة وشاط الطعام على النار واضطر القبطان أن يأمر بتفرقهم ورجوعهم إلى أماكنهم. وتدانت أذيال السحب فماست البر والبحر وهطل الغيث مدراراً فزال النور المستطير وعصفت الرياح وتعالت الأمواج فهرب الركاب إلى غرفة الجلوس وكان البارومتر قد أنذر منذ يومين بنوء شديد فأتجه القبطان شمالاً لكي لا يداني جزيرة سقطري وأخفى ذلك عن الركاب لئلا يقلقوا على غير جدوى ومرت تلك الليلة وكانت شديدة عليهم كلهم لم يروا فيها نجماً ولا قمراً وطلع الصباح والسماء ملتحفة بالسحب وأشعة الشمس تحاول اختراقها فيمتصها البخار امتصاص الرمل للماء فأضيئت المصابيح الكهربائية وأقام الركاب في أماكنهم يقرأون ويلعبون ويسمعون صوت نقط المطر تقرع كوى السفينة. ومر يومان على هذه الصورة ثم زاد اضطراب البحر وقتام الجو ولم يكن الوسق كثيراً حتى يخففوه ولا كان خوف القبطان إلا من الصخور المنتشرة حول جزيرة سقطري فكان همه الأكبر اجتنابها وليس في الجزيرة منار يهتدي به فأقام على المرقب لعله يرى البر فيستهدى لكن السحب كانت تحجب كل شيء والدلائل كلها تدل على أن ذلك النوء واسع النطاق وقد يدوم يومين أو ثلاثة فأسقط في يده وجعل يطوف في السفينة يتفقد القوارب والعوامات ويوصي البحارة بالسهر والتيقظ حتى إذا خافوا غرق السفينة أنزلوا النساء والأولاد والعجزة في القوارب وألبسوا الرجال أنطقه العوم. ورآه الركاب مضطرب البال فاجتمعوا حوله يسألونه فلم يخف عنهم

إنهم في خطر مبين وطلب منهم أن يستعدوا لملاقاته

فعلت الضوضاء بين الركاب وأسرع كل منهم إلى أمتعته يحمل منها ما غلا ثمنه وخف حمله واجتمعت العيال بعضها مع بعض وجثا أهل ألتقى منهم يتوسلون إلى الحق سبحانه مثير العواصف ومسكن الرياح لكي يلطف بهم. وتذكر الآباء أولادهم والأولاد آباءهم والأخوة أخوتهم فعلت الحسرات وفاضت العبرات وقطع الرجاء من النجاة. وامسكت دورا بأخيها وقالت له ما قولك يا هنري نجونا من رصاص البنادق لكي نقع فريسة للأسماك وكيف يكون حال والدينا بعدنا. فنظر إليها ثم إلى البحر ولم يحر جواباً نظر إليها كمن سدت عليه مذاهبه ورأى الموت أما عينيه ولكن الأمل بالحياة قوى في صدره. ثم حاول التخفيف عنها فلم يطاوعه لسانه فقال لابد لهم من انزال القوارب الآن لأني رأيتهم وضعوا فيها الماء والزاد فأنزلي في قارب منها وأنا أخذت عوامة حتى إذا امتلأت القوارب ولم تعد تسع أحداً تبعتكم سباحة ولا أظن إننا بعيدون عن البر أكثر من ميلين أو ثلاثة وقد أعتدت السباحة فلا يعسر على أن أسبح ستة أميال

وقبل أن يتم كلامه ارتجفت السفينة ارتجافاً عنيفاً وسمع صوت شديد من قعرها لأنها أصابت صخراً خرقها فأسرع البحارة إلى الطلمبات وأعملوها ثم رأوا أن الماء الداخل إليها يزيد على ما يستطيعون إخراجه منها فأمر القبطان بإنزال القوارب وأن ينزل إليها النساء والأولاد وبعض القادرين على التجديف. وتوسلت دورا إلى أخيها لكين ينزل معها لأنه من البارعين في التجديف فرد مفضلاً ان ينزل غيره بدلاً منه وخلع ثيابه وأستعد للحاق بها سباحة فأمسكت به ولم تشأ أن تتركه وحده وبينما هي على هذه الحال دنا منها أحد البحارة ورفعها بين يديه وناولها لآخر فوضعوها في القارب رغماً عنها

ووقف القبطان والمسدس في يده لكي لا ينزل أحد في قارب فوق ما يحتمل لئلا ينقلب بالركاب كلهم وإذا حاول أحد النزول في قارب بعد أن يمتلئ رماه بالرصاص. فامتلأت القوارب وسارت تتقاذفها الأمواج ودورا وكثيرات مثلها ينادين أخواتهن وأزواجهن مازجات الصياح بالنحيب والقوارب تعلو بهن حتى تكاد تقف على مؤخرها ثم تسفل حتى يحجبها الموج عن الأنظار. وكان البر قريباً كما ظن هنري ولم يكن إلا نصف ساعة أو حواليها حتى تقشعت السحب ودنت القوارب من البر ورآها السكان الموكلون بحماية من يقع على جزيرتهم فاجتمعوا على الشاطئ والحبال في أيديهم ونزل بعضهم في البحر وجعلوا يرمون الحبال ليمسك بها من في القوارب فنجوا كلهم سوى قارب انقلب بمن فيه قبلما أبعد عن السفينة فلم ينج منهم واحد

وحالما وطئت رجل دورا البر تسلقت صخراً عالياً ووقفت على رأسه تستشرف البحر لعلها ترى السفينة أو ترى أخاها أما السفينة فلم ترها مع أن السحب كانت قد انقشعت لأن الأمواج ابتلعتها بعد مغادرتها لها بدقائق قليلة فزاد خفقان قلبها وشعرت كأنه كاد ينفطر في جوفها وارتجفت ركبتاها لكن جلد النساء وقت الشدة أقوى من جلد الرجال وكان الأمل يزين لها أن أخاها في البحر يسبح على مهل لأنه من أمهر الشبان في السباحة ثم يزاحمها اليأس فيضيق نفسها. وكانت حديدة البصر لم يتعب الدرس الكثير عينيها فرأت عن بعد شبحاً خيل لها إنه أخوها. كان وجدانها يقول لها إنه أخوها وعقلها يقول إنه قطعة من أخشاب السفينة أو واحد آخر من الركاب الذين بقوا فيها وهم نحو مئة نفس فإن صح أن يكون الشبح أخاها مرة صح ان يكون غيره مئة مرة. وتضاربت هاتان القوتان العقل

والوجدان لكن المرأة أخضع لوجدانها منها لعقلها والأمل يجسم الأماني فيجعلها حقائق فلبثت في مكانها وقلبها يخفق أمواج البحر إلى أن دنا ذلك الشبح منها ورأت معه ثلاثة أو أربعة يسبحون ويغالبون الأمواج فعرفت أخاها من قميصه الحمراء ومن إرشاد قلبها فلم تعد تشعر بقيامها على ذلك الشاهق بل شعرت كأنها جزء من أخيها تصعد معه وتهبط إلى أن دنا من صخور الشاطئ حيث نتنفث الأمواج وترتد على أعقابها مرغية مبزبدة فخافت أن تكون قواه قد خارت فنزلت عن الشاهق وجعلت تعدو على الصخور لملاقاته وهي تقع وتقوم وشناغيب الصخور تدمي يديها وتمزق ثيابها وتبعها بعض الأهالي وبيدهم حبل طويل ووصل أخوها حينئذٍ إلى تيار بين صخرين كبيرين فجعل التيار يبعده أكثر مما تدنيه ساعداه وأهالي الجزيرة يشيرون إليه ليبعد عن التيار جنوناً وهو لا يسمع كلماتهم ولا يفهم إشاراتهم ومرت على دورا بضع دقائق كأنها بضعة أعوام رأت الموت متجسماً أمام عينيها وقد أتى ليخطف أخاها من بين يديها وهي ممسكة به تقول كلانا حي أو كلانا ميت ولن أقابل ولدي بدونه وظلت تثب من صخر إلى صخر ورشاش الأمواج يلطم وجهها حاقداً حرداً ومخاوف الموت تتراءى أمامها فلا تزيدها إلا جرأة وجلداً إلى أن خارت قواها وتقرحت قدماها فوقفت تحاول خلع ثيابها لترمي بنفسها إلى البحر فوقعت لا تعي على شيء. وكان بعض أهالي الجزيرة قد وصلوا إليها فحملوها وعادوا بها إلى البر وهي بين الموت والحياة

*****

الفصل السادس والثلاثون

ثالثة الأثافي

خادم- مدام واصف بك مشيعه لك لتذهبي حالاً وترى ستي بهية

استير- ما لها أمس كانت عندي

الخادم- يقولوا إنها عمال تعيط هي وأمها

فقامت استير حالاً ووضعت برنيطة على رأسها ومشت إلى بيت واصف بك ودخلت غرفة استير فوجدتها جالسة وعيناها تدمعان ولما رأت استير خنقتها العبرات وجعلت تشهق والقت رأسها على سريرها وكانت أمها جالسة في جهة أخرى من الغرفة وهي تبكي أيضاً فحارت استير في أمرها ودنت من مدام واصف بك أولاً واعتنقتها وقالت لها قولي لي ما الخبر. فأشارت إلى جريدة مفتوحة أمام بهية فأخذت استير الجريدة تنظر فيها حيث تكتب المناعي بين الخطين الأسودين فلم تر اسم أحد تعرفه فانحنت وقبلت بهية وقالت لها قولي لي ما الخبر ومن مات من معارفنا. فقالت بهية بعد أن كفكفت دموعها أنظري هذا التلغراف فإنه يقال فيه أن الباخرة أكاديا غرقت عند ساحل سقطري وغرق نحو مئة من ركابها آه يا استير أرسل هنري إلينا تلغرافاً من بمباي يقوم إنهم مسافرون في هذه السفينة فخفق قلبي من ذلك الحين والإنسان قلبه دليله أندبي معي أندبي سوء حظي آه يا استير آه يا ربي ما هذه المصيبة. وجلست استير إليها واعتنقتها وجعلت الاثنتان تبكيان واستير تحاول تصبيرها

بقولها ما أدرانا إنهما ليسا بين الذين نجوا وهي لا تتصبر بل تقول الإنسان قلبه دليله

وذهب أحد الخدم بالمركبة لمقابلة واصف بك وكان آتياً من الوجه القبلي وقد تأخر القطار عن ميعاده نحو ساعة فعاد به إلى البيت ولما دخله استقبله خادم آخر وأخبره خبراً أوقفه مضطرباً ثم قال للخادم متى كان ذلك فقل له منذ ساعة من الزمان والظاهر أن الست الكبيرة وستي بهية عرفتا قبلنا وهما تبكيان مع ستي استير في أوضة ستي بهية

فدخل غرفته ونفض الغبار عنه وغسل وجهه ودخل غرفة أبنته فلما رأيته عدن إلى البكاء فقال لهن لا أحد يخالفكن في إنها تستحق أن يبكي عليها ولكن كلنا نعلم إنها استراحت من الألم وما كان يمكن أن تطول حياتها أكثر من ذلك

فنظرن إليه مبهوتات وقلن له بلسان واحد من من من تعني. وقالت استير حليمة حليمة قال أبي في الصباح إنها تحت رحمة ربها آه يا حليمة يا أختي حليمة

واجتمع الحزنان فكانا أشد مما تحتمله تلك القلوب حالة تصورها صعب والتعبير عنها أصعب ولا يدركها إلا من فقد حبيباَ تتمة القصة في الجزء التالي

*****

الفصل السابع والثلاثون

من مرسيليا إلى مصر

اليوم صحو والبرد قارس والناس يمرون في الشوارع ذهاباً وإياباً متلفعين متلثمين كأنهم في أواسط فصل الشتاء. وباعة السمك والمحار عابسون ممتقعون لم يصطادوا شيئاً في الليل الغابرة لشدة الأنواء. وقد أنحل عقد الأعتصاب وعاد عمال الرصيف إلى أعمالهم بعد أن عضهم الجوع فشحنوا السفن ونقموا على رؤسائهم الذين اغروهم باعتصاب لم يجنوا منه غير الضرر

ركب السر ادورد برون وزوجته لادي برون سفينة من السفن الإنكليزية الكبيرة التي تذهب إلى الشرق الأقصى وفيها عدد عديد من الركاب أكثرهم من الإنكليز الموظفين في مصر والهند استأجروا أماكنهم فيها من لندن ووافوها برا إلى مرسيليا افتداء للوقت وتخلصاً من إنواءٍ خليج بسكي. ولما أبعدت بهم السفينة عن البر نشر البحارة خيمة على ظهرها كالبيت المحكم وانتشر الركاب فيها زرافاتٍ ووحداناً وجلست لادي برون إلى جانب زوجها ودار بينهما الحديث التالي

لادي برون- لم أتعب في حياتي كما تعبت الآن. يا حبذا لو أتينا بطريق جبل طارق

السر ادورد برون- المسافة من لندن إلى مصر بطريق جبل طارق اثنا عشر يوماً وبطريق مرسيليا ستة أيام وما أدرانا إنه لا يكون نوء في الاتلنتيكي كما يكون عادة في هذا الفصل من السنة ثم إني أنا كنت

معك ولم أتعب

لادي برون- أنتم الرجال تقوون أجسامكم بالرياضة وتنسون إننا نحن النساء لم نكن نفعل ذلك فلا نستطيع تحمل المشاق مثلكم أما بناتنا فر بين على غير ما ربينا نحن ولا أظن أن هنري أقوى على تجشم المشاق من دورا. كم تظن إننا أبعدنا عن البر الآن يا ادورد

السر ادورد- لا أقل من أربعين ميلاً يا ادث لأن السفينة تسير ثمانية عشر ميلاً في الساعة وقد مضى الآن أكثر من ساعتين من حين أقلعت بنا

لادي برون- ما أسرع ما يمضي الوقت مضت ساعتان كأنهما دقيقتان. أتظن يا ادورد إننا نلتقي بهنري ودورا في بورت سعيد

كلا لأنهما يدخلان القطر المصري بطريق السويس وسيسبقاننا إلى مصر ببضعة أيام فنجدهما هناك. وقد أخبرتهما بالتلغراف أن ينزلا في هوتل ساڤوي حيث نزلا أولاً وحيث استأجرنا شقة للنزول فيها

ومر اليوم الأول والثاني والثالث من غير أن يحدث في الباخرة شئ غير عادي فقضي الركاب هذه الأيام الثلاثة في الأكل والشرب واللعب والنوم والتفكه بالحديث. ولما مروا ببوغاز مسينا كان البحر هائجاً ولكن هيجانه لم يكن شديداً فلم يصب بالدوار إلا بعض الركاب. والسفينة كبيرة ووسقها كثير وكل ما فيها نظيف جداً والفحم الذي يوقد فيها قليل الرائحة القطرانية فساعد كل ذلك على أراحه ركابها ونجاتهم من الدوار لاسيما وأن الرجفان الذي ترجفه بعض البواخر فيقلق الركاب لم يكن في هذه الباخرة. وفي صباح اليوم الرابع كانت لادي برون تقلب الجرائد في غرفة القراءة

فوجدت في جريدة مرسيليا الصادرة يوم سفرهم منها تلغرافاً من عدن منشوراً بحروف دقيقة في مكان لا يستلفت النظر يقال فيه أن الباخرة أكاديا من بواخر الباسيفيكي غرقت عند ساحل سقطري بمن فيها. فلما وقع نظرها عليه ذهلت لحظة من الزمان كأنها في حلم ثم صرخت صرخة منكرة ووقعت الجريدة من يدها وكان زوجها يكتب إلى جانبها فنهض إليها مذعوراً وقال ماذا ماذا فألقت رأسها على كتفه وهي تقول أولادنا أولادنا الباخرة التي كان فيها أولادنا الباخرة أكاديا غرقت بهما غرقت غرقت آه يا هنري يا دورا يا ولدينا يا ربي ما هذه البلية ما هذه المصيبة أنظر أنظر اقرأ غرقت غرقت كان قلبي يحدثني بذلك من حين أرسلناهما إلى هذه الحرب المشومة لعن الله الطمع لعن الله المال نضحي أنفسنا وأولادنا لأجل مصلحة الأمة لكي تزيد الأموال في صناديق الأغنياء آه يا ربي ما هذه المصيبة. وجعلت تبكي وتنتحب. وتناول السر ادورد الجريدة ونظر فيها سريعاً إلى أن وصل إلى التلغراف المرسل من عدن فارتجفت يداه واصطكت ركبتاه وانقطع عن الكلام. واجتمع الركاب حولهما هذا يقول خسر في البورصة وهذا يقول احترقت إدارته. وسمعت امرأة كلام لادي برون فقالت للذين حولها أن أولادها غرقوا في البحر الظاهر إنهم نزلوا ليسبحوا فغرقوا. وأسرع بعض معارفهما ليسألوهما عن جلية الخبر فأشار السر ادورد إلى التلغراف وقال بصوت خافت أن ولدينا كانا في هذه السفينة. فوقع كلامه كالصاعقة على جميع الذين سمعوه وجعلوا يتناجون في ما بينهم قائلين ما أعظم هذه المصيبة وما أفدحها. وغلب الحزن على بعض النساء ولاسيما اللواتي لهن أولاد في الغربة وجعلت كل واحدة تفكر في أولادها. ثم أن السر ادورد تجلد وقام وسأل القبطان عما إذا كان

يستطيع أن يدخل بهم مرفأ من المرافئ القريبة ليبحث عما حل بركاب أكاديا فقال أن أقرب مرفأ إلينا مرفأ الاسكندرية ولكن مرورنا عليها يؤخر البريد ويضر بالمسافرين عدا عما يلحق شركة البواخر من الخسارة. فقال السر ادورد أما خسارة الشركة فأنا أتحملها مهما كانت وأما البريد والركاب فلا سبيل لي إلى ارضائهم وأطرق أطراق اليئس القانط. وأدرك الركاب مراده وكان بينهم رجل مقدام فأخذ ورقة وكتب فيها سطرين مفادهما إننا نحن ركاب الباخرة الكسندرا نلتمس من قبطانها أن يمر بنا على الاسكندرية ويقف بها ولو ساعتين من الزمان. ووقع الورقة ودار بها على الركاب في الدرجة الأولى والثانية فوقعوها مبتهجين وكان إذا توقف أحدهم عن توقيعها يبسط له الذين حوله واقعة الحال ورفعوا الورقة إلى القبطان وتناولها السر ادورد وكتب تحتها إنه يقوم بكل النفقات التي تترتب على تغيير خطة الباخرة. فقبل القبطان طلبه ووجه الباخرة إلى الاسكندرية فوصلتها في اليوم التالي

ولم يكد السر ادورد يصل إلى البر حتى بعث بالتلغرافات إلى عدن ولندن يسأل عما حل بالباخرة أكاديا وعن أسماء الناجين. وسارت لادي برون معه إلى بيت التلغراف وجلست هناك تنتظر الجواب وهي غائصة في بحار اليأس تتصور ولديها تتقاذفهما الأمواج وقد أمسك هنري بذارع دورا يحاول السباحة بيمينه ورفع رأسها فوق الماء بيساره فيصعد قلبها بصعودهما فوق الماء ويهبط بهبوطهما فيه ثم تتعالي اللجج وتغمرهما ويرغي البحر ويزيد حيث غاصا فيه فيغوص قلبها في صدرها وينقطع نفسها حتى تكاد تختنق ثم تلوح لها بارقة أمل إذ ترى الزوارق مسرعة لإنقاذ ولديها فتتنفس الصعداء وتشير بيديها وعينيها إلى حيث غاصا في الماء وينقطع

نفسها ثانية وتقف بين اليأس والرجاء وكأن حياتها معلقة بتلك الزوارق. وظلت على هذه الحال إلى أن خارت قواها وكثر الفضول في دماغها فأغمى عليها وتاهت في فيافي البحر أن لا تعي علي شيء

*****

الفصل الثامن والثلاثون

كشف المخبأ

القاهرة قائمة قاعدة ولا حديث للناس ولا بحث للجرائد إلا في سرقة بنك الخواجة لاڤي والخواجة عزرا. وقد ثقل الرز على الخواجة لاڤي فرزح تحته مع أن ما سرق له لا يوازي جزءاً صغيراً من ثروته فكيفما التفت إليه رأيته مبهوتاً يتمتم وينغض رأسه مرة بعد أخرى كأنه يحسب الأموال التي فقدها ويفكر في الأساليب التي توصل إلى استرجاعها ثم يرى إنها عميقة فيرفضها. وحذت زوجته حذوه كأنها تشربت أخلاقه كلها من هذا القبيل ورزح بها الهم فكانت تفضي أكثر وقتها في سريرها. أما يوسف فلم يبال بما حدث ولا اقتصد في نفقاته بل كان يقول لمن يكلمه في هذا الموضوع أن أبي يريد أن يترك لي مال روشيلد وأنا لا أريد أن أحمل حملاً عجز هو عن القيام به. ولكنه لم يكن يجسر أن يكلم أباه في هذا الموضوع لأن أباه كان ينتهره ويزيد هماً وغماً فترك الأمور تجري مجراها

وأما استير فكانت كاللبوة الثاكل فلم تترك سبيلاً للبحث إلا طرقته لا حباً بالمال بل رغبة في اكتشاف السارق. وتولت مقابلة المحامي ورئيس النيابة ورؤساء البوليس إلى أن انتهت التحقيقات على ما تريد. وقبل أن ترفع القضية إلى المحكمة جاء خبر غرق الباخرة التي كان فيها هنري وأخته فاسودت الدنيا في عينيها وطار صوابها وصار شغلها الشاغل تعزية بهية

وقد تضاربت الأقوال في أمر السرقتين وخاضت الجرائد فيه على خلاف عادتها وجعل بعضها بصدر نشرات إضافية في المساء أو في الصباح لإذاعة ما ظهر من مخبآت المسألة أو لا يهام القراء أن آثار السرقة وجدت في أماكن بعيدة. وانتشر البوليس السري في إحياء العاصمة وأنحاء القطر وجعلت البنوك تفحص كل ورقة مالية تقدم لها واهتمت النيابة العمومية بالأمر اهتماماً غير عادي لاسيما وأن رئيسها الأول استعفى من منصبه أو أوعز إليه ليستعفي منه. وشاع أن الحقانية اهتمت بمذكرة المحامي عن الخواجة لاڤي في مسألة السائق والإيطالي حيث قال فيها أن ليس الغرض من المحاكم أن تحكم بأن حجة زيد أقوى من حجة عمرو كما يفعل أهل الجدل بل أن تكتشف الحق وتبينه. وحسبت أن ذلك مبدأ قانوني وآخذت القضاة بأنهم لم يهتموا بالبحث لاكتشاف الرجل الذي اغرى ذلك الايطالي بطرح نفسه أمام المركبة. ولما قال لها أحدهم إنني كنت أعلم أن الرجل مغري بهذا الفعل ولكن المحامي لم يبين من أغراه به وليس من شأني أن أقوم مقام المحامي في إظهار حق موكله عنفته تعنيفاً شديداً وخيرته بعد أن يستعفى أو يحاكم فأختار المحاكمة أولاً ثم أختار الاستعفاء. ورسخ في الأذهان من ذلك الحين أن القضاء يطلب من القضاة أن يظهروا الحق ولو عجز المحامون عن إظهاره

واتفق أن حدثت هذه الأمور كلها في غضون التحقيق عن السرقتين فزاد الاهتمام بهما والقى البوليس القبض على ثلاثة ترجحت التهمة عليهم وعزرا في جملتهم. ألقى القبض عليهم كلهم في ساعة واحدة وسيقوا إلى السجن وضرب أجل لمحاكمتهم بعد ستة أيام. ولما شاع أن عزرا في جملة المتهمين تضاربت الأقوال والظنون وظن الأكثرون أن النيابة مخطئة في عملها أو إنه يتعذر

عليها أن تثبت التهمة عليه وغصت المحكمة وساحتها بالناس قبل المرافعة بساعتين وأني بالمتهمين ووضعوا في قفص المجرمين وذكر القاضي خلاصة التهمة وهي أن الخواجة عزرا تواطأ مع اثنين من اللصوص فقلدوا مفاتيح الخزانة الحديد التي في بنك الخواجة لاڤي وسرقوا ما فيها ثم قصدوا إخفاء فعلتهم فكسروا خزانة الحديد التي في بنك الخواجة عزرا وأخذوا كل ما فيها ولاسيما دفاتره وأن المسروقات كلها وجدت في بيت الخواجة عزرا وأخذوا كل ما فيها ولاسيما دفاتره وأن المسروقات كلها وجدت في بيت الخواجة عزرا نفسه وظهر في فحص دفاتره إنه لم يكتف بالسرقة ومشاركته اللصوص بل زود دفاتره في أماكن كثيرة فأختلس من الذين كانوا يشتغلون معه أموالاً طائلة

ثم وقف رئيس النيابة وجعل يبسط الأدلة التي أوصلتهم إلى اكتشاف السرقتين والسارقين وكان أقواها آثار أنامل عزرا على الخزنتين كما ظهرت في الصور الفوتوغرافية التي صورت الخزنتان بها بعيد السرقة وأورد أقوال الثقات في أن آثار الأنامل أدل دليل على صاحبها لأن شكل الخطوط التي في أنامل الشخص الواحد لا يلتبس بشكل الخطوط التي في أنامل غيره. واستغرقت مرافعة رئيس النيابة نحو ساعتين فلم شاركهما في ذلك لاسيما وقد وجدت المسروقات كلها في بيته أما شريكاه يهوذا وحاييم فكانا غائبين

وتكلم بعده المرافع عن اللصين فقال إنهما أغريا إغراء أغراهما عزرا بذلك لغرض في نفسه لا بقصد السرقة واختلاس الأموال وطلب أن ترفق المحكمة بهما. ثم تكلم حنين أفندي مدافعاً عن عزرا فبسط الكلام على أماني الشبيبة وكيف تحسن للشبان عمل أعمال يتجنبونها لو قدروا عواقبها وما ذلك عن قصد سئ بل عن

خلل في قواهم العقلية سببه شدة القوة الحيوية فيهم وكثرة توارد الدم إلى أدمغتهم فيحرف أحكامهم ويحملهم على ارتكاب الموبقات وشأنهم في ذلك شأن المجانين الذين لا يطالبون بما يفعلون. وأفاض في هذا الموضوع وأشار إلى حب عزرا للسيدة استير واليأس الذي وقع فيه لما رآها تعرض عنه ازدراء وتزيين الهوى له أن يوقع أباها في ورطة ثم ينقذه منها لكي يكتسب رضاه ورضاها. واستشهد على صحة حجته بأقوال كثيرة لمشاهير الأطباء وبأن عزرا احتفظ بكل ما أخذه ما خزانه الخواجة لاڤي لم يفرط بغرش منه ثم طلب أن يعامل بالرحمة

أما أحمد بك المطالب بالحق المدني فلم يطلب سوى أن ترد الأموال وفوائظها ولم يعارض في طلب الرحمة للمدعي عليهم

وقام القضاة للمداولة فتداولوا دقائق قليلة ثم اصدروا حكمهم بنفي يني اكولبلو ورفيقه وبالسجن سنتين على عزرا وبرد المسروقات إلى أصحابها وبأن يدفع عزرا فائدة الأوراق المالية بمعدل سبعة في المئة وسائر النفقات

وكان عزرا قد استدعى حنين أفندي إلى السجن قبل المرافعة بيوم وأنفرد به ساعة من الزمان وعاد حنين أفندي من عنده ومر على مكتب أحمد بك وسار به إلى بيت الخواجة لاڤي وقال مخاطباً الخواجة لاڤي أن عزرا ولدكم وابن أمتكم قد زين له الغرور إنه أهل لأن يقترن بأبنتكم حاسباً أن البنت مهما كان أبوها ترتضي بفتى مثل أخيها ولا يقل سعياً عن أبيها. وعزرا كما تعلم من أكثر شبان أمتكم سعياً وقد كسب ثروة طائلة في سنتين من الزمان فلما رأى أن السيدة استير تنظر إليه شزراً وأن كل توددة إليها لم يجده نفعاً طار صوابه

وفعل فعل المجانين وأنا أقدر أن أثبت لك طبياً يا خواجة لاڤي أن الولد جن وما هذه أول مرة جن فيها العاشق ففعل فعل المجانين واتفق مع اللصوص على سرقة مكتبك لا طمعاً بالمال بل لكي يكتشف لك السرقة أخيراً ويقلدك منةً وظن أن يضيف أمواله أيضاً إلى المسروقات حتى يجد أموالك بحجة التفتيش عن أمواله فالقصد حسن كما ترى ولكن فعله في حد الحماقة لا يفعله إلا المجنون فأرحم شبابه وأرحم ذوبه ولا نقض عليه قضاء مبرماً

فتأثر الخواجة لاڤي من هذا الكلام وقال لا مانع عندي إذا كان أحمد بك يرى وجهاً للعفو عنه ولكن لابد من أن يرد لي أموالي كلها مع فوائظها مدة شهر أو أكثر

فقال حنين الأموال كلها في المحافظة وسنسلمها إليك بعد الحكم

الخواجة لاڤي- والفوائظ

حنين أفندي- أنا أتعهد لك بها على معدل خمسة في المئة كما تقدرها المحكمة

الخواجة لاڤي- أنت تعلم أن القطع غالٍ الآن والبنوك لا تسلف إلا بسبعة في المئة فلا أقبل إلا سبعة في المئة

فقال حنين أفندي سبعة في المئة سبعة في المئة فقل لأحمد بك أن لا يطالب بالحق المدني بل يؤيدنا في طلب الرحمة

فسر الخواجة لاڤي لأنه لم يكن يشاء الانتقام من عزرا بل كان يشفق عليه وطلب من أحمد بك أن يفعل كل ما في وسعه لإنقاذه ولما بلغه حكم المحكمة سري عنه وود لو أطلق سبيله وودت استير

أن يكون عقاب عزرا أشد ولكن سرورها باكتشاف اللصوص وحزنها على هنري وأخته صرفاها عن الاهتمام بأمره ولاسيما بعد أن علمت إنه فعل ما فعل حباً بها

*****

الفصل التاسع والثلاثون

(الخاتمة)

القمر بدر والسماء صحو وجو القاهرة لا ضباب ولا غبار كأنه تهيأ لرصد الكواكب. وأبو الهول يرقب النيل جارياً في مجراه ورمال الصحراء تتهيب حماه. والهرم الأكبر واقف كاسف البال كأنه مجرم يخشى العقاب لأنه لم يمنع اللصوص من هتك حرمته واختلاس وديعته. ورعمسيس الكبير الذي ضاقت به الدنيا بما رحبت احتواه صندوق صغير في المتحف الجديد وجلس بين آبائه وأولاده وقد غارت عيناه ولصق جلده بعظمه

في تلك الليلة أنيرت دار واصف بك ونصب في حديقتها سرادق فخيم قلعت له الرياحين من خمائلها وأبدلت بالبسط الوثيرة ووضعت فيه الكراسي والمقاعد المذهبة وعلقت في الثريات الكبيرة وأبدلت شموعها بالكهربائية وتخللت أنوار الكهرباء أغصان الأشجار ونابت فيها مناب الأثمار ووقفت الموسيقى العسكرية أمام الباب الكبير تحيي المدعوين وجماعة من جلة الشبان يستقبلونهم رجالاً ونساؤهم من كل الأمم القاطنة في القطر المصري والسياح الذين يفدون إليه كل شتاء من الأقباط والعرب والشوام والأتراك والجراكسة والفرس واليونان والطليان والإنكليز والفرنسويين والألمان ومن كل طبقات الناس من نظار الحكومة ومستشاريها وكبار الموظفين فيها ووكلاء الدول الأوروبية وكبار ائمة الدين ورؤساء التجار ومديري الشركات وأرباب الأملاك وأصحاب

الصحف. وأكثرهم بالزي الأفرنجي أو التركي وبعضهم بالزي البلدي وكلهم بأفخر ملابسهم ولاسيما النساء الأوروبيات والأميركيات فإنهن كن بحلل المساء تتألق الجواهر في رؤوسهن ونحورهن وتنضوع الروائح العطرية من طاقات الأزهار في أياديهن

وفي الساعة العاشرة عزفت الموسيقى المجرية في غرفة عالية تطل على الدار الداخلية وكانت هذه الدار قد أعدت للرقص وهي من أرحب دور القاهرة وأعلاها بنياناً وقد وقف حولها مئات من الرجال والنساء في الغرف المحدقة بها متهيئين للرقص فيها ودخلها أربعة أزواج كهلان وكهلتان وفتيان وفتاتان فافتتحوا الرقص على نغم الموسيقى فأشترك فيه نحو أربعين أو خمسين من الحضور وتناوبوا ادواره إلى منتصف الليل وفتحت البوفيه حينئذٍ فدخلها المدعوون رجالاً ونساء وهي حاوية أفخر ما طهاه الطهاة وأندر ما رأته الموائد وأعتنق ما حوته الدنان

ووقف الإمام أحمد مع حليم بك في شرفة من شرفات الدار وقال له لقد صدق الشاعر حيث قال:

إذا اشـتملت على اليأس القلوب * وضـاق بما به الصـدر الرحيب
وأوطنـت المكـاره وأطمـأنـت * وأرسـت في مكـامنهـا الخطوب
ولم تر لانكشـاف الضـر وجهاً * ولا أغـنى بـحـيـلـتـه الأريـب
أتـاك على قنوط منـك غوث * يمن بـه اللطيف المسـتجيـب
فكـل الحـادثـات وأن تنـاهـت * فـمـقـرون بـهـا فـرج قـريـب

من يحسب إننا في أقل من سنة ينفرط عقدنا ثم ينتظم ويتفرق شملنا ثم يجتمع وتحل بنا البلايا والمحن ثم تنفرج ونعود إلى أحسن مما كنا. من كان يظن أن حليمة يخرق الرصاص صدرها ويتولاها المرض والنحول ويقضي الداء عليها ثم تبعث حية وتسترد قواها في شهر من الزمان. ولطالما كنت أجهل الحكمة من غسل الموتى وأقول في نفسي لابد من سبب له إلى أن استفاقت حليمة وهي تُغسل وتكفن لتدفن فرأيت الحكمة في ذلك واضحة كالصبح لذى عينين ولولا غسلها لوارياها التراب وهي في قيد الحياة. ولقد قرأت عن كثيرين فتحت قبورهم فظهر إنهم دفنوا فيها إحياء وهم في حالة الإغماء ثم استفاقوا وحاولوا الخروج منها فقضي عليهم بعد أن ذاقوا العذاب ألواناً

ومثل حليمة هذا الشاب الإنكليزي الذي اكتنفته اللجج ثم قذفت به بعد أن قطع كل رجاء من نجاته ولقد سمعت بالأمس قصته وقصة أخته من بعض الذين شاهدوهما من ركاب الباخرة التي كان فيها فلم أر في أقاصيص الأولين والآخرين ما هو أغرب من نجاته

أو لا تحسب نجاة أمين بك من هذا القبيل بعد أن سقط أمام مركبة الترامواي وكاد عجلها يسحق رأسه أضف إلى ذلك النجاة من الإفلاس الذي قصده عزرا الخبيث لهذ البيت الكريم وبيت الخواجة لاڤي انتقاماً من استير لأنها عرفت مكره وأبت أن تقترن به. ولقد جاء الحكم عليه مؤدباً له ورادعاً للمحتالين عن التمادي في غيهم وسيق إلى السجن عدلاً وعادت الأموال إلى أصحابها والفضل في ذلك لاستير التي اكتشفت أكثر مخبآت هذه القضية بذكائها وفطنتها فعاد كل شيء إلى نصابه وعدنا إلى أفضل ما كنا عليه بمجيء

لورد بنشيلد إلى هذا القطر لأنه ابتاع من الحكومة مئة ألف فدان وعقد لها شركة ووزع أكثر أسهمها على بيت الخواجة لاڤي وأصدقائه. وإني أحسب اقتران هذا الفتى الإنكليزي بأبنة مصرية من تباشير اقتران الغرب بالشرق فلقد فصلت بينهما الأغراض السياسية زماناً طويلاً من قبل عهد الاسكندر ذي القرنين وعسى أن يتصلا بعد الآن فيزول ما نراه من النفور بين الشرقي والغربي. وهذا العقد الشريف عقد الزيجة الذي طالما وصل بين الشعوب والقبائل من عهد المصريين القدماء وألف بين الأمم المختلفة هو الضمان الوحيد لإعادة الامتزاج بين دماء الشعوب ونزع ما تولد فيها من الفوارق بتوالي الأزمان

ولقد حضرت الاحتفال باقترانهما في الكنيسة المرقصية الكبرى وحضره غيري من ائمتنا مع نظار الحكومة ومستشاريهم ووكلائهم فراقني ما رأيته من اجتماع المسلمين والمسيحين والإسرائيليين ومن اشتراك أساقفة المذهب الإنكليزي مع أساقفة المذهب القبطي فإن ذلك كله من أدلة التقرب الواجب بين المذاهب والملل ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة وما بينهم من الاختلاف ليس بضائر إذا لم يستعملوه وسيلة للضرر ولا سبيلاً للكسب

وبينما كانا يتكلمان دنا منهما هنري وبهية متكئة على ذراعه وسلما عليهما فهنأهما الإمام أحمد وأعاد لهما بعض حديثه الأخير فشكره هنري على ما سمعه منه من الأقوال الفلسفية والتهاني. القلبية والتفتت بهية إلى حليم بك وقالت أن جمال تلك الليلة لا ينقصه إلا حضور حليمة. ثم أقبل السر ادورد برون مع مدام واصف بك وواصف بك مع مدام لاڤي والخواجة لاڤي مع لادي برون وأمين بك مع استير والخواجة يوسف مع دورا ووقف الكل حول هنري

وبهية والإمام أحمد وحليم بك والتفتت بهية إلى من حولها وفي لحظة من الزمان مر أمام مخيلتها ما مر بها وبالذين حولها من العبر منذ التقو في البالو الخديوي إلى تلك الساعة فجالت الدموع في عينيها دموع الشكر للعناية التي بدلت أيام البؤس بأيام النعيم وجمعت شملها بحبيبها بعد ذاك الفراق الأليم

وعرضت هدايا العروس وكان بينها الماسة اليتيمة المعروفة بباشا مصر وثقلها تسعة وأربعون قيراطاً ويقدر ثمنها بنحو ستة وأربعين ألف جنية أهداها واصف بك إلى ابنته بعد أن صاغها لها في قلادة لتعلق في عنقها فدلت على أن ثروته تفوق ما قدره المقدرون

بينما كان الاحتفال قائماً في دار واصف بك باقتران ابنته كان الخدم يحتفلون باقتران آخر فقد حضر شيخ من المأذونين وكتب كتاب قدم خير جارية بيت الخواجة لاڤي على عبد الله خادم بين واصف بك واستأذن الاثنان أسيادهما في السفر إلى بلادها وأهدت إليهما بهية واستير ومدام واصف بك ومدام لاڤي هدايا كثيرة. ولم يكن سرور الخدم أقل من سرور أسيادهم أما زين الدار خادمة عزرا فلم تشاركهم في أفراحهم بل ذهبت إلى السجن لتخدم سيدها فيه وكانت أعطف الناس عليه وأشدهم ولاء له

*****

فهرس

كلمة في فتاة مصر ٥
موضوع فتاة مصر وأبحاثها ٧
الفصل الأول السفر إلى المشرق ١٠
الفصل الثاني نادي الصحافة ١٥
الفصل الثالث البالو الخديوي ١٧
الفصل الرابع بداءة البلبال ٢٩
الفصل الخامس شؤون مختلفة ٣٦
الفصل السادس الشركات الأجنبية ومبيع الأطيان ٤٣
الفصل السابع البورصة ٤٩
الفصل الثامن دار الحريم ٥٩
الفصل التاسع التقرير السري ٦٣

الفصل العاشر دار الخدم ٦٧
الفصل الحادي عشر السقوط والسفر ٧٢
الفصل الثاني عشر مجلس النواب الياباني ٧٧
الفصل الثالث عشر القرض الياباني..... ٨٣
الفصل الرابع عشر مظهر الحب ٨٧
الفصل الخامس عشر باب الأمل..... ٩٤
الفصل السادس عشر لوعة الوداع ٩٧
الفصل السابع عشر الباخرة في السويس ١٠٥
الفصل الثامن عشر الشكوى ١١٣
الفصل التاسع عشر الحيلة..... ١١٧
الفصل العشرون رأس السنة ١٢٠
الفصل الحادي والعشرون الاعتداء ١٣١
الفصل الثاني والعشرون شؤون مختلفة ١٣٩
الفصل الثالث والعشرون السفيران ١٤٦
الفصل الرابع والعشرون تغير الشؤون..... ١٥٦

الفصل الخامس والعشرون دار الحرب ١٦٩
الفصل السادس والعشرون بين الحاضرة والآخرة..... ١٩٠
الفصل السابع والعشرون تقرير برودي..... ١٩٦
الفصل الثامن والعشرون التهييج ٢٠٢
الفصل التاسع والعشرون النقه ٢٠٦
الفصل الثلاثون الخطر الأصفر ٢٠٩
الفصل الحادي والثلاثون المرافعة..... ٢١٥
الفصل الثاني والثلاثون سرقتان..... ٢٢٤
الفصل الثالث والثلاثون الفقر بعد الغنى ٢٣٢
الفصل الرابع والثلاثون القرض الجديد ٢٣٧
الفصل الخامس والثلاثون الرجوع من السفر ٢٤٣
الفصل السادس والثلاثون ثالثة الأثافي ٢٤٩
الفصل السابع والثلاثون من مرسيليا إلى مصر ٢٥١
الفصل الثامن والثلاثون كشف المخبأ..... ٢٥٦
الفصل التاسع والثلاثون (الخاتمة) ٢٦٢